فرات المحسن

من يسمل عين الحرب؟

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

من يسمل عين الحرب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المؤلف: فرات المحسن

الكتاب: من يسمل عين الحرب (قصص)

صدرت النسخة الرقمية: تموز/ يوليو 2025

الطبعة الأولى: 2018 دار نشر اوروك ميديا ـ ستوكهولم ـ السويد

- **الناشر: "ألف ياء AlfYaa"**
- **الموقع الإلكتروني:** www. alfyaa. net

- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**"ألف ياءAlfYaa"**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.

"ألف ياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فرات المحسن

من يسمل عين الحرب

قصص

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الفهرست

عن الحرب أتحدث 7
يوم آخر في حفر الباطن 9
مساءات الوحشة 37
الوقوف عند الزمن الأخر 69
صوتك حلو 99
النهر يكتم أسراره 115
المشهد الأول 117
المشهد الثاني 134
سيرة ليست للسرد 149
سماوتومو 193
أرواح للشجر 217
ورقة اليانصيب 241
العودة إلى الوادي المقدس 293
صدر للمؤلف 311

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عن الحرب أتحدث

لِمَ بدأتْ وعلامَ انتهتْ؟

البحث عن مسبباتها ومسمياتها ليس بذي جدوى. ليسمِّها الجميع بما يشتهون من مسميات. لتنتصر بشاعتها المجذومة، وتملأ صدورهم بقيحها. ليتمجد أبطالها. ليهتفوا ولهاً بما حققوه من قذارات اتخمت البشر زقومها اللعين، وأورثتهم خيبتها الأبدية.

لتتشظى زهور الوحشة، ويملأ رحيقها سلال النصر، لمن يريد نصراً يختلط فيه البارود بالدم، بالعرق، بالجوع، بالمواجع، بالجنون.

ليلعنها كارهوها، وليبضعوا عيون مشعليها، ويحرقوا كل ورقة خُطّت لتمجيدها.

في جميع الأزمنة ومختلف الأماكن، عند السفوح، في الصحارى، في الوديان، في المدن، بين البيوت، في البكور والهاجّرَة، عند العشيَّة أو العَتْمة أو حتى السّحَر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هـي.. هـي الحـرب لا تختلـف أسـبابها ومسـمياتها ولا حتـى مبرراتها.

ليست معنية بفصول وتقلبات مناخ.

صماء بكماء لا تنصت لعذاب الأرواح وشجونها وشكواها.

الحـرب غـول بعـين واحـدة. عـين لا تـرى غيـر الشـر والكراهية.

عين موتورة لئيمة تعشق الآثام والحقد بشبق غريب.

كلمـا اتقـدت نارهـا قـذفت مـن جوفهـا أشـياءها الشـيطانية المجنونة المرعبة.

دائما كانت سيرة الناس التي قادتهم إليها عثراتهم، غواية من ذلك الجنون. جرجرتهم إلى أتونها وهم منزوعو الإرادة، لا بل كـانوا مكبلـين بـأغلال. يغـذون السـير دون هدايـة، ولا ينفـك يراودهم فزع، كلما بحثوا عن سكينة. تستبيحهم أحلام من آثام وموبقات، تجرجرهم وراءها مثل ذبيحة تقدم لنصب يكرههم مثلما يمقتونه. مجمرة من نار تشوى فيها الأرواح كل لحظة. تورثهم فجيعتها فيروحوا يلوكون هلوساتهم ، يجترّونها.

من يا ترى خرج أو يخرج منها دون لوثة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يوم آخر في حفر الباطن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

القمر ينير الساتر الترابي بالتماع حاد مختلج، تبدو معه مواضع الفوج بقعاً قاتمة تتدرج مجاورة قوس الساتر المديد. مركز الفوج عند موضع القيادة وفصيل المخابرة ثم الطبابة. ثلاثة تلال صغيرة داكنة ترقد كالقبور. لا أثر للحياة فوق الرمال سوى عوسجات تتناثر بين طيات كثبان الرمل وملاجئ الفوج. أشواك يابسة كأنهن عجائز متشحات بالسواد يرقدن متبلدات وسط تلك الدكنة الموحشة. الملجآن الشقيان الطويلان يخترقان الفوج من المركز باتجاه سفح الساتر فيبدوان كعقربي ساعة. يسفر ضوء القمر في تلك الوهدة عن خارطة مبهمة لطرق ميسمية خطّتها الأقدام، تتشابك بفوضى في جميع الاتجاهات.

للمساء معالمه المميزة في حفر الباطن. تبدو السماء الصحراوية أشد وضوحاً حيث تتلألأ نجومها بارتعاش لذيذ، ويبدو الأفق البعيد مثل كوّة هائلة فسيحة سوداء تتناثر الالتماعات داخلها بين الحين والآخر. نسائم الهواء الرطبة الباردة تحمل رائحة ثمار متعفنة تخالطها روائح بارود ومواد أخرى محترقة.

الرمل الأملس يتراصّ مع اشتداد الرطوبة الباردة، فيشكل طبقة منـدّاة متماسكة، تتيح لي تكوين خطوط مبعثرة مبهمة بإصبعي اليابسة فوق سطحه، أكتشف دائما أنها ملامح متشابكة لوجوه فزعة وأطراف نافرة. ليس مستغرباً أن يتدبر المرء في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تلك الوحشة والمجهول شيئاً يلهو به. طنين الموت يضج في الجوار طوال الوقت فيدفعنا للتوطن معه بدعابات وألعاب ساذجة. لعب تمجّد ضعفنا وقدرتنا للتكيف في آن واحد. فالخوف واليأس خليق بالمرء تجرّعهما دون غضاضة حين تبدو النهايات مؤكدة وقريبة.

بعد نهار طويل لا معالم واضحة له سوى السراب الرجراج في الأفق البعيد، ورجع أزيز الطائرات المحلقة في كبد السماء، دوي انفجار القنابل المتساقطة دون سابق إنذار، وصفير الريح المشبعة بروائح البارود، تنفخ في الرمل. كان ذلك هو نهارنا الطويل، نتجرعه بحرقة انتظار أمل. بعد ذاك اليباس يأتي المساء البليل شديد البرودة. ومع هبوط الظلمة يتبدل إيقاع الأرض وكذلك الفوج. الظلام يشي بالمتناقضات. الخوف من أن يكون غطاء لهجوم قادم، ولكن في الوقت نفسه يوحي بالطمأنينة، فتدب الحركة عند الطرق الميسمية والملجأين الشقيين، وتبدأ الزيارات بين أفراد الفوج. تسمع بين الحين والآخر أصوات صراخ عابث وقهقهات منفلتة تجلجل عند أطراف الملاجئ، تختلط بضجة آليات تتحرك في الجوار دون أنوار. الظلام يحفز للتجرؤ وتملّي الجهة الأخرى المقابلة للساتر، حيث يتحفز المجهول بملامح غائمة، ولكن الأكيد أن هنالك في ذاك الغور الخامد عيوناً ترصدنا وتنتظر مثلنا جزعاً أو خوفاً.

لا قرى، لا مدن، لا ضوء غير ما يجود به الرب وتنيره القنابل. خلفي في الأفق البعيد تنبلج السماء عن كتلة ضوء كابٍ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لمدينة تتراءى لي مثل تل سحري. أي مدينة تلك.. ؟ البصرة، عبادان أم أنها الكويت ما برحت تضج بأنوارها المبهرة مثلما دخلناها أول مرة. ولكن الأفق يبدو فارغاً موحشاً يخالطه لهاث سائل دبق عتيق يشفط رمل الصحراء الهامد حبة إثر حبة.

أرحت جسدي المتشنج فوق الرمل البارد جوار باب الملجأ. فتحت أزرار البذلة، شممت رائحة عطنة أردت إبعادها بتعريض جسدي للهواء ففتحت أزرار القميص الداخلي. شعرت كما لو أن كائناً أخر يشاطرني ملابسي. كائن صحراوي تختلط رائحة عرقه النازّ بروائح براز بهائمه.

تيبست جلودنا في هذه المفازة مع تغير المناخ اليومي. الانتظار الطويل في جوف حفرة رطبة باردة ينثال الرمل من سقفها وجوانبها عند أقل اهتزاز. صهاريج الماء تأتي أسبوعياً عند المساء دون موعد ثابت. فصيل المخابرة يهاتفنا بذلك فنذهب عبر الملجأ الشقي لنملأ الحاويات الحديدية ونستعمل الماء بتقنين مفرط، متناسين الاغتسال خوفاً من العطش، وبانتظار محالفة الحظ للحصول على إجازة والجلوس تحت صنبور ماء دافئ للاستمتاع بصوت خريره السحري منساباً فوق الجسد المسترخي.

كان بيتنا قريباً من حّمام (الأمير) بمائتي خطوة لا أكثر. أبي عامل الصيانة في مرآب "الأمانة"، مغرم بالذهاب إليه كل يوم، حتى أصبح الحّمام وكأنه جزء ملحق للبيت. كنت وأمي نرقب يومياً قدومه لأحمل فوق رأسي صّرة الملابس وأسير خلفه بتثاقل. كنت أتهيب المكان ويتعبني مجرد التفكير فيه.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

جدرانه العتيقة، ظلمة الممر الضيق، الأنابيب القديمة المنداة، البخار الذي يغطي جميع الملامح، قطرات الماء المتساقطة برتابة من جوف القبة، الرجال العراة وصدى الأحاديث، كأنها صادرة عن جبّ عميق.

كان يتركني بسنواتي الثماني أغتسل وحدي ويرقد هو مسترخياً فوق الدكة المرمرية الساخنة وسط الحّمام. يشبك يديه خلف رأسه ويروح يطالع جوف القبة. أتفرس وجوه الرجال وسط الضباب. تنفجر أصوات غليظة بين الحين والآخر تنادي أسماءً أو أرقاماً لا أفقه كنهها. يغريني سحر المكان وفضول الطفولة أن أكتشف مجاهل الحمام، فأدب حذراً نحو الممر المعتم حيث الغرف الصغيرة بضوء مصابيحها الكابية، مرصوفة على جانبي الممر مثل دكاكين. كانت أرض الغرف مغطاة بطبقة سميكة من كلس أبيض مصفر، تخالطه زرقة فيروزية باهتة. لم أخطُ أبعد من ذاك الممر خوفاً من أن يبتلعني دهليز آخر، وفي كل مرة أجدني راجعاً مرتعباً فأجد أبي عند مكانه. ينهض ليفرك جسده بقوة ثم يعود للاسترخاء ثانية. فجأة ينهض بخفة ويستحم، ثم يأتي دوري فيدعك جسدي بيديه الخشنتين الثقيلتين، ثم يلفني بالمئزر، بعدها نرتدي ملابسنا ونخرج. تلك كانتا ساعتيه الطقوسيتين. أصبح الدرب وطقوس الاستحمام مألوفين عندي بكل تفاصيلهما، ولكني بقيت دائماً أحمل ضغينة ما نحو ذاك المكان.

كان يوماً شتائياً حين خرجنا. وكون جسدي ما زال يحمل دفء الحمّام، شعرت بالضيق من الملابس الثقيلة. وددت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

التخلص منها، ولكن أبي كان يسحبني بسرعة للوصول إلى البيت.

عند المنعطف نادوا على أبي باسمه وبصوت حاد كأنه قادم من جوف قبّة الحمّام، توقفنا. ثلاثة رجال ينتظرون في العتمة. التزم أبي الصمت ثم مد يديه ورفعني ضاماً جسدي إلى صدره. شعرت بارتعاش جسده عندما تحركوا نحونا. توقفوا على بعد خطوات، كانوا بملابس غير معتنى بها، يحملون بنادق مصوبة نحونا. بادرنا صاحب النظارة الطبية السميكة.

- حمّام العافية.. دع الصبي يذهب إلى البيت.

تشبثت يداي برقبته، ولكني شعرت أن يديه تحاولان إعادتي إلى الأرض. طالعت بفزع وجهه المتحجر. نظرت عميقا في عينيه الكلسيتين. قبّلني وأنزلني ثم دفعني من كتفي ففهمت.

هرولت خائفاً أتلفت.. أجهشت أمي بنحيب رافقها لليال طوال دون عودة لأبي، بعد أيام جهزت أمي حقيبة وضعت فيها ملابسا وطعاماً، وغادرت الدار بعد أن أوصت أختنا سمية بي وبأخي الصغير كريم. لم يطل غياب أمي، وحين عادت بعد يومين، بكت بحرقة مع نسوة من أقاربنا وكانت تلهج طيلة الوقت بعبارة واحدة، رمضان الأسود عليكم. لم أكن لأفهم كنه عبارتها تلك ولكن بعد حين عرفت أن لا عودة لأبي.

بعدها لم أقارب حمّام الأمير أبداً، ولكن صورة المكان كانت تراودني بإلحاح. الباب العريض العالي ذو الخشب المتهرئ، الممر الداخلي عديم اللون، صوت قرقعة الطسوت ورائحة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المناشف الدبقة وجسد أبي المسترخي فوق الدكة الساخنة. ذاك الخوف والعواطف الحادة بقيا يسكناني أبدا. رنين أهوج يبسط سطوته وينمو في صدري، يغلّ وحشته في تلافيف ذاكرتي دون شفقة ليشظيها إلى قطع مبتورة حادة ومتنافرة.

* * *

تنبهت لصوت خشخشة خافتة مرتبكة، فأدرت نظري صوب مصدرها. كان جرذ متكور مثل كرة صغيرة مصنوعة من خرقة قماش كالحة، يمسك بين يديه الصغيرتين قطعة من بقايا رغيف يابس، يحرك أذنيه وبوزه برشاقة سريعة حذرة. الأصوات البعيدة للانفجارات بين الحين والآخر تجفله، فيهرب عن رغيفه نحو جحره عند حافة الملجأ اليسرى تحت أكياس الرمل، ثم يتقدم بتباطؤ حذر متشمماً المكان، مقارباً جدار باب الملجأ حيث ترك قطعة الرغيف، ثم يتوقف رافعاً أذنيه الصغيرتين محاولاً التغلب على الخوف، بيد أن جوعه أنساه وجودي، أو أن وجودنا سوية وتشابه العيش طمأناه، فخرج للبحث عن الطعام، أو ربما كان ذلك نوعاً من التحدي الغريزي.

حركت جسدي، فلم تكن ردة فعله، غير رفع قامته ولحس يديه، وطالعني بعينين واسعتين كانتا تملآن وجهه المدبب الجميل، ثم خطا خطوة مترددة مبتعداً، وعاد يدبّ بحذر مرة أخرى نحو رغيفه دون خشية، مركزاً نظره نحوي طيلة الوقت.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

طولــه يقـارب العشـرة سـنتمترات. دقيـق الجسـد والملامـح، ينتهي ذيله بخصلة بيضاء شاحبة تبدو تحت ضـوء القمـر قطعـة صـوف منفصـلة عـن جسـده، تلاحقـه عنـد الهـروب ثـم تجـاوره بسكينة. وكما أقدامه الصغيرة تخط وقعها برشـاقة، فـوق الرمـل الرطب، فإن خصـلة ذيلـه تلـك، كانـت تتحـرك خلفـه مثـل بنـدول ساعة جدارية. تمحو كل ما خُطّ أمامها فوق الرمـل. كـان ذلـك يجـري وكأنـه مسـألة معـدة سـلفاً لإخفـاء الآثـار عـن الآخـرين. يتجرأ ويخطـو نحـو الرغيـف بحـذر وتـوفز شـديدين، وبخطـوات رشيقة محسوبة، أما الخصلة البيضاء فلا تنسى واجبها.

تـُرى، أي خـوف جعلـه يكتشـف فاعليـة هـذا التمويـه؟ أهـو الخـوف مـن أن يتعقبـه المـوت؟ أن يـدب أو يسـقط الهـلاك مـن زاوية ما مقتفياً أثـره ثـم يسـحقه دون رحمـة؟ ليتنـا نمتلـك بعضـاً مـن حـذره وقدرتـه تلـك. أن نجـد العـون والقـوة علـى أن نمحـو خيبـات ثقـالاً نجرجرهـا دائمـاً وراءنـا بـإذلال. نريـد نسـيانها أو إخفاءهــا ولكنهــا مــن الحــدة والرســوخ تنبثــق وتقــف أمامنــا بضــراوة. ومــع ذلــك ترانــا نقــاوم كــي لا تهرســنا بشــيء مــن الصلافة والمباغتة. فجأة نجدها أمامنا مرة إثر أخرى، حـادة، موجعـة، مذلـة. لا نملـك القـدرة علـى إخفائهـا أو نسـيانها. ولكـن أنستطيع فعل ذلك؟ أنستطيع محو تلك الآثـار المريـرة؟ وقبـل أن تثـار كـل تلـك الأسـئلة، هـل نحـن علـى يقـين مـن براءتنـا فيمـا حدث؟. سؤال صعبٌ جدا كان ذلك بالنسبة لنا جميعاً.

فعلت أمي الشيء عينـه. أرادت أن تمحـو خطـوات الماضـي. أن تبعد ذكرى أيام ليست بالطيبة، وأن تجدد حياتها. وّدت فقط،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وليس لشيء آخر، نسيان ما فات، وتأكيد كونها ليست من النساء البائرات، بعد أن أحالها القدر عنوة إلى أرملة مع ثلاثة أطفال.

لم أكن وإخوتي قد خطونا بعد بعيداً عن صورة أبي. ولكن، وبشكل قسري رسمت لنا ملامح صبا غريبة. كنا ندرك جميعاً أن محنة أمنا كبيرة. كانت تصارع بضراوة ماضياً مسلطاً تحاول تهشيمه. قدر فُرض عليها دون خيار. شيء من التجديد، وربما ضربة حظ غير عاثرة، توقظ بقايا النور في الزوايا المعتمة. محاولة لمحو خسائر متكررة رافقتها طويلاً، وتأكيداً لذاتها ووجودها كامرأة. كان حلماً ظنته يستطيع لملمة نثارات الطمأنينة المتشظية، التي حسبت أن الوقت ما عاد يكفي للحصول عليها.

لم يمض وقت طويل حين شيعت من جديد أحلامها المتبقية، صُعقت وخيّم حزن ثقيل فوق روحها. كان انتشاؤها جد قصير، استنزفت معه جل طاقاتها فاختارت في النهاية الصمت. الصمت ولا شيء غيره. صمت راكد ثقيل يفترش زوايا البيت كأنه فطر شيطاني دبق لا فكاك منه. تستوحشها الأمسيات كثكلى، فتنزوي عند التخت متكئة لجدار المطبخ، تجول بنظرة بلهاء فضاء الدار. تجتر الذكريات كلعنات تطأ أيامها دون رحمة لتحيلها رماداً جهنمياً كثيفاً يسد كل المنافذ. خواء لا متناهٍ يشرع الأبواب ويزحف بلزوجته فوق الحيطان.

كنا معها نودع دغدغة أحلام، ونداري ألم الفضيحة بروح صبية تتسارع حولهم الأحداث دون فطنة. وحين أدركنا الأمر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

اخترنا الصمت أيضاً. بدا لنا مقنعاً جداً دثارنا الكاذب ذاك. ولكن ملامح الأحداث المتعاقبة بدت أكثر تشابكاً وإيلاماً. كانت أقدامنا تنغرز ثم تغور عميقاً في أكذوبة صمتنا، دون أن نستطيع اللحاق ولملمة ما تبقى. كنا فزعين من أن نفقد شيئاً ما، حلماً ما. ظننا دائما أنه قادم وربما يستره الصمت ويحميه لحين.

من العسير أحياناً اكتشاف الدناءة، ولكنها في النهاية تسفر عن نفسها دون مواربة. فقد بدأ رجل الدار الجديد يختزل الزمن سراعاً، ليكشف بدفعة واحدة وبصلافة مقيتة عن كامل بذاءاته. كان صمتنا استسلاماً يائساً. وقد أقنعه تيبس التساؤلات في حناجرنا برضانا التام عن كل ما يفعله. أيقن بفطرته الخبيثة أن إرثنا الوحيد هو الصمت، وكان يكفيه ذلك ليفعل ما يشاء.

لم يحدث أن ناقشنا الأمر. فعلنا ذلك دون أدراك لوجود مبررات مقنعة. كنت متأكداً في اعتقادي ذلك. وكان الشيء الأكيد بالنسبة لي، أننا جميعا نحمل نفس المشاعر والتبريرات لذاك الصمت. توضّح لي الأمر بشكل أكيد، حين أسرّتني سمية بشيء من الاستحياء أنها لن تقبل الزواج بابن أخته، وبأنها لا تشعر بأدنى عاطفة نحوه أو الأحرى تكرهه. كان صوتها خافتاً متهدجاً. وحين رأت غضبي وسمعت رفضي العلني لهذه الزيجة صمتت بدهشة وفزع، وكانت تنظر نحوي بعيون ضامرة قلقة، وكأنما تتوسلني لأكتم صوتي وسرّها الذي أباحته. كنا سوية نسير وسط السوق المزدحم، متوجهين إلى أستوديو التصوير لالتقاط صورة لسمية بمناسبة دخولها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

امتحـان البكالوريـا. ولجنـا بـاب الأسـتوديو ثـم صـعدنا الـدرج الحلزونـي الضـيق، صـامتين بحـزن منهـار. لـم ألحظ كـم طـال صمتنا حين تنبهت لأقدام المصور وهما تصدران ذاك الإيقاع الـراكض فـوق السـلم المتصـل بغرفـة التصـوير. جلسـت سـمية أمـام آلـة التصـوير، وبخجـل ظـاهر ألزمـت نفسـها بابتسـامة شاحبة، حين طلب منها المصور ذلك. عندها بـرزت الغمازتـان العميقتـان وشـعّ وجههـا المـدور الجميـل، وعيناهـا الواسـعتان، ولكنهـا بقيـت تتحاشـى النظـر نحـوي. وصـلنا البيـت صـامتين. طـوال الطريـق لـم نتحـدث حـول الموضـوع أو عـن أي شـيء آخر، وكأن ستارة حديدية أسدلت بيننا. كنت متأكداً أننـا نمـارس نفـس الحـوار الـداخلي ، حيـث تتقـافز الأسـئلة فـي صـدرينا متسـارعة دون أن نجـرؤ الإباحـة بهـا. فتنهمـر الحقيقـة المفجعـة جوارنا دون أن تهز ركودنا المقيت.

كنت خائفاً أن تصبح سـمية مثل أمـي و نـدخل طوعـاً، واحـداً إثر الآخر، قبوراً أسمنتية باستثناء عيوننا. فقط عيون متلصصة تكـون دائمـا لاهثـة بالفضـول ومصـدراً لاسـتثارة الأسـئلة، أمـا أجسادنا وأرواحنا فتبقى مكبلة خامدة عاجزة ووضيعة.

لـم أكـن أشـعر بـأني قـادر علـى إدامـة أي حـوار معـه، وهـو بدوره لم يرغب بذلك أبداً. ورغم أني لا أشاهده إلا في المسـاء، فقد كنـت أتحاشـى مجالسـته وأحـاول إيجـاد الأعـذار لـذلك رأفـة بأمي.

ولكنـه فـي هـذه المـرة صـعق حـين حدثتـه بصـوت مباشـر واضـح جلـي وعـال، بأننـا جميعـاً لا نريـد زواج سمـية مـن ابـن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أخته. وكمن كان ينتظر تلك اللحظة، طالعني بنظرة وحشية ثم انفجر صارخاً.

ـ لملمتكم من اللاشيء واليوم تجحدونني ... أولاد الأرملة.

لم أحتمل جملته تلك فصرخت في وجهه. أطلقت فتوتي من أسرها فصدمت زهوه، سحبته بكلتا يديَّ نحو الجدار وأطبقت كفي عند حنجرته فكان مستسلماً كلياً وطوع يدي. لم أطالع وجهه سابقاً عن قرب، ولم أنتبه لتلك الأخاديد التي تعج كدراً ولؤماً مثلما هذه المرة. ولكن أخي كريم سارع ليزيحني جانباً.

حين تحررت حنجرته، أختلط صراخه الأجش بعواء مسعور.

ـ اخرج ابن الزانية ، لا مكان لك في هذه الدار.

طالعت وجه أمي فكان صمتها بارداً كئيباً، وعيناها سارحتان معتمتان، تحدقان في السماء كأنهما تريانها للمرة الأولى. كان الصمت يحلّق فوق الرؤوس مثل الشيطان، صمت كلسي أصفر ثقيل. كل العيون تتفادى نظراته وتطأطئ، تحفر في الأرض لوماً واستغاثة من جرأتي. كذلك سمية. كان وجهها الشاحب بدون عيون، يبدو وكأنه طلي بالكلس. تائهة تلوذ جوار باب المطبخ وكأن الأمر لا يعنيها. أما كريم فكان يقف بجانبه مرتعداً يتوسله أن يخفف من حدة انفعاله وأن لا يجهد نفسه.

كان ذلك اليوم آخر عهد لي مع البيت. خرجت صامتاً أجرجر مذلتي مثل حصان هرم. تائهاً تبتلعني الأزقة. الناس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يمعنون النظر بي. لم أشعر بالخجل بالقدر الذي أحسست أن جسدي كان مطلياً بالكامل جبناً ومذلة. عرفت أنهم شموا رائحة ذلي وجبني، فراحوا يتفرسون ذاك الفتى الذليل الخاوي من فتوته والذي هرب عند أول مواجهة. وكنت أسمع همساتهم وكأنها صادرة عن جب عميق.

كنت مدركاً بأني اتخذت القرار الذي سوف يغير الكثير من الأحداث، ليس بالنسبة لي فقط وإنما للعائلة جميعها. ولكن الشيء الأكيد هو أنني اخترت عدم المواجهة أو لأحددها بمعناها الحقيقي، اخترت الهروب. لم أشعر حينها بأثر من ذلك وتيقنت أن بقائي سيكون مساومة كنت عاجزاً كلياً عن قبولها وممارستها. وفي قرارة نفسي، ورغم شعوري بتخليهم عني، فقد شعرت بالرضا وبأني استطعت أخيراً أن أزيح غماً ثقيلاً، وددت إزاحته والابتعاد عنه منذ فترة طويلة، كانت أغلب مسبباته مقتي الشخصي لسلوكه، معاملته السيئة لأمي وسمية، آراءه وتبجحاته الخرقاء الكاذبة، مزاجه المجنون المتقلب وكلماته الآمرة المعربدة، ضربات كفه الثقيلة فوق المنضدة أو حافة التخت، صوت شخيره ولهاثه الحاد.

ولكن بعد ساعات من التيه أحسست بالوحدة. وحدة تامة مغلقة، أسير فيها تحت سماء عارية مفتوحة تتدلى منها وجوه سعالٍ مكتنزة بمحاجر وأفواه تعجّ بزحمة من صراخ يصمّ الأذان.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أصـرّ صـاحبي محمـد الـذي لجـأت إليـه و قاسـمته غرفتـه الصغيرة، وهي عبارة عن مخزن صغير ملحق بفرن الصمون الذي يعمل فيه، أصرّ على أن نتخم روحينا تلك الليلة بالعرق الزحلاوي ، ففعلنا ذلك على أتم وجه. التهب رأسي بضجيج متوهج، وشعرت أني أكثر صلابة وجلداً مما كنت عليه حين تركت البيت. ولكن كان هناك شيء هلامي بدأ يرتج في رأسي مع صوت محمد وهو يترنم بأداء أغنيته بكلماتها المحورة، وهو ما اعتاد فعله مع جميع الأغاني الرائجة ليمسخها لصور هازلة، ثم أردفها بأخريات، متلذذاً برشفات من كأسه، مطلقاً لسانه السليط للهزء بكل المسميات التي يقودها حظها العاثر لمقاربة ذاكرته تلك الساعة. شعرت براحة تامة وأنا أشارك محمداً سخريته مما حوله، وإصراره الدائم على تحوير الحقائق، أية حقائق، حتى وإن كانت أغنية. أن تتشظى الأحداث ويخرق الزمن بلامبالاة، وباستهزاء وإذلال تامين. أن يتخلص المرء بسخرية فاضحة من كل الهموم والأوجاع، أن يغتصبها بإصرار ووقاحة وعلناً بأعلى صوته، كان ذلك كل ما كنت أحتاجه تلك الليلة.

كنت أنظر إلى محمد دائماً نظرة إعجاب، وأعتقد أنه رجل سحري أخاذ. قدم إلى بغداد دون تأريخ، دون أهل، دون زمن أو متعلقات، سوى دفتر خدمة عسكرية متهرئ، يحتفظ به داخل كيس نايلون كالح اللون، يظهره لمن يريد دون أن يبدي أدنى تذمر. فجأة ودون مقدمات انبثق في المنطقة مثل جنّي. افترش المقاهي وعمل في جميع المهن، قبل أن يستقر عاملاً في فرن الصمون الذي أصبح عالمه الخاص منذ أكثر من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عشر سنوات. لا يُعرف عنه سوى أنه قدم من إحدى قرى مدينة البصرة، بوجه شديد السمرة ورغبة جامحة بالعمل والجنس واحتساء الخمر، وقلب طيب وأليف، يكتشفه الناس دون عوائق أو عناء. وبشكل ناجز كان قد قرر كتمان سره حتى الموت. فلم يحدّث أحداً عن ماضيه، وكان مستعداً للتضحية بكل شيء من أجل إبقاء ذلك من خصوصياته غير المباحة، وما عداها وحسب قوله، فهي سبيل مباح لوجه الله تعالى ولمن يريد. كان دائماً يناضل دون هوادة ليتحرر من أية ارتباطات، ولا يخشى أن يكون أكثر جيران السوق والقريبين من فرن الصمون، مطلعين على تفاصيل أيامه، حتى وإن كان الأمر يتعلق بممارساته الماجنة. فمن الواضح أنهم جميعاً قد أقاموا نوعاً من الاتفاق الجنتلمان معه، دون مناقشة كيف حدث هذا ولم يحدث. والظاهر أنه لم يرغب أن يحقق في حياته بعد اشتغاله في فرن الصمون، سوى عيشه اليومي، رغم أنها كانت تبدو على درجة ظاهرة من السوء. ولكن يبدو أنه كان يمتلك قناعة طاغية بالاكتفاء اليومي.

لم يُعرف عنه تمتعه بدهاء وذكاء خارقين، أو إصراره على أن له رأياً خاصاً في أي موضوع. ولكن من الغريب أنه يستطيع تغيير سير الأحاديث بشكل تحسده عليه حتى الشياطين. كانت سيرته اليومية تبدو من اختياره، وهو من قرر أن تكون على تلك الشاكلة، دون تدخّل من الآخرين، وكانت خصوصياته تثير مودة الآخرين وأحياناً غيظهم، ولكنه دائماً ما كان يرضي الجميع ويتوددهم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تـأبط محمـد صـفيحة السمن الصـغيرة الفارغـة وراح يعزف عليهـا إيقاعـاً لأغنيـة هنديـة جميلـة، مصـاحباً ذلـك بأصـوات موسيقية مصدرها أنفه الأفطس. كانـت حنجرتـه تولـول بكلمـات مبهمـة متسـارعة، شـعرت بوقعهـا الفـاجع الملـيء بـالمواجع والألـوان الصـارخة المختلطـة، المتموجـة فـوق أديـم أرض متربـة، والغبـار المتصـاعد يظلـل الوجـوه الكالحـة وهـي تـذرف جوعها وقهرها. وقفت رافعاً يديّ نحو الأعلى، هازاً جسدي المتثاقل. بدأت صور الممثلات والممثلين التي تملأ جدران المخزن تتحرك وتقفز من أماكنها، وضجيج أصواتها المتناغم يصم الكون مختلطاً بإيقاع النغم المدغم الصادر عن الصفيحة، الذي صار يلج جمجمتي بتشويش سحري غير مألوف. رحت أسبح في شذا الكلمات السحرية. أدرت جسدي بسرعة حادة، محـاولاً تقليـد الـراقص الهنـدي ولكنـي سـقطت علـى الأرض. حاولت النهوض فلم تسعفني قواي.

حـين اسـتيقظت طـالعني سـقف المكـان الإسـمنتي العـالي، فأجلت نظري فوق جدران الغرفة الجرداء ثم اصطدمت عينـاي ببـاب الغرفـة الحديـدي ذي الفتحـة الصـغيرة المشـبكة. أعـدت وضـع جسـدي المتشـنج لأتكـئ علـى الجـدار القريـب، فتنبهـت لثيابي الملوثة بالقيء، وكانت هنـاك وجوه تطـالعني بـلا مبـالاة، فعرفت أني في مكان لا علاقة لـه بمحمد وغرفتـه. غرقت في لجة أفكار متضـاربة عن مغزى وجودي في هذا المكـان. هل كنتُ إحدى طرائد الليل لدورية شرطة، بعد أن عبثت وعربدت أكثر من المـألوف؟ أم أن أصـواتنا الضـاجة بالغنـاء والبكـاء أو شجارنا كان سببا لذلك؟ ولكن أين محمد؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كنت غير مدركٍ لمجمل ما حدث، ولكن في الأخير هدأت وشعرت بأني على غير عجالة من أمري لمعرفة السبب، لا بل سيان أعرفته أم لم أعرفه. ولم أسأل الرجال القريبين مني، وبدورهم كانوا عازفين تماماً عن الحديث معي. سارت الساعات ببطء شديد. عند المساء نادى شرطي باسمي، مشيراً بيده نحوي. تقدمني ونحن نسير في الممر ذي الضوء الخافت الذي يربط قاعة الحبس بالغرف الأخرى، ثم أوقفني عند باب غرفة علقت أعلاها لوحة خشبية مطلية باللون الأسود وخُطّ عليها بغير اعتناء وباللون الأبيض، ضابط الخفر.

زالت دهشتي عندما شاهدت زوج أمي يتربع أحد الكرسيين الضخمين المجاورين لمنضدة ضابط الخفر الواسعة، وكان يطالعني بابتسامة شامتة. لم يتفوه بكلمة واحدة، وترك الأمر لضابط الخفر، الذي أشبعني تهديداً وشتائماً، ختمها بجملة لا زلت أدخرها وكأنني مطالب أن أفصح عنها يوماً ما.

- ها.. شقي.. تتجرأ لتشتم الحزب!! سوف أجعلك تندم على يوم ولادتك. تتعفن بالحبس إلى ما شاء الله لتتذكر ولي نعمتك. أرجعوه فلي معه حساب في يوم آخر.

حين أطلق سراحي من الحبس بعد ثمانية أيام، كان كل شيء يبدو لي مشوشاً وعدائياً مما حدا بي التحوط من تهديد مرتقب كنت أشعر دائماً معه، أن هناك من يريد أن ينتزع مني وبشكل قسري شيئاً ما. وبإرباك وضياع، كنت أنزوي مع أسباب ومبررات مفتعلة أحياناً لطمأنة هوسي المتصاعد في مقاطعة عائلتي. ومثلما لم أصدق حديث محمد حين أخبرني بأن أمي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ركعت أمام زوجها وكذلك أختي سمية وتوسلتاه من أجل إطلاق سراحي. عندها أفرغت فورة غضبي وألمي المتراكم بوجهه واتهمته بالبغض والغيرة واللؤم، وملأت مأواه الصغير بكل النعوت التي جادت بها روحي الممزقة. اعتبرت تقولاته محاولة إذلال وحشية جديدة لما تبقى من رجولتي. لم أجرؤ على مناقشة الأمر معه. ومع مرور الوقت لم أبحث عمن يكذّب ذلك أو ينفيه، ولم أبادر للتحقق منه، بالرغم من أن الأمر كان يذلني ويسحقني في كل دقيقة من عيشي. ولم أسأل سمية أو كريم عن حقيقة الأمر حين قابلتهما عرضا بضع مرات. تحدثت معهما، محاولاً لملمة عواطف مبعثرة أو في طريقها للضمور، ولكني كنت فزعاً من أن يتطرق أحدهما لما حدث تلك الليلة أو بعدها. وكنت، وبأسى وسخرية، أحس مقدار الذل الراكد في أعماقهما، وكيف كانا يخشيان أن يبادرا لذكر شيء عن الماضي القريب، في الوقت الذي أشعر مثلهما باستكانتي وضعفي وخيبتي.

منذ خروجي من الحبس، وعلى امتداد عام كامل، لم أقرب الدار، وحاولت جاهداً الابتعاد عن أفراد عائلتي، بالرغم من أني كنت أعمل غير بعيد عن منطقتهم ، أو الأحرى وبدوافع مغرقة بالعاطفة اخترت وفضلت العمل في ذاك المكان القريب. كنت أكبح لهفتي وشوقي بكثير من المكابرة كي لا أدع مجالاً للشك لإقناع نفسي بأن ما أقوم به هو الفعل المناسب، وأن وجودي بالقرب منهم لا يعني إطلاقاً الرغبة في إعادة العلاقة معهم، بالرغم من أن ذلك كان يكلفني الكثير من الجهد والشجون التي كنت أسربها ليلاً ببكاء مرّ، ومراجعات صبيانية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لمواقف مترددة وعواطف تبدو أحياناً لا حدود لها. وبدا، وفي مرات كثيرة، أني ما عدت أستطيع أن أحمي نفسي من عواطفي نحوهم. ولكن يبدو في قرارة نفسي أني اخترت القطيعة. ومن خلال سيطرة مشاعر الإحباط نمت لديَّ رغبة جامحة وصبيانية لمعاقبتهم. وددت معاقبتهم بقدر إحساسي بالطعم المرّ للخذلان. وكان يفاقم ذلك، الحضور الملحّ وشبه الدائم لوجوههم ورضاهم الصامت عند خروجي الأخير من البيت. والأنكى من ذلك شعوري بأنهم يتجنبون ملاقاتي مما حدا بي للتحصن بمشاعر صبي مقامر، يستند في كسب الجولة على مدى قدرته في المطاولة. ويتوجب عليه مراقبة مشاعره بصرامة، وعلى وجه التحديد حين أجد نفسي وجهاً لوجه مع أحدهم بمصادفات غير محسوبة فأعاملهم بجفاء وغلظة. ووجدت في النهاية وكأنما صنعت سوراً لأمنع نفسي من الاقتراب منهم، وحسبت، وبشيء من الغباء والحمق الصبياني، أنني سوف أسترد كرامتي لو أجبرتهم على اختراق السور وطلب المغفرة عما اقترفوه من ذنب اتجاهي.

كنت أشعر أحياناً أني أغلّ روحي بعيداً في أثر حلم هلامي، أبحث فيه عن مستقر لروحي المعذبة، ولكني كنت وفي كل مرة أتعثر بخطاي وأجد أني ما عدت قادراً على لملمة شتاتي، وقد بدا لي الأمر وكأن قدميّ تنغرزان يوماً بعد آخر في مخاضة لم أقدّر حجمها، أو أن حدودها بدأت تهرب مني.

ومع هذا فقد احتفظت بسخطي بكبرياء مفتعلة ولكن عنيدة. وبمرور زمن ليس بالقصير ظننت أني بعدت عنهم بما فيه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الكفاية، وبما يجلب الاطمئنان، على أن وشائج كثيرة لم أعد بحاجة إليها، وقد بدأت تختفي من حياتي.

ولكن كل تلك الاستحكامات المفتعلة، المصدّات والانفعالات السائبة، كل تلك القلاع والأسلاك التي نسجتها وحشرت نفسي وسطها، بدت هشّة واهنة وباهتة. تهاوت فجأة بحدة جارفة، ووجدتني مرمياً وسط الدار أبكي مثل طفل، باحثاً عن وجه سمية الضاحك، عن غمازتيها الباسمتين، عن صوتها الهامس الرقيق وأحاديثها المبهجة وضحكتها الكتوم. بكيت وكأنما كنت أريد أن أغسل ذنباً ثقيلاً طاغياً لفّني مثل كابوس مفزع. ولكن صوت بكائي كان وحده من يملأ الدار، فخجلت وكتمت شهقتي، خنقتها بصمت أصم.

لم يمض على زواجها غير سنة واحدة حين وجدوها تسبح في بركة من دم قاتم ثقيل. لقد عانت الكثير وكتمت الأكثر. ولذا حزت وريدها. اختارت الموت بصمت دون أن تفصح عما يمور في قلبها الطيب الدافئ. لم تحتمل ذاك اليباس الشوكي الذي يلسعها باستمرار سياط مذلة دون أن تُمنح أي خيار في حياة طبيعية وهادئة.

* * *

سطع ومض خاطف شق ظلمة السماء ، ثم أعقبته أربعة انفجارات متتالية رج هديرها المزمجر محيط الفوج. تيبست في مكاني، ثم بدأت أزحف بعجالة نحو الملجأ الشقي القريب، وجسدي ينتفض من الخوف. قفزت داخل الملجأ مستنداً على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يديّ، وقعدت مستسلماً خائفاً أنتظر المجهول. أصابني الرعب وبدا أن قلبي سيتوقف، وشعرت بالاختناق حين أغلق فجأة ظل جسد ضخم وجه السماء المفتوح أمامي. للوهلة الأولى حسبته وكأنه فحل جاموس أسطوري قدم لكي يطمرني في حفرتي التي هيأتها بيدي. تكوم فوقي بثقله. انكمش جسدي وكانت يداي العاريتان تدفعان الجسد الثقيل بآخر مصدات درء يقين الموت.

ـ أنا رياض ...

ـ رياض.. ما الذي أتى بك الساعة يا فحل التوث؟!

ـ كنت قادماً إليك قبل أن يبدأ القصف. رأيتها.. رأيتها سقطت عند موضع الحفار جوار ملجأ حظيرة جابر.

دوت مرة أخرى مجموعة انفجارات متعاقبة هزت الفوج، وكان رمل الملجأ ينثال ليملأ شعري وملابسي. تنبهت إلى أني لم أجلب خوذتي ونسيت سلاحي تحت وسادتي في ملجأ السكن.

ـ أنت أيضاً دون خوذة وسلاح !

ـ قدمت لأحادثك دون أن يخطر لي ... أتظنهم سوف يهجمون.. وما ترانا فاعلين؟

ـ هذه أيام حاسمة. يبدو أنه قصف طائرات على ما أظن. إذ لم تسقط قذائف أخرى فوق الوحدات المجاورة. ولو أرادوا الهجوم الآن لاستمر القصف دون توقف، ولشمل الجبهة جميعها. على أية حال إنه لغز نحن غير قادرين على حله. وإن أرادوا الهجوم فإن عصا موسى الموعودة قد أكلها القطيع في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

غفلة منه. فلا خوذة تتدارك الأمر وبغير كلاشنكوف يتدبر الناس نجاتهم أحياناً.

ـ أينما أذهب أجد الفلاسفة أمامي. الآن أنت والبارحة هاشم وكأنكما تتعمدان الحديث بكلام لست بقادر على إدراكه. البارحة كنت أدندن بكلمات أغنية حفظتها منذ صباي دون أن أتملى معانيها، بل فقط أرطن بها لأن لحنها أعجبني. يا ليل الصبّ متى غده... أقيام الساعة موعده. هز هاشم رأسه بتثاقل وسألني بلهجة لم أرتح لها وكأنها تهديد:

ـ ها رياض، يمكن الوضع ما عاجبك، ماذا تقصد بليل الصبّ متى غده؟

حدثته عن حبي لتلك الأغنية، ولكني شعرت في النهاية أنه غير معني بتفسيري لنص الأغنية، بقدر إصراره على اعتبار أن الأمر يخفي وراءه قصداً آخراً. وأخذ يرطن بالوطنيات لأكثر من ساعة دون أن أدرك ما يبتغيه. الحقيقة أني خائف منه، فأنت تعرفه جيداً، فسبق وأن فعلها مع غيري. إنه متبرع إيذاء. كفانا الله شره. والله، لم أكن ألمّح بها لشيء آخر غير الأغنية. أتعرف أنت معنى كلمة صبّ؟

ـ الصبّ يا صاحبي، وبعد أن انتهى القصف الآن، هو الصبابة أي الحب أو العشق، الهيام والوله، دو يو أندر ستاند؟

ـ أثول. أبو العقد. لو تتفلسف لو تتعيقل. قل الحب وخلص. أخبره عن خوفي من تلميحات هاشم يرطن معي بالأجنبي!

ـ أتعرف أين نحن الآن؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ ياله من سؤال غريب؟

ـ لا تخف يا صاحبي فنحن في حفر الباطن. هذه الكثبان ليست لغير البدو وقطعان الإبل. سوف يأتي يوم قريب تطأ الإبل بخفافها قبورنا جميعاً، وتتبرز ثم تدفع بولها الساخن فوق الرمل، دون أن تدري أن تحت هذه الكثبان، يرقد ركام أجسادنا بكل ذلك الجلال من العاهات النفسية والجسدية. اطمئن فالإبل لن تكتشف خوفك أو خبث هاشم ولا يأسي وعقدي.

ـ أوه، ما الذي أتى بي إليك.. عليّ الذهاب الآن إلى الحظيرة. ربما حدث شيء ما أثناء القصف. على أية حال جئت أخبرك أن عبد الرحمن سوف يذهب غداً إلى بغداد في مأمورية. يمكنك أن تبعث معه رسالة إلى أهلك. هو من أخبرني ذلك. طلب مساعد الفوج منه إيصال رسائل جميع من يسكن أهلهم في بغداد. الوعد بإيصالها جزء من المأمورية الموعودة.

ـ ربما فعلت ذلك.

ـ فكر بالأمر.

* * *

سحبت بتثاقل الورقة عند الضوء الشحيح للقنديل المعلق في زاوية الملجأ، بينما كنت أنظر لعيون الجرذ الناطّة بين لوح السقف والصفيحة الحديدية. كانت أصابعي تهز القلم فوق الورقة هزاً خفيفاً مخدراً، لترسم دوائر متداخلة. راودني الإحساس الغامر نفسه الذي ينتابني بين الحين والآخر. الخواء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المضطرب تحت سماء مفتوحة مليئة بالثقوب الفاغرة. وحيداً، أسير في متاهة لا حدود تلجمها. ورغم عتمة وثقل سقف الملجأ، فقد شعرت بأن جسدي لا زال ممدداً فوق الرمل. تنبلج السماء فوقي مثل كوّة موحشة ترسل إشارات سحرية عبر نفقٍ بعيدٍ جداً، تأتي منه الأصوات شحيحة لا تستطيع أذناي تمييزها، فينتابني خوف يخالطه استسلام تام مطمئن، وكأنّ بي مساً سحرياً يشلّ كل حواسي. إحساس بالخدر التام والرغبة بالصمت.

لا أذكر عدد المرات التي كتبت فيها رسائل. فأنا أمقت كتابة الرسائل. وسبب ذلك لي الكثير من الإشكالات في أكثر من مناسبة. فأنا لا أجيد الحديث عن أمنيات وتمنيات وتدبيج تحايا، أو التعبير الدقيق عن المشاعر، وأجد صعوبة في سرد الوقائع ووصف الأماكن. وفي أغلب الأحيان أجدني عاجزاً كلياً عن كتابة ما أردت الحديث عنه، فأرجئه للقاء مباشر واعتذار يكون غير مقبول دائماً.

عندما كتب مدرس اللغة العربية عبد القادر البصام، مواضيع الإنشاء الأربعة فوق اللوح المدرسي الأسود، وطلب أن يختار كل واحد منا موضوعاً ليكتب عنه، ثم يجلبه بعد انتهاء العطلة الربيعية، طالعني مباشرة فتسقطت من نظراته رائحة التهديد. ومع هذا لم يترك الأمر يمر بسلام دون أن ينبهني بحدة وأمام الطلاب، بأن هذه فرصتي الأخيرة، وإن لم أحاول اغتنامها فذنبي على جنبي. كتبت عناوين المواضيع الأربعة في الدفتر، وتركت الاختيار حتى اليوم ما قبل الأخير من انتهاء العطلة، أو الأحرى قلبتها في رأسي دون أن أستطيع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الاختيار. ولكني أنجزت ذلك في اليوم الأخير وسلمت دفتري بروح مغموسة بفرح غامر، في أول يوم دراسي نهاية العطلة. أشاح المدرّس وجهه عني وابتسامة مصطنعة ترتسم بتثاقل فوق شفتيه. في اليوم التالي جلس فوق أول مقعد في الصف ثم نادى باسمي. أوقفني أمام الطلاب فشعرت بالارتباك والفزع فأطرقت رأسي. ثم انطلق صوته:

ـ ما الذي يفعله الطالب حين يصف مكاناً ذهب إليه؟ من يجيب عن ذلك؟

ارتفعت الأكف تتطاول كي يشير المدرّس لأحدهم بالإجابة لكنه صرخ بأعلى صوته أن اخرسوا. وكان صوته المجلجل مثل زئير أسد. ارتبكت الأكف الصغيرة، وراحت تنسحب واحدة تلو الأخرى. بدوري انكمشت وأحسست أن الجدران تقترب لتطبق وتهرسني. إحساس بالرهبة والانسحاق سيطر على روحي فراح جسدي يرتجف بتسارع ولم أعد أستطيع السيطرة عليه.

ـ غبي.. ما هذا؟ أهو وصف لحمّام شعبي يستحم الناس فيه أم هو سرداب موتى؟

نزّ جبيني عرقاً بارداً غطّى جبهتي، وراحت ركبتاي ترتخيان. قاومت اندفاع رغوة تصاعدت في أحشائي. ضحكات رفاقي أدخلتني في هلام سائل كثيف، فسقطت أخيراً مغشياً علي.

كان الخوف يسيطر عليَّ حين أفقت وأنا أرى كفّه الثقيلة تمسد فوق جبهتي بالماء البارد .

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ دلال صبيان. لا شيء سواه. انهض يا شاطر. رغم أنك لم تكتب عن الموضوع بشكل حسن، ولكن لا بأس. سوف أحتسبها لك هذه المرة.

حين جلست بين دفتّي مقعد الدراسة، كنت أحبس دمعتي خوفاً ورهبة. وكان خدر تام يسيطر على كامل جسدي. لم أكن بقادر على إسكات ضحكاتهم التي راحت تجلجل في رأسي. وكان جسدي الواهن يتفصد عرقاً بارداً، ويقف المدرّس أمامي وهو يغتصب ابتسامة شاحبة لم تتعدَّ حافتّة شفتيه الغليظتين.

* * *

وضعت الورقة جانباً وطالعت مكان الجرذ الفارغ. شعرت بحاجتي الملحّة لمحاورته. من يدري فربما يعرف أكثر مني سبب وجودنا معا في هذا المكان. وربما يخطو بحذر لاكتشاف حسن نية البشر أو شرورهم تجاه الحيوات الأخرى.

ولكن كم عمره الآن؟ أنضج أم أن الوقت ما زال مبكراً ليعرف أن قدميه زلتا عن الطريق لتقوداه إلى المكان الخاطئ، بالضبط إلى مكمن القتل. البشر وحدهم بحثوا عنه وقرروا اقتحام خلوته الصحراوية. عن عمد، زجّوه في نزاعاتهم وجعلوه يلتهم طعامهم المسموم. هم وليس سواهم من سيقوده لحتفه، إما تخمة أو قتلاً. ولكن أين يا ترى هو الساعة. ألديه أحد غيري يحاوره في هذه المتاهة، أم مل التطلع في وجهي العابس. لِمَ لا يأتي لمناجاتي.

سمعت خشخشة الورقة فشاهدت وجهه المدّبب الجميل والورقة بين أسنانه يسحبها متراجعاً فوق الفراش المغطى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بالرمل. مبتعداً بها نحو الزاوية. تشبث بالورقة أول الأمر حين حاولت أخذها منه، ولكنه فجأة تخلى عنها قاضماً بأسنانه الصغيرة زاويتها ثم هرب مختفياً بين الأكياس عند سقف الملجأ. شعرت بشيء من الارتياح والرضا لمثل هذه الدعابة فقد كنت في أمسّ الحاجة لها في هذا الوقت بالذات، لذا أمسكت قلمي وبدأت الكتابة.

أمي الحبيبة

تحية طيبة

أرجو أن تكوني بخير وصحة تامة. أنا لحدّ الآن بصحة جيدة وصاحبي بصحة وعافية أيضاً.

أشعر بحاجة شديدة لرؤيتك.

قبلاتي

ابنك المحب

ليل حفر الباطن في 23 /2 / 1991

ملاحظة

فجر يوم 24 /2 / 1991 بدا هجوم التحالف الدولي لإخراج الجيش العراقي من الكويت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مساءات الوحشة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وضعت قدمي فوق عتبة الغرفة وطالعت المساء الموحش الهابط جوار سياج السطح المكشوف. إنها بداية الشهر الثالث، وأنا أجلس وحيداً ضجراً في غرفتي الرطبة في بيتنا المتهالك، بعد أن تيقّنت تماماً بأني قد سُرّحت من الجيش بعوق كامل أصاب يدي اليمنى، إثر شظية ساخنة حزّت عضلة اليد وأماتتها.

أثناء خدمتي في الجيش كان أكثر ما يوحشني ويخيفني تلك الأمسيات حيث يُفتقد القمر وتختفي النجوم، حينها أشعر بظلمته الثقيلة تخترق روحي وتطليها بالوحشة والكآبة، فأنزوي خائفاً في ركن الملجأ، وهذا ما فعلته أيضاً طيلة أيامي الأخيرة في المستشفى. لم أكن أقرب أحداً، أو أتحدث مع أحد، فقط أرخي جسدي المنهك فوق السرير طيلة اليوم، أكوّره تحت الغطاء العطن الذي يوحي بوفرة الموتى الذين سُحبوا بإهمال متعمد من تحته، وهم ينزفون آخر صلة لهم بهذا العالم المرعب. أدع عينيّ تجولان في الغرفة الباردة، وأروح أراقب السقف ذا الطلاء البنّي الشاحب الذي يشي بالإهمال.

تجرأت وخرجت من غرفتي متحدياً وحشة المساء، ولكن الدكنة المرمية وسط الدار عبر السطح المكشوف، جلبت لي قشعريرة مفزعة، فتراجعت نحو الخلف وأغلقت الباب. جربت مرة أخرى وخرجت متحدياً خوفي. أطبقت أسناني بقوة ثم اقتربت من مفتاح إنارة المصباح وضغطت ، شعّ الضوء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ليغطي مساحة كبيرة من باحة الدار الواسعة. سكنت روحي بعض الشيء حين سمعت صوت التلفزيون ودردشة أمي مع أخي كريم في غرفة الضيوف المقابلة لغرفتي، والمجاورة للسلم الصاعد نحو السطح. فكرت أن أخرق المحظور، وأذهب نحو سطح الدار، متحدياً الخوف الذي رافقني طيلة سنوات خدمتي العسكرية. الخوف والذعر من المجهول الكامن والمتربص دائماً في الظلمة المقابلة. تشنجت عضلات وجهي وأنا أفكر بخوفي غير المبرر، بالرغم من وجودي بين عائلتي، ولكني كنت مقتنعاً بأن ليَ أسبابي الموجبة لذلك الخوف، الذي وجدته يرافقني طيلة تلك السنوات وينغّص عليَ حياتي، ويضعني في كثير من الأحيان موضع سخرية الآخرين واستخفافهم.

ذاكرتي تحدد بالضبط زمن بداية ذلك الرهاب أو الرهبة، والذي أسميه دون مراوغة خوفاً. أعتقد جازماً أن هذه الحالة لا تعدو أن تكون حالة إنسانية وليست خاصية أتفرد بها، وقد كاشفني بها آخرون كنت قد التقيتهم في الحظائر والسواتر أثناء المعارك، وكنت دائماً أتجمّل بآرائهم، وأجد أن من أشد الأكاذيب رخصاً تصنّع البطولة في أرض مجهولة أو ضد سلاح أعمى. إن الأسباب التي يمكن للإنسان أن يتخذها كي يبرر ضعفه، يمكن لها ألاّ تنتهي، ولكنها وفي الغالب تكون مصدراً مقلقاً وشعوراً بالضعف والعجز لا غير، وربما يختزل الآخرون ذلك الضعف الإنساني بطعون قاسية في الشجاعة ورباطة الجأش وحتى الوطنية، ويُختصر كل ذلك عبر كلمة صمّاء قاطعة ولكنها كافية للشطب على باقي ملكات الإنسان الأخرى، جبان.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شعرت بوطأة تلك الحالة بالتحديد، ومباشرةً بعد مضي أقل من عامين على سوقي كجندي إلى جبهة القتال مع إيران. كانت المعارك على أشدها، ولم تكن هناك فسحة للتفكير بأشياء خاصة سوى النجاة من الموت، تلك الأمنية التي بدت عسيرة على الجميع، مع كثافة النيران وأصوات انفلاق القنابل وأزيز الرصاص وتساقط الموتى. تمّلكني الفزع والخوف، وأصبت وقتها برعشة وشعور ببرد قارس نُقلت إثره إلى المستشفى لأرقد هناك لأسبوعين. كان ذلك إثر مقتل ثلاثة من أقرب أصدقائي في الفوج الذي كنت أخدم فيه.

كان القصف المدفعي لا فاصل له ولا نهاية. بقيت قرب جثثهم طوال المساء دون أن تتوقف القذائف عن التساقط، وكان أزيز الرصاص من حولنا يصمّ الأذان. كانت أجسادهم تنزف دماً وتناثرت بعيداً بعض الأعضاء، لم أركز نظري عليها تهيباً ورعباً. كان ذلك في العام الثالث من الحرب، وبالتحديد في معارك ديزفول. داخلني وقتذاك شعور بأن كل شيء قد توقف، وأيقنت أن لا محال من موتي. ولكي أطرد الوحشة، والرعدة التي بدأت تتملكني، رحت أصرخ بهستيريا طالباً النجدة. كنت أشعر أن شخصا آخر يجبرني على الصراخ بأقصى ما تستوعبه حنجرتي. بعدها بدأ صوتي يخفت، وأخذت أهذر مع أجسادهم ومع نفسي. كان الهذيان يخرج من جوفي تباعاً دون القدرة على التوقف. حين انتصف الليل بظلمته عمّت السكينة كل شيء. لم أسمع ولا حتى نأمة أو همسة أو صوت حشرة يخترق السكون، فبدأ جسدي يختضّ بحدة، وشعرت بأني فقدت حاسة السمع تماماً. حاولت التماسك ولكن وجدتني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

في الأخير انفجر باكياً، ثم كتمت بكائي بقوة فانكسر شيء صلد في صدري مصحوباً بحرقة وألم حادين. لا أذكر ما حدث ليَ بعد ذلك، ولكني أفقت في مستشفى الميدان، وكان نائب الضابط عباس يجلس جوار سريري، وينعتني بالجبن والدلال وقلة الرجولة، فأشحت وجهي عنه لحين خروجه من الغرفة. حصلت بعدها على مواساة طيبة من صاحبي أنترانيك أوهانسيان، ذلك الأرمني البصري النبيل الذي أخبرني بأنه ألح على مساعد آمر الفوج أن يعاودني برفقة ذلك النائب الضابط البدوي الحقود.

ـ ماذا كنت تتوقّع منه غير ذلك؟.. أرجوك.. لا تحمل كلامه على محمل الجد.. كلهم على هذه الشاكلة.

كنا أنا وأنترانيك نشترك بالكثير من الهواجس والأفكار والانفعالات. نغنّي ونصنع النكات، نطبخ بعض الأكلات ونبكي معاً. دائماً كنا نفكر بقرب التسريح من الجندية، وتراودنا أحلام بنهاية قريبة للحرب. نجلس سوية كل يوم، نتنقل بين محطات الإذاعات، نتسقّط الأخبار ونتبادل الحكايات والآمال. كنت أقضي أكثر وقتي جواره. دعاني لزيارته في البصرة ووعدني أيضاً بالتقاط صورة ليَ، ليضعها في واجهة محلّه الواقع في شارع الوطني. كان يحلم بأن يجعله أستوديو كبيراً للتصوير بمعدات حديثة. الصدفة وحدها التي جعلتنا نكون في وجبة إجازة واحدة، وفي كل مرة حين نذهب إلى المقر الخلفي لتسليم السلاح الذي يسبق الحصول على ورقة الإجازة الشهرية يجدد دعوته تلك، وبدوري أختلق الأعذار.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ ربما لأنك لم تلبِّ دعوتي، فقد نجوت من الموت.. أتدري إني أحتفظ بصورتين للمرحومين العريف قاسم ونائب ضابط شاكر، التقطتها لهما في إجازات سابقة.

عند عودتي إلى مقر الفوج بعد تلك الحادثة، ما عدنا نفكر بالزمن، وكنت أنا أول من امتنع عن عد الأيام وترقب وقت الإجازة أو تصديق إشاعات نهاية الحرب، أو قرب تسريح مواليدنا. في بادئ الأمر كان صاحبي يضجر من يأسي وتشاؤمي، ولكنه اقتنع أخيراً برأيي، وبشيء من التردّد، ترك موضوع احتساب الزمن والبحث عن أمل بين ركام الخراب والتدمير الروحي والجسدي الذي يلفّ العالم وحظيرتنا الصغيرة ويبتلعهما عنوة دون مقدمات.

بدا غول الزمن الراكد وشظايا القنابل الغبية وحدهما ما يشكل ذلك المحيط الذي بات مثل قعر غائر في أرض مجهولة، يتسع ثم يتسع ليكون جباً عميقاً علينا أن نتماسك بداخله، ونقتنع بكامل الرضا أنه العالم والحقيقة الوحيدة وكل ما في خارجه كذبة، تسبب لوثة للفكر وعقماً وخراباً للروح، وعلينا أن نكتم شكوانا وضجرنا، وأن نعلق أحلامنا وطموحاتنا وشبابنا على مشانق الدفاع عن الوطن، دون حق بتوصيف تلك الشكوك والشكاوى.

ما عاد أنترانيك يسألني عن إمكانية زيارتي للبصرة، أو يحدثني عن الصورة الموعودة وحلم تطوير الأستوديو. ثم تدهورت حالتي النفسية، فبدأت أمارس الصمت مع اقتراب كل مساء، وأدخل في عالم من هذيانات وهلوسات، كنت أتخوف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أن أصل معها إلى جنون حقيقي. أحياناً تنتابني هواجس ثقيلة ومفزعة عن الموت القادم مع الخوف الكامن وراء السواتر الترابية، وأشباح تترصدنا وضجيج وصراخ يلف الأفق ويقترب نحونا، فأدخل الملجأ وأتدثر بالرغم من حرارة الجو الخانقة، وأعاف الجلوس مساءً فوق الملجأ مع باقي أفراد الحظيرة للدردشة والاستطابة بنسائم الصيف الشحيحة، وكنت أتنصت أحاديثهم وأحاول أن أطمئن نفسي الهيابة، ولكني، ومع تقادم الزمن، ألفت حالتي وتقبّلها كذلك صحبي في الفوج، وعدّوها ردّ فعل لما حدث لي. ولكن ضباط الفوج ومعهم نوابهم، جعلوا مهمتهم تركز على السخرية مني. كنت أعرف أن ممارساتهم تلك، تبرر لديهم، كإحدى طرق العلاج المثالية لصدمة فقدان الشجاعة، وكانوا يظنون أن الطريقة الناجعة لتفتيت الخوف هو الصدمة، لذا كانوا يضعون لي واجبا في الدوريات الليلية، وعند منتصف الليل بالتحديد، كعقوبة أو نكاية أو مزاح ثقيل، لا أدري كيف يحتسب. وحين حدّثت نائب ضابط عباس عن شكوكي حول هذا الأمر أجابني بابتسامة مخادعة:

ـ قوّ قلبك.. لسنا في روضة أطفال.. هذه أوامر لا نقاش فيها ونحن في معركة ...

ذاك الليل البهيم الموحش كان عليَّ ورفيقي أن ننهي دوريتنا الساعة الرابعة فجراً. وقفت داخل المكمن المحصّن في الطرف الجنوبي من الساتر الترابي، أطالع الأعشاب التي نمت فوقه و كانت نسائم الفجر تحرّكها ، فيصدر عنها صوت يماثل فحيح

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأفاعي. ذهب صاحبي مستبقاً الوقت كي يوقظ الدورية التي سوف تحلّ بعدنا في الواجب. الصفيح الملقى فوق خشب المكمن، والمغطّى بالتراب، كان نتوؤه السائب يتحرك بنقرات متتالية ضارباً فوق ألواح الحديد الساندة لغطاء المكمن. فوق الساتر المحيط بالفوج تبرز رؤوس لكتل ناتئة من الخشب، وهي بقايا ملاجئ قديمة دفعتها عجلة الجرف عندما شُيّد هذا الساتر. تلك الرؤوس الخشبية تضفي على المكان الكثير من الوحشة والرعب، وفي الأيام المقمرة كانت تبدو وكأنّها أياد تلوح في الفضاء خارجةً من قبور كانت تمتد على طول الساتر. في تلك اللحظة وأنا أنتظر قدوم الدورية الأخرى لأسلّمهم الواجب، بدأ قصف مدفعي ثقيل ومتسارع. رشقة إثر أخرى. انهمرت زخات القنابل ولم تدع مكاناً في الفوج دون أن تطاله. احتميت في زاوية المكمن. بضع قنابل سقطت خلف الساتر المجاور فغطّاني والموضع التراب. هدأ القصف، عندها قررت الخروج من الموضع للالتحاق بحظيرتي، مدركاً أن صاحبي لن يعود، وأن الدورية البديلة سوف تكون قد تهيأت لتسلم الواجب بدلاً عنّا. فالساعة تجاوزت الرابعة فجراً. تحركت بضع خطوات، حينذاك سطع ومض قنبلة سقطت أمامي على بعد خمسين متراً، وتطايرت شظاياها البراقة. شعرت بقرصة حادة عند ساعدي الأيمن وسقطت بندقيتي الرشاش من يدي. أمسكت موضع الجرح، فخرج منه رشاش دم غزير. ضغطت على المكان وشعرت بحرقة حادة وخدر يجتاح كامل يدي. بدأت أصرخ وأولول ثم سقطت مغشياً عليَ.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تجـرأت وصـعدت السـلم نحـو سـطح الـدار، ولكنـي ودون مقـدمات شـعرت بسـخف المحاولـة وعـدم جـدواها، وواجهـت مخـاوفي بشـيء مـن اللـوم والتقريـع الحـاد لنفسـي، وصـلت فـي نهايتهـا إلـى شـتائم حـادة وتسـفيه لـذاتي ووضـعي وأفكـاري الطفوليـة البائسـة، وهشاشـة روحـي وضـعفي، فرجعـت هابطـاً السلم بتثاقل شديد، ولكن فجأة وبشيء من عناد صبياني توقفت عند وسط السلم. كنت أشعر لحظتها بأني أنتظر من يأتي من الخلف ليدفعني بقوة نحو الأسفل فأتدحرج وترض عظامي، ربما يساعدني ذلك على أدراك أن ما كنت أتهيبه له الكثير من الصحة، وأن لخوفي ما يبرره. انتظرت للحظات، شعرت بحرارة أنفاس ولهاث يقترب مني. بالضبط عند أذني اليسرى. التفتّ فلم أجد أحداً. خطوت درجة أخرى فتكرر الأمر. وددت أن أتوقف وأدعه يدفعني من فوق السلم، ولكن لم يحدث مثل هذا الشيء، فهبطت نحو باحة الدار. قررت أن أطفئ المصباح وأتجول وسط الدار، وأنا أوجه لنفسي تقريعاً وشتائم أردت منها إيحاء لبعض شجاعة.

تنصت لصوتيهما وثمة ضجيج صادر عن جهاز التلفزيون يخالط حديثهما، في بادئ الأمر لم أعر اهتماماً لما يدور بين والدتي وأخي الكبير كريم، ولكن صوت أمي كان يعلو بحشرجة تقريع ولوم لذا تيقنت بأن في الأمر نوعاً من الخصومة أو الشجار، ولكن حتى هذا لم يكن ليعني لي شيئاً محدداً، وما كان ليعينني في محنتي وهواجسي المريضة، التي تلتف حول جسدي مثل الأفعى، تفح لتثقب رأسي المشوش. كنت أشعر بأن ثمة حاجزاً ثقيلاً كان قد بني حولي وسوّر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

علاقتي بعائلتي، فقد بدأت الأمور تأخذ منحىً أخر بعد أقل من شهرين على رجوعي إلى البيت، أحسست أن الإهمال وعدم المبالاة هما السمة الظاهرة لعلاقتهم بي، وكأنما وجودي مع العوق الذي أتيت أحمله يمثل حالة غير مقبولة أو محببة لهم.

اقتربت أكثر من باب غرفة الضيوف حيث يجلسان، تنصت، تناهى لي صوت أمي وهي تقول، دع أمر ما حدث، فمن العار أن نتناول الطعام من مال أبيك، فهو حرام وحرام وحرام إلى يوم القيامة. ولم يجبها أخي بغير الصمت، وطغى على السكون صوت التلفزيون. ولكن أخي عاد ليقول، إننا بحاجة لذلك المبلغ. فردّت عليه أمي بإصرار، إن هذا حرام وهو مبلغ مغمس بالدم والعار. ماذا تريد به؟ أليس ما يأتيك من تجارة الخضروات يكفينا؟

شوّشت تلك الجمل رأسي المريض المشوش أصلاً بألف حكاية وحكاية، لكن وضعي المتعب تلك الساعة، لم يكن بقادر على تعقّب ما يعنيه حديث أمي وطلبها من أخي ترك راتب أبي التقاعدي المغمّس بالدم والعار. وأي عار ودم كان ذلك؟

كان الباب الذي وقفت خلفه ذو الخشب المطلي بلون كالح، تغطيه شقوق ظاهرة، يؤرّخ لزمن طويل مضى حين طليَ آخر مرة. أتذكر ذلك جيدا، كان قبل مقتل أبي بثلاثة أعوام، فقد علقت الحادثة بذاكرتي. لقد ساعدت أبي حينها في عملية طلائه، بالرغم من أني كرهت اللون الذي اختاره، وقد أخبرته بذلك وبينت رأيي، بأن اللون لا ينسجم مع ألوان النوافذ الداخلية لغرف الدار. حاولت أن أغير رأيه، ولكنه أصر بعناد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وزجرني بقوة. في النهاية بدت الدار وكأنها مطلية بمجموعة مؤسية من الألوان تبعث على الكآبة لمن يراها أول مرة. هذا الإصرار على الرأي أو العناد المؤذي، كان طبيعة راسخة عند أبي، ولاحظت، وفي مرات عديدة ولفترات طويلة، أن أمي لم تكن لتبدي أي اهتمام بما يحدثه أبي من تغييرات في الدار، أو غيرها من الأمور. من الواضح أنها اعتادت ذلك أو تتحاشى أن تتقاطع معه. وكانت تتقبل قراراته وأوامره بصمت مطبق. كانت تلك الحالة هي الأقرب للعقوبة حسب ظنه ، لذا كان صراخه يعلو وشتائمه تطال الجميع. كان يحسب صمتها وعدم مبالاتها نوعاً من المعارضة لا بل عقوبة مبطنة وتحديا لا مجال لإنكاره. هكذا كان حالنا جميعاً وبالذات أمي. ولكن بعد مقتل والدي، سارت الأمور على منوال جديد، حيث بدت أمي وكأنها الوريث الطبيعي لطباع أبي، وبالذات فظاظته وخشونته، وظهر كأنها تسير على هدى خطواته. ربما هناك تفسير لهذا التحول المفاجئ، ولكننا قد كبرنا ولم نعد نحتمل هذا، وجميعنا يشعر ذلك، فقد ذهب قمع الأب وسورات غضبه وما عدنا نتقبل تسلطاً جديداً وطباعاً تكتم الأنفاس، حتى وإن كانت آتيةً من أقرب الناس إلينا وهي الأم. ولذا صارت الخصومات اليومية عرفاً دائماً لصلاتنا العائلية مثلها مثل وجبات الغذاء.

ـ كان أبوكم لا يبالي لأي نوع من الخسائر ويهملها بعدم مبالاة ، حين خسر وظيفته في مرأب السكك الحديد وقبلها في دار البلدية، أو حين أضاع نقوده على مشروع مكتبة تكلل بالخسارة، وغير ذلك الكثير. أستقبل كل تلك الأمور ببرودة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أعصاب وكأن الأمر مسلّم به، وما كان ليسمح لأي كان مناقشته... وفوق كل هذا كان رجلاً غريب الأطوار، نزقاً شريراً. دعونا نهمل ما حدث له إنها الطريقة الوحيدة لنسيانه واستقرارنا ولكن.

انتظرت أن تكمل حديثها، ولكنها كالعادة أشاحت وجهها بعيداً زامّةً شفتين يابستين طوتهما تجاعيد عميقة ولون أزرق باهت لوشم ينحدر نزولاً نحو حنكها المدبّب. ولكنها، وبعد صمت طويل، عادت لتقول جملتها التي تنم عن كره مبطن، وتصف علاقتها بأبي.

ـ لقد قُتل ظالماً أكثر مما هو مظلوم.

لم أطالبها بتفسير لعباراتها تلك، فأنا كنت أكثر قرباً ومعرفةً من باقي إخوتي لنوع العلاقة المتوترة بينهما، وبدورها فقد كانت تتكتّم على وقائع علاقتهما الخاصة، ولا تودّ أن يطلّع عليها الآخرون، ولكنها وفي بعض الأوقات، تفصح بجمل مقتضبة عن نوع من الألم المكبوت، لذا تقول إنها عرفته على حقيقته بعد مضي قليل من السنوات على زواجهما، وبالتحديد قبل ولادة إبنها الثاني وهو أنا، وتعلل سبب شحوب بشرتي الدائم وضآلة جسدي، بأنّه عائد لوضعها النفسي المتعب حينذاك، ولكنها تكتفي عند هذا الحد، ولا ترغب أن تظهر نوع العيوب أو المشاكل التي تعرضت لها علاقتهما، ولا أي شكل من أشكال المساوئ والمصائب التي جلبها لها مثلما تلمّح لذلك دائماً.

كان أبي يبدو لي جذاباً وأنيقاً ولكنّه أبعد ما يكون عن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شخص أنيس المعشر، بالنسبة لنا على الأقل. كان بالنسبة لي شخصيةً جادةً أكثر مما يوحي به شكله الخارجي. وفي أكثر الأوقات كان فظاً شرساً في شتائمه التي يقذفها بوجوهنا، وهو أيضاً غريب الأطوار، فوجهه غالباً ما يكتسي بهالة من الحزن. ولكن حديثه سلس ومسلّ وطيب مع الآخرين خارج الدار. لم أعهده على عمل واحد منذ صباي، فقد اعتاد التنقل بين أعمال عديدة لا مكسب منها غير الاكتفاء بإعالة عائلة تسكن داراً بثلاث غرف تساقط عن جدرانها الطلاء لتبرز أحجارها المندّاة بالرطوبة. لقد اخبرني خالي، أبو تقي، وبشيء من الشماتة والتشفي، بأن سلوك عمي السيّئ وطيشه وحدهما من جعل أبي يمتلك هذه الدار، ولولا ذلك لكان وضعنا غير ما هو عليه الآن وربما لم نظهر للوجود أصلاً.

لقد كانت ليلةً ممطرةً حين سمع عمّي عبد الرحمن صراخ أخته نجية بعد دخوله الدار مباشرة. كان يترنح من فرط السكر، ولكنه تمالك نفسه ليصل إليها حسب ما رواه خالي عن الحادث. كانت نجية تتلوى من الألم وسط الدار، ولذا فقد شحذ عمي هّمته وقوته لينقلها إلى سيارة الأجرة التي يملكها وكان يركنها دائماً أمام باب البيت. وحسب قول خالي أبو تقي، فإن والدي استيقظ على صراخ أخيه وأخته وطلب أن يستأجر لهما سيارة أخرى، ولكن عمي استشاط غضباً وأكد بأنه في كامل صحوته، وقادر على قيادة السيارة. في صباح اليوم التالي وضح كل شيء حين طرق الباب أحد رجال الشرطة ليبلغ أبي بحادث الاصطدام المروع الذي ذهب ضحيته عمي، وماتت عمتي بعد يوم من ذلك متأثرة بجراحها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حسب رواية خالي، فقد كان عمي عبد الرحمن يبدو مخموراً دائماً وذا أخلاق سيئة، فهو يخالط الصبيان، وشوهد كثيراً في أوضاع مزرية مع البعض منهم. وبموته وعمتي نجية فقدت عائلة القاصدي اثنين من فروعها التي لم تكن وافرة، حيث بقي والدي ونحن من كنا امتداداً لها.

كان حديث خالي المليء بالتشفي دليلاً واضحاً على كرهه ومقته لأبي، والذي ما كان ليكترث في إظهاره أمامنا. أتذكر هذا جيداً وكنت ألحظ علاقة أبي المتوترة به. فلم يكن أبي يبدي له احتراما أو حتى يفكر، بشيء من الجدية، بمجالسته والحديث معه بشكل مطول، حتى في الأمور المتعلقة بشؤون العائلة، ومنها عدم الاحترام الذي تتعرض له أمي، وبدا من العسير رؤية ما يجمعهما من مشتركات. وشعرت لمرات عديدة بسطوة أبي وجبروته التي يقابلها خالي بالكثير من التذلل والخضوع غير المبرر.

كان خالي مهذاراً لا يدع شاردة تفوته دون تعليق، وكان يحسب لكل شيء حساباً خاصاً بقدر تعلقه بمحيطه الشخصي. وأظنه مولعاً بجمع الوشايات وبالذات ما يجده نافعاً لإرباك الآخرين. كان يحمل دائماً تصميماً واعياً عما يريد فعله أو الحديث حوله، ولم يبرهن على أن شخصيته على النقيض مما يظهره، بل لا يتحاشى إطلاقاً الإفصاح المباشر عن شخصيته الكيدية، وهو في ذلك على النقيض من شخصية والدي التي تنطوي على الكثير من التناقض، وتقبض بشدة على ما لا تريد الإفصاح عنه. كان خالي قد تخطى عتبة الأربعين دون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الاقتـران بزوجـة، نحيفـاً دقيـق العظـام شـاحباً، يطـوي جسـده بطريقة خاصـة حين الجلوس، وكأنـه قنفذ التف علـى نفسـه. لا يستكين لوضـع واحد عند وقوفـه، تعبيـراً عن قلق دائم. هنـاك إشاعة وسط السوق تتحدث عن أن خطيباته هجرنه، ولكن دون أن يفصحن عن السبب. وأخذت التقوّلات توزع الأسباب بتهكم وتشفٍّ، وينـال بعضـها من سلوكه الأخلاقـي. أعتقد بأنـه سمع بعضاً منها دون مبالاة ، وهذا ما أهملته أمي أيضـاً حين سألتها عن حالتـه، وامتنـع أبـي عن الحديث حولهـا، بـل نهرنـي بشدة حين سألته. ولكن أكثر الإشـاعات قربـاً للحقيقـة كانـت تصـوره شخصـاً عِنّينـاً لا يسـتطيع ممارسـة طقـوس الرجـال المعروفـة، وهـو ميـال إلـى طبـاع أنثويـة أكثـر ممـا يحملـه مـن صـفات الرجولـة. صـوته يشـي بـذلك فهـو خلـيط مـن صـفير وأصـوات غليظة. صوته أقرب لأصوات الصبية حين تداهمهم المراهقـة، حيث تتبدل إيقاعات تونات الحبـال الصـوتية، وتبدأ فـي التحـول بـين الخشـونة المتحشـرجة والأصـوات الناعمـة. وجهـه يـوحي كذلك بتفاصيل أكثر، فهو أملط ، يحاول أحياناً أن يضـفي علـى صورته هذه بعض الظرف، حين يتحدث عن تخلصه من عقدة الحلاقة وعدم حاجته لشفرات تستنزف نقوده. لم يغير عمله منذ أن بـدأه قبـل عشـرة أعـوام، يتمسـك بثيـاب داكنـة تـوحي بعـض الشـيء بأناقـة ظـاهرة. تـرك دراسـته عنـد السـنة الأولـى مـن الجامعـة ليختـار العمـل ويغـرق نفسـه بـين أكـداس الملفـات فـي دائرة عقارات الدولة.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كان بيتنا المتداعي الذي ورثه أبي عن عائلة آل القاصدي، التي أصبحت تقتصر علينا باختفاء تفرعاتها الأخرى، يقع وسط سوق شعبي وقد بني الدار على عهد جدي الأول القاصدي راضي عبد مهنا، الذي يتحدث أبي عنه ويقول إنه نزح إلى بغداد من مدينة بعقوبة، حيث كان يعمل هناك متعهداً لتسويق الخضار والتمور. بادئ الأمر أعدّ الدار ليكون مستودعاً للبضائع، ثم عزلت غرف الطابق الأسفل لتكون سكناً للعائلة، أما غرفتا السطح فبقيتا كمستودع تحفظ فيهما البضائع. وجاء بعد ذلك دور والدي ليقضي على ما تبقى من علاقة بمهنة أبيه.

ضجيج الباعة الذين يبدأ عملهم منذ ساعات الفجر الأولى، يملأ الدار ولا يهدأ قبل الثامنة مساءً. كانت حياتنا وسط ذلك الحشد الضاجّ عبارة عن متع يومية. وجميعاً عملنا في أكثر المهن التي احتواها السوق. ولكن بعد أن كبرنا أصبح السوق يشكل مشكلة حقيقة وبالذات لمستقبلنا الدراسي، لا بل يمكن القول إنه السبب الرئيسي الذي حدد لنا مصائرنا، فليس الضجيج وحده ما كان يؤرقنا ويمنع متابعتنا للدروس، وإنما كانت هناك مغريات تمثلت بتوفر فرص كسب المال من خلال العمل اليومي. وكنا من أكثر الشباب تواجداً في السوق ومداعبة النساء ومشاكستهنّ، وفرص صيدهن كانت وفيرة وتستحوذ على فتوتنا بالكثير من الإغراء. الوحيد من بين الإخوة الثلاثة استطاع أخي عصام، وهو الأصغر، أكمال دراسته الثانوية ليحصل بعدها على عمل في دائرة حكومية ويتخلص إلى الأبد من عالم السوق. أما أنا وأخي كريم فقد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شدنا هذا العالم إليه بوثاق لا فكاك منه، وأصبحت أرواحنا وأجسادنا قطعة مكملة لعوالمه الظاهرة والسرية.

* * *

في نداوة الصباح الباكر، أجلس أمام سياج الجدار العلوي للبيت، عند الشرفة المطلة على السوق. أراقب الناس وهم يدبّون كالسكارى ذهاباً وإياباً. الدكاكين المرصوصة الناطة من جدران البيوت، الأكشاك وعربات السمك والخضرة الموزعة بعشوائية هناك حيث ولدنا وترعرعنا. إن كان الخوف يتملكني عند الظلمة فاليوم أجد نفسي أكثر رعباً من أن أخرج وسط زحمة السوق، وألتقي الوجوه المتوترة التي تتصيد عيوب الآخرين بشيطنة وشماتة. الحرب لم تترك لي صديقاً واحداً ألجأ إليه. أتهيّب مواجهة الآخرين وسوء طويّتهم. وبعد مقتل أبي وجدت أن جميع من في السوق قد تخلى عنا وابتعد. الجميع قلب ظهر المجنّ لعائلة القاصدي دون سبب ظاهر. حتى أخي كريم، ولسبب اجهله، راح يعمل في أسواق أخرى، حيث يبيع بضاعته هناك، وكان يضطر دائماً للمبيت ولعدة أيام خارج البيت.

سمية التي حلمت دائماً أنها تنتظرني وكانت صورتها تطوف معي وحولي في جميع المواضع والسواتر، ما عادت تهتم لوجودي. تتحاشى النظر ناحيتي حين تخطر أمامي. حاولت لعدة مرات أن ألفت انتباهها وأنا أمام الدار، أو جالس عند الشرفة، ولكنها كانت دائماً لا تعيرني أي التفاتة. همساتي وصفيري ذهبا دائماً أدراج الرياح.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

اليوم جلست محملقاً بها وهي تخطر أمامي. كنت كمن يريد أن يكويها بلهيب شوقه وسعير وجده. مرت أمامي مبتعدة. جفّ حلقي وبلعت غصّة ألم، ورحت كالعادة ألوم نفسي وأقرّعها بشتائم من كل نوع. ما الذي حدث، لمَ يتنكر ليَ الجميع.. لماذا يقاطعني كل هؤلاء، حتى الغريب منهم يشيح بوجهه عني. لم أكن أحمل سوى عاهة جسدية وليس مرضاً معدياً. كنت أواجه كل ذلك الصدّ والنكران عند أول خروجي من باب الدار على قلته. سألت أخي كريم فعزا ذلك لظنوني السيئة ليس إلا، لا بل زاد في ذلك وآلمني جداً حين قال إن بي لوثة. أما أمي فقالت: دع الناس في مشاكلهم فما عادت الحال مثلما السابق. ولكنها كالعادة رمت جمرة كلماتها في صدري، مضيفة ما يوجع الروح ويدخلها في لجّة حيرة لا ترحم.

ـ الناس يا ولدي لا يحبون من أساء إليهم. ويكفيهم ما يلاقونه.

الناس لا تودّ من أساء لها.. هل كانت أمي قد أطلقتها مثلما العادة من قلب مكلوم موجوع، مثلما تفعل كل مرة، ولكن ما الذي عنته بقولها، يكفي الناس ما لاقوه. ما الذي لاقاه الناس وممّن. أمي أغلقت فمها وصمتت، ولكنها غرست في ذهني طحالب الشك وسمومه. أردت من كريم تفسيراً لما قالته ولكنه راوغ وتحايل ولم يمنحني جواباً شافياً.

من أين لي أن أعرف، وأنا الذي ابتلعتني الخدمة العسكرية دهراً ثم جاءت الحرب لتضيف لسنوات عزلتي سنوات امتدت حتى حسبتها دون نهاية. وها أنا أدخل دهاليز أخرى مظلمة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

موحشة وصار رأسي مثل كيس سميك منفوخ، يحمل في تجويفه عشرات العناكب والصراصر الصاخبة. أتوسل إليهم أن تأخذهم الشفقة بي. أريد منهم فقط الإفصاح عمّا يخبئونه. ولكن يبدو أنهم مصممون على إيصالي إلى النهاية. نهايتي التي أشعر بها تقترب رويداً رويداً. نهاية معروفة. إنها تسكن جواري وخلفي دائماً، أشعر بأنفاسها تحرقني. لا ليست لوثة عابرة، إنها أنفاس حية تجاورني طيلة الوقت. ليست هي الأذرع والرؤوس والصدور التي حزّتها الشظايا وشاهدتها فوق أرض المعارك عند السواتر والملاجئ وفوق الربايا. إنها أنفاس تفحّ وتهمس في أذني. تقترب مني وتلسعني مثل شعلة نار. أتيبس مستسلماً لها. باتت مثل رداء أرتديه، وتيقّنت معه أنها كابوسي الذي يتلبّسني دون رغبة مني للتخلي عنه.

أحياناً أجد هذا الهمس والأنفاس تخرج من جسدي، تحاورني فأستسلم لحوارها مثل نعجة تقاد للذبح. أملك يقيناً أنها صادرة عن أحشائي. من ينقذني من كل هذا؟ فما عدت أطيق سيل الأسرار في هذا البيت الذي يُصعّد في رأسي حدّة الأصوات الغريبة وهمس الأنفاس. من يعطيني اليقين وأنا أجد نفسي ذاهبة بعجالة نحو الهاوية.

* * *

عند مساء مغبرّ، كان القمر فيه يجاهد للإفلات من ذاك الغشاء الثقيل الذي غطى وجه السماء، كررت محاولتي مرعوباً فتسلقت السلّم بسرعة. كان سطح الدار فارغا إلا من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

سرير حديدي صدئ، جلست فوقه ساهماً مرتعداً أترقّب شيئاً توقعت حدوثه. اختفى ضجيج السوق، ولكن لم تزل هناك صيحات لصبية يجمعون بقايا ما خلفه الباعة، أو يدفعون العربات خارجه. أمسكت رأسي ضاغطاً إياه بقدر ما أستطيع وحاولت إغلاق أذنيّ بقوة. أطبقت عليهما بشدة فسكنت الأصوات وشعرت داخل رأسي بوشوشة وكأنها فوران قدر. فجأة شعرت بالأنفاس تقترب مني وتلامس رقبتي. استدرت بقوة محاولاً الإمساك بمن يفعل ذلك. لم أجد أحداً. بحثت قرب السرير وفي المنحنى عند المخزن الصغير المرفق بالسلم دون جدوى. عدت وجلست فوق السرير وكررت المحاولة. ضغطت على رأسي بكل ما استطعت من قوة، فشعرت مرة أخرى بحرارة الأنفاس وهي تلامس رقبتي، اجتاحتني قشعريرة تيبّس معها جسدي. صرخت بكامل حنجرتي وأنا أدفع جسدي بعيداً. فهويت نحو الأرض مرتعشاً والألم يلفني بالكامل. شعرت بيد أخي كريم وهي تساعدني على الوقوف. اتكأت عليه وكنت خائر القوى كمن سقط في جوف هاوية.

ـ ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت. ما الذي جعلك تصرخ.

لفّني صمت مطبق، وكان نظري يزوغ ويتشتت، ووجه كريم تغطيه غمامة رمادية وعيونه تخرج من وسطها جاحظة محمرّة. خارت قواي فسقطت على الأرض مغشياً عليَّ.

تكشّف النهار وأنا مستلق فوق سريري. كنت مضطرباً أيما اضطراب، ولم تأتني الكوابيس مثلما في الليالي السابقات. ولكنّ رأسي كان ثقيلاً مشوشاً يتردد فيه صوت طنين مربك. لم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تكن لي رغبة بشيء. أتلفت بعينيّ دون أن تستقرا عند حال. جدران الغرفة المتغضنة مثل جلد عجوز، ينثال منها الجص الرطب، أحس بها تطبق عليَّ وتضيق وكأنها تنفر مني أو تريد إزهاقي. كل شيء في هذه الغرفة يثير الأسى ويبعث الحزن. تعشّش الوحشة بين الثنايا العتيقة وعند الشروخ العميقة البارزة جوار عوارض السقف الحديدية التي تعرّت وظهر صَدؤها. بالإمكان تلمّس تلك الوحشة والاقتراب منها. لا حاجة بي للتفكير بأنها بعيدة أو من الممكن لها أن تتخلى عن مجاورتي.

ما زلت أسمع أصوات الباعة وصراخ الأطفال. يمكنني، مع كل هذا الضجيج الذي يكتسح البيت، مواصلة الحديث مع نفسي المفجوعة، ولكن إلى متى، وإلى أية نهاية أو هاوية؟ ها هي الأيام تمضي دون اهتمام مني، أتقلب فيها مثل ضفدع أعمى نطاط. لم يعد هناك من مستقر. من الجائز أني أبحث عن خلاص من كوابيسي، ولكن ما أحمله من أسئلة كان يفوق الاحتمال. حسناً علي أن أحسم ذلك، ولكن كيف. كيف وهي لا تتركني للحظات كي أنعم ببعض الراحة.

شعرت بالاختناق ورغبت بالصراخ. فتحت فمي، ولكني في اللحظة الأخيرة كبحت جماح نفسي، فما أردت أن أزيد من ظنونهم بي والتي تفاقمت في الفترة الأخيرة. إنهم يسيئون الظنون، بل يختلقونها مثل الحكايات. أشعر بذلك وأشاهده في نظراتهم الغائمة وردودهم اللعوب وما تنطوي عليه من مكر وتوريات. أحس معها بأني أدخل جوف جبّ دون حدود أو ملامح، جبّ لا لون له سوى الخواء. لو أني أجد موطئاً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لقدمي. لو أني تعرفت على مسالك الطريق المفضية إلى ما يعطيني شيئا من الراحة وقليلا من الاستقرار.

ها أنا أقف عند عتبة الدار أطالع وجوه المارة. وأرقب شجار الأطفال وضحكات الباعة. كان الهواء الحار يلفع الوجوه ويأتي محملاً برائحة الخضار المتعفن. الأرض أمام الدار افترشتها بقايا نتف الخضار والفواكه التالفة التي داستها الأقدام، فتحول بعضها إلى عجينة متناثرة. كانت الجلبة تملأ المكان وتُسمع أصوات مختلطة تأتي وكأنها هسيس نخل وقت العاصفة. تتصاعد الأصوات وتهتز معها الأجساد. هذا ما فعلته في زمن مضى. كانت حنجرتي تفعل الشيء ذاته. ولم أعرف أحداً يضارعني بما أعلن عنه، وقيل إن صوتي يجتاز مسافات بعيدة خارج السوق.

تسمرت بعض الوقت أمام دكان الحاج مرتضى. كنا نسميه الحاج مرتضى دبلكَ. لم يعرف السوق أحداً يضاهيه في حدّة الذاكرة. إنه سجل المنطقة وخازن أسرارها. مثلما في دفاتر البضائع وقوائمها، كان يدون في تلافيف دماغه ويؤرخ في ذاكرته جميع الحوادث وأسرار الناس. يعرف كل شيء من الجميع وحول الجميع. لا تفوته شاردة أو واردة. لم تتغير بضاعته وهو كذلك بقي على الهيئة ذاتها. من كرسيه الخشبي يرصد بدقة متناهية أي جسد أو شيء يتحرك في السوق. ينهض فجأة وتلمع عيناه وهو يدقق في تلك الأجساد والأشياء الغادية والذاهبة، ثم يستكين فوق كرسيه، فنجده في الكثير من الأوقات يبدو نائماً ولكنّ عيني الصقر فجأة تفتحان لترصدا طرائدها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

خرج صوتي ضعيفاً متعثراً، وأحسست بأني أتلظى بعذابي أمامه، وأن الحياء أخذ مني مأخذه فكان جسمي يتفصد عرقاً.

ـ عمّاه، أنت وحدك من بقي من كل ذلك الجمع الذي يعرفنا جيداً. جئت اليوم لا لأسألك عمّن قتل أبي، ولكني أسألك إن كنت تعرف شيئاً عن سبب مقتله.

ـ ولماذا أنا وليس غيري.. يصعب عليَّ أن أجيبك.. لن تجد لديَّ ما ينفعك.

ـ لقد قتلوه غيلة... أليس كذلك.

ـ مثلما أخبرتك لن تجد عندي جواباً.

ـ ولكنك تعرف الكثير من أسرار السوق وتحتفظ بها دائماً.. لا بدّ أنك تعرف شيئاً عن ذلك.

ـ كان ذلك فيما مضى، والآن أصبحت كليل العين ضعيف الذاكرة.

ـ ولكن الحدث ليس ببعيد.. أرحني يا عمي.. أتوسّل إليك.

ـ ربما تكون عاقبة ذلك وخيمة عليك.

ـ ليكن ما يكون. فالعذاب يأكل صدري ويدفع بي نحو الجنون، وما من أحد يدلني على الطريق..

ـ أتحتمل ما سوف يُحكى لك عن أبيك؟

ـ نعم.. نعم حتى وإن كانت هي رصاصة الرحمة التي تنهي حياتي.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ اذهب إلى أهل سميّة ليخبروك بما ترغب معرفته.

ـ وأنت ألا تخبرني شيئاً؟

ـ ليس عندي اليقين الذي تريد معرفته.

* * *

إذن الواقعة كانت مع إخوة سمية مثلما مع غيرهم. فما دوافعي للبحث عن قاتل لقتيل. هكذا كان الأمر، قاتلاً وأدواته كانت الوشاية والخسّة. لقد مضى إلى قدره بقدميه. لا فخر بعد اليوم، مسربلاً بالعار ذهب إلى الجحيم، أنجز عملاً ظنه محكماً. لم يحذرهم وهم جيرانه الذين أخلصوا له ومدوا له دائماً يد المساعدة. لا، فقد كان واجبه قتل الآخرين. كدّ من أجل إذلالهم، واختار أن يطعنهم طعنة نجلاء قطعت أرحامهم. ولكن في النهاية مشى معهم خانعاً بخوفه. توقف وجثا على ركبتيه طالباً الرحمة، وكانت الرصاصات أسرع من حركة لسانه. الرحمة لمن وأنت من لم ترحم طفلاً رضيعاً، وتنكرت لمودّة وعلاقة جيرة. لو كنت أعرف ذلك مسبقاً لأجهزت عليك وسبقت فعلتهم. ولكنهم مثلك كانوا يخفون أسرارهم. يموّهون ويتسترون عن حكاية موتك ويحتمون بصمتهم تشفياً بك، وبسيرة حياتك. ورذائلك تملأ جفونهم وصدورهم حين تثار قصة موت أبنائهم. اليوم غلوّ مصائبهم في صدري، نعم.. أفشوا سرهم وغرزوا أوجاعهم في قلبي، تقيؤا قباحاتك أمامي. لا أبكيك.. لا لن آسف لموتك بعد اليوم. اليوم أترعت بثمالة قبحك. أنا من يدفع ثمن جرائمك. سكنت جوانحك

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بالموت، ولكنها اشعلت في صدري قدور جهنم. أكرهك وأمقت كل هؤلاء الذين تستّروا على فعلتك. تلك العجوز وأخي كريم والجميع الذين هم مثلي التهموا لسنوات طوال زقّومك القذر، ودنست دماءنا بصديد يخرج من بين أصابعك. جميعهم تستروا على فعلتك وأخفوا جرائمك. حتى هذا المخنث الذي أناديه بخالي والذي يشعل الدار بوقاحته، كان يشاركك الإثم. عود القصب الفارغ، النعجة الخنثى، الكذاب الأشر. كان صبي أبليس وخادمه. هو مثلك تفوح منه النتانة، ويشاطرك الآثام والرذائل. اليوم جاء عاليها سافلها. لن أدعكم دون أن تدفعوا ثمن ما جرى. فصمتكم كان يشاطر الشيطان وقاحاته وجرائمه.

كنت كالثور أطحن بقدمي ارض الدار، أخور وأنا أفرغ جوفي من فراغ. وضعت رأسي تحت صنبور الماء وتقيأت أحشائي وراح جسدي يختض وشعرت بمقدار ما نزّ من عرق غطى جسدي بكامله. اتجهت إلى الغرفة ودفعت بابها. كانت هناك متكورة في الزاوية، عيونها تخرج من بين سواد ثيابها غائمة تتلاطم نظراتها في اللاشيء.

ـ أكنت تعرفين... أكنتم تعرفون كل شيء... أكنتم تعرفون وتتستّرون. لأجل ما عرفتموه انتظروا مني ما لم تحسبوا حسابه.

لم أسمع منها سوى شخير متقطع وبكاء مكتوم. كانت وكأنها في آخر رمق. وكأنها تحتضر. وراحت تجفف دمعاً مدراراً بخمارها الأسود دون أن تدعني أبعد عن عينيها. تركتها وذهبت نحو غرفتي. ارتميت فوق السرير ورحت في نوبة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بكاء حاد. الحمل الذي أنوء به يجرجرني مثل غريق. أشعر أن لا جدوى لأسئلتي بعد اليوم.

* * *

كان المساء مغبراً، مترعاً بهواء خانق كثيف الرطوبة.. واحدة.. اثنتان.. ثلاثة. الأسى والخوف وحدهما يدفعانني لأعدّ بلاطات السلم البالية وأنا أنقل خطاي بتثاقل نحو الأعلى. إن كنت أفضل خلوتي التي اعتدت عليها في سطح الدار كعلاج لنزع الخوف عن روحي، فاليوم أجدها تعني شيئاً آخر. ليست محاولة لثلم الرعب أو معرفة كنهه. لا.. إنها العيش واليقين بأن الخوف يتلبسني مثل روح، يسيطر على جوانحي، وما عدت أرغب بأن يخرج من جسدي ولا أظنه يريد الفكاك مني. سوف أصل إلى حيث يريد. يجب أن أنهي أية علاقة لي بهذا العالم المشبوه والمشوّه. هناك عشت الضياع وعدت احمل عوقي وروحي الممزقة، هكذا صنعتني الحرب وطبعت روحي بجذامها، وهنا أعيش الضياع وتمزقني عورات أبي وآثامه.

جلت سطح الدار. تلمست حجر السياج حجراً بعد حجر، تتبعت خطوات نعلي، بحثت بين طيّات الهواء المترب الرطب عن قمر أو نجم، كل شيء بدا غائماً مضمحلاً. تدلّيت بنصف جسدي نحو باحة البيت، فكرت بأن أرمي بتلك النفس الخاوية المعذبة نحوها لأنهي أسئلتي الجوفاء، ولكني عدلت عن ذلك. أخرجت بقايا فراش رثّ كان قابعاً في المخزن الخشبي الصغير. مددت جسدي فوقه. كانت رائحة براز القطط تفوح

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منه، ولكني لم أجد ضيراً في هذا، لعل جسدي أشد نتانة منه. ما كان يضيرني لو أني قبلت دعوة صاحبي أنترانيك والتقط لي صورة. صورة توقف زمني أو يتوقف الزمن حولي، وتراها الآن معلقة في غرفة الضيوف يوشّحها السواد، وربما أكون فيها عزيزاً مدللاً، مات دون أن يعرف شيئاً. وربما كانوا ينتظرون ذلك ولكني لم أمنحهم مثل تلك الفرصة. حتى نحس الصورة لم يطالني مثل الباقين. والنحس وحده من دفعني لأكتشف كل ذلك الإثم العالق بارواح أبي وخالي ، كلا، بل بأرواحنا جميعا.

ترى ما الذي دفع كل تلك الشظايا لتبتعد عن رأسي وتصيب يدي. ليست بقليلة، شعرت بها تحزّ الفضاء قرب رأسي. سمعت صفير هوائها يهمس في أذني. نثرت ثقوبها في كل مكان دون رأسي. ما الذي أفعله غير اجترار يأسي وعقم حياتي. أجلس الآن القرفصاء عند باب المخزن الخشبي وأضع رأسي بين ساقيّ. أبحث عن شخص يشبهني ولكنه بقسمات مشوّهة غائمة. صوت مكتوم يهدهد رأسي جيئة وذهاباً. هاهم يتحلّقون حولي، يدورون ويدفعون البندقية نحو وجهي. يهزّون جسدي الرخو ويدفعون بي وسط الظلمة. لست جباناً، فمثلهم كنت قادراً على إمساكها، لن أتهيّب الليل عند السواتر. هذا الضجيج والصراخ الهستيري والعويل يصدر من أفواههم وعيونهم. النواح يلج رأسي مثل وتد من جمر. لا أهاب أن أكون وحدي، فقد اعتدت أن أحرسكم وأنتم تغطّون في نومكم، أسير وألفّ بين الحظائر خفيراً أهدهدكم لتناموا. أنترانيك وضع صورتي عند باب الملجأ ودعاهم لمشاهدتها. ملامحي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

دقيقة ومسحوقة. كانت الصورة لفتى يرتجف والموت ينط من عينيه، ودم قاني يسيل من فمه المغلق. أشعر أن شخصاً آخر يمنعني من أن أطلق صرختي. بدأ صوتي يخفت ويضيع في السكون. وقتها حدثت أشلاءهم. جمعتها ووضعتها حولي. تلمستني أصابعهم، لم يصغوا لهذياني. ولكن جوفي كان يخرج سيل الكلمات تباعاً دون توقف. كان أنترانيك يحدق بيَّ ووجهه عيون بوم. فزعة كانت، وابتسامة يابسة ترتسم فوق شفتيه. نظرت إلى عينيه بعتاب ثم توسلته أن لا يضع صورتي عند باب الملجأ. خذها وضعها عند جدار غرفة الضيوف لتشاهدها أمي. كتمت بكائي بقوة، فانكسر شيء صلب في صدري.

ها هو صوته القبيح المشروخ يدخل رأسي ليثقبه. لقد جاء خالي وهو لا يعرف أن ساعة الحساب قد حلت، وما عدت أستمع لأحاديثه وعليه أن يجيبني عما يستعر في قلبي. نهضت ووقفت عند رأس السلم وصرخت باسمه بقوة، أردته أن يصعد إلى أعلى. سمعت نواحها المكبوت وكانت تهذي وتمسك به لتمنعه من الصعود. ولكن ها هو الأملط ينوء بجسده المهزول وظهره المقوس، وهو يخطو حذراً نحو أعلى. لم أدعه يصل الخطوة الأخيرة فقد تلقفت هيكله الخاوي بيدي اليسرى وضغطت على رقبته. أمسكت به وطوّحت بجسده عدة مرات ثم طرحته أرضاً وأطبقت بساقيّ حوله فكان طيعاً مرتعباً من هول المفاجأة.

ـ سوف أفتح معك قبر أبي.

ـ وما علاقتي بذلك.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أخرج صوته بصفير راجف.

ـ لقد عرفت عنكم كل شيء.. أبي رجل الأمن الذي وشى بإخوة سمية وأبناء المنطقة وأرسلهم إلى الموت. وأنت صبيّه الذي تشاطر أختك فراش زوجها. كيف كنت تفعل هذا وتنظر في وجوهنا. كنت تعرف كل شيء.. حتماً كان يخبرك بأفعاله وأنتم في فراش القبح والرذيلة.

ـ كان يجبرني على ذلك.

ـ كيف... وأختك ونحن وغيرنا. إن كنت أجهل قبحكم فكل شيء يعرفه غيري. حتى أختك تعلم بهذا.. عداي أنا الذي تجرعت الخديعة وارتحلت عني كل الحكايات.

ـ كان يجبرني فعل ذلك.. كان يخيفني ويهددني.. قال لي إن مصيري سيكون مثل الباقين.. هددني بالقتل إن لم أطاوعه... كان يجبرني ويهددني بالموت.

ـ أكنت تهاب الموت وأنت تلوكه وتأكل منه كل يوم. أتخاف الموت وجسدك مسربل بالموبقات؟

كان وجهه الأصفر بجلده اليابس ينطّ من بين إطباقة ساعدي طيعاً مستسلماً حين سحبته بقوة نحو سياج السطح الخشبي ودفعت بجسده ليتدلى نصفه نحو باحة الدار.

كانت أمي الطويلة الناحلة تقف هناك. بدا وجهها شريراً قميئاً، وصوتها المبحوح يرتفع متوسلاً ضاجاً يهذر بالفجيعة. شددت عليه بما أملك من قوة وتركت جسده يتأرجح أمامي. كان جسده خفيفاً مثل لوح خشب خاو.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ أتعرفين ما أنا فاعله مع شريكك في فراش زوجك، أكنت تخفين سفالتهما. أتشعرين بالظلم أم أنت الظلم نفسه.. كلكم مثل بعض، شاركتم بكل ما كان يفعله أبي.. عداي أنا.. أنا من أبتلع طعم نجاساتكم وخّستكم.. خذيه.. خذيه.

طالعت جوف عينيه، فكان الهلع قد جعلهما بيضاوين يطل منهما جزع يتوسّلني. شعرت بدقات قلبه المتسارعة الخافقة قرب حنجرته. وحين أيقن دنوّ أجله سمعت صوت بكائه المخنوق. قدماه تتأرجحان وترفسان مثل قدمي شاة ذبيحة. فجأة أمسك ذراعي الميتة بيديه اليابستين، تشبث بي يريد أن يتسلق ويرفع جسده. رحت أهزّه بحدة وهو يتشبث بي. سمعت صرير وخشخشة السياج الخشبي. شاهدت أولى الأحجار الساندة للسياج وهي تنخلع من مكانها وتنفصل عنه متهاوية نحو وسط الدار. فكرت أن أتركه يهوي ولكنه كان يقبض على يدي دون فكاك. انهار السياج وترنحنا سوية لبضع ثوان ثم هوينا نحو الأسفل.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الوقوف عند الزمن الأخر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حسب رواية أمّ قصيّ، زوجة الحاج رجب، فإن الحاج ولد في منطقة السيف من مدينة الناصرية، وأكمل دراسته المتوسطة فيها، وإن أصل عائلته من مدينة سوق الشيوخ القريبة. وقد انتقل رّب الأسرة منها إثر تكرار فيضان النهر لثلاثة مواسم وتلف المزارع، فاضطر السيد محيسن وهو والد الحاج رجب للهجرة والعمل مساعد قهوجي في مقهى خلف بناية المتصرفية وسط المدينة. تلك المقدمة كانت السيدة زوجة الحاج رجب ترويها حين يطلب منها الحديث عن أصل عائلة زوجها. عند هذا النص تتوقف وتنهي روايتها.

كان السيد محيسن نموذجاً للعامل الدؤوب المثابر صاحب القفشات واللسان الذرب العذب الكلام، لذا أستطاع كسب ودّ جميع روّاد المقهى. ولأمانته وإخلاصه فقد منحه صاحب المقهى كامل الصلاحيات للتصرف بإدارتها، وزاد على ذلك، حين اختار له زوجة من أقاربه. لم تمض سوى خمسة أعوام على عمله في المقهى حين جاءت المصيبة، وبدأت تلاحقه لعنة قدمت إليه من مدينته التي عافها وراءه. فقد حضر أحد شيوخ عشيرة بني حِسنْ ليجلس في المقهى ذاته. حاول محيسن التهرب من تقديم الشاي للشيخ، ولكنه لم يستطع الإفلات من نظرات الشيخ التي كانت تلاحقه بشكل ملحاح. وأخيراً فشل محيسن في جميع محاولاته فقدم الشاي للشيخ ، و سبقه بابتسامة متهافتة وترحاب حارّ متملق. رد عليه الشيخ بعيون جاحظة وفم ممطوط.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ هله... هله. ها محيسن أبو التتن. شني بويه تشتغل هنا؟

ـ أي والله عمّي جا شيسوي بنادم... أهله ما يردوه يكَوم يدور على شغل بغير ديره.

ـ خوش... أهله ما يردوه لو البكَتهن ما سدّن العيشة.

ـ ما أدري شكَلك يالمحفوظ..

ـ لازم محد هنا يعرف عن التتنات وغيرهن.

تلعثم محيسن وطأطأ رأسه، ثم نظر إلى صاحب المقهى وبعض الرواد الذين بدو وكأنهم ينصتون للحديث بفضول واستغراب شديدين.

تناول شيخ العشيرة قدح الشاي ورفع جسده الثقيل عن الكرسي، وأشار لمرافقيه بالمغادرة وهو ينظر نحو محيسن هازاً رأسه بعلامة عدم الرضا، أو ما يشبه التأسف المخلوط بالغضب.

لم يتمالك محيسن نفسه فأجهش بالبكاء وهو يعترف لصاحب المقهى بما وقع سابقاً في سوق الشيوخ حيث سرق محيسن محلاً لبيع التبغ والسجائر وغيره، عندما نشبت انتفاضة آل ريسان ضد الإنكليز عام 1935. وقد استغل محيسن الفوضى التي عمّت المدينة لينهب كذلك بعض محلات السوق الكبير. وقد اشتكاه أصحابها إلى الشيخ ريسان آل قاصد فأمر بجلبه لمعاقبته، ولكنه أستطاع الإفلات والوصول إلى الناصرية.

لم يبق على ولادة طفله الثالث غير شهر ونصف حين وجد محيسن نفسه عاطلاً عن العمل يتسكع بين الأزقّة. بضعة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

دراهم أدخرها لمثل هذا الوقت العسير نفدت سريعاً. مع تلك الحال كان يتحاشى الوصول لوسط المدينة وفضّل الجلوس في المقهى الواقع عند طرفها الجنوبي.

ربما هي الصدفة، ولكن محيسن كان مؤمناً إيماناً قاطعاً بأن الحظ وافاه مع الصرخة الأولى لطفله رجب. فقد حصل على العمل في محلّ لبيع الخشب والأدوات الزراعية الواقع وسط السوق، وكانت مثابرته وقوته الجسدية وسلاسة تعامله مع الزبائن، مبعث إعجاب وسرور صاحب المخزن. وبمرور الوقت كانت الدنيا تفتح أبوابها بوجهه، فبدأت صلاته تتوطد مع أصحاب المحال والأعمال في السوق، وتوسعت لتصل إلى علاقات اجتماعية عائلية. لم يترك أبو رجب تلك العلاقات لتمرّ دون أن يستغلها لصالحه، فبدأ شراكته مع مقاول بناء دور سكنية، وكان نجاح الشراكة سبباً رئيسياً لتخلي أبو رجب عن عمله في مخزن الأدوات الزراعية، رغم علاقته الجيدة مع صاحب العمل. اتجه كلياً نحو المقاولات حيث أصبح أحد أهم مقاولي البناء في مدينة الناصرية، وخلال تلك الفترة، فواقعة سوق الشيوخ والمعلومة الطارئة التي قدمها ذاك اليوم عنه أحد الشيوخ ، ما عادت تجد من يروّج لها أو يعتدّ بحقيقتها، واختفت كلياً مع صعود نجم أبو رجب، واحتسابه أحد الوجوه الاجتماعية ذات السمعة الطيبة في المدينة.

* * *

استغرقت تلك الفترة وقتاً ليس بالقصير، كان خلالها رجب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الذي جاء إلى الدنيا في وقت العسر لأبيه، ينمو سريعاً، واجتاز في دراسته مستواها الابتدائي بتفوق ظاهر، وبدأت ملامح الذكاء والفطنة تظهر عليه، ويؤكدها رفاقه ومعلّموه، ويفخر بها والداه، لذا زجه أبوه في خضم العمل، مسنداً إليه مهمة مراقبة ومتابعة المشتريات وأجور العمال. بدا رجب وكأنه خُلق لتلك المهمة وذلك العمل، ومع مضي الوقت، كان يقدم لوالده المشورة في بعض أبواب الصرف، وينبّهه حول الفروقات بين أسعار موادّ العمل وكلفها وكيفية توظيفها أو استغلالها واختصارها.

في سن السادسة والأربعين كان رجب يمتلك مكتباً فارهاً عند طرف الزقاق المطل على شارع الحبوبي، والنازل نحو سوق الأقمشة. كان مكتبه عصراً يعدّ أحد أهم ملتقيات الشخصيات الاجتماعية والسياسية لمدينة الناصرية.

كان والده محيسن يجلس صامتاً كفيف العين ثقيل السمع، عند الطرف الأيمن من المنضدة الكبيرة التي يجلس خلفها رجب مزهواً ببذلة أنيقة ووجه بشوش وابتسامة لا تفارق شفتيه. كان المكتب يضج دائماً بالحركة، فقد تشعبت أعمال رجب ولم تعد مقتصرة على مقاولات بناء المنازل، فقد امتلك أكثر من خمس سيارات حمل قلاب لنقل الحصى والرمل والطابوق، وكذلك امتلك سيارة حوضية لنقل الأسمنت، وبات أحد أكبر المنفذين المهمين لعقود البناء والنقل للمؤسسات الحكومية، ليس فقط في مدينة الناصرية وإنما أمتد عمله ليشمل أيضاً أقضيتها، وكذلك بعض أعمال المقاولات في مدينة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

السماوة المجاورة. وأصبح رجب واحداً من شخصيات المدينة المهمة والمؤثرة، وكانت حظوته عند رجال السلطة تبدو ذات أثر فعّال، وباتت كلمته وسطوته يُحسب لهما ألف حساب. وكان حضور وجهاء المجتمع ومسؤولي السلطة والحزب في ضيافته أثناء الحفلات التي يقيمها، حديث الناس. وفي الكثير من الأوقات أثيرت الشكوك والتقولات حول ما يدور داخل تلك الولائم المتكررة، ولذا فقد ظهرت تقولات عن مصادر أمواله، تتهمه بالكثير من التهم. وبدورهم كان ضيوفه يعتقدون أن تلبية دعوات السيّد رجب والجلوس في ضيافته تعدّ فرصة مناسبة لمقابلة بعض ممّن يترقبون الفرصة للقائهم أو عقد صفقة من نوع ما، أو حتى تسوية بعض الخلافات وتصريف بعض الشؤون.

* * *

ذلك اليوم يخلد في الذاكرة حيث كان من أكثر أيام مدينة الناصرية تهيباً وخوفاً وإيلاماً، فمع شروق الشمس وزخّات المطر المتقطعة، بدأت أوسع حملة لجمع الرجال في أضخم قاطع من قواطع الجيش الشعبي، وجنّد للمهمّة أغلب، لا بل جميع، الرفاق من منتسبي الحزب. لقد وعد مسؤول المدينة الحزبي قيادة الحزب بذلك. فقد جاء في برقيته الموجهة إلى القيادة في بغداد، والتي أعاد مذيع التلفزيون قراءتها في جميع نشرات الأخبار وليومين متتاليين، أن تكون قواطع مدينة الناصرية للجيش الشعبي التي سوف تتصدى لغزو الأعداء إن حدث، أكبر من كافة قواطع باقي محافظات العراق.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عاشت المدينة منذ الصباح الباكر ساعات الترقب والحذر، وخيّم على أجوائها خوف ظاهر، ومع أصوات الخبطات الساقطة بشدة فوق الأبواب في أغلب أزقة المدينة وظهور رجال الجيش الشعبي عند مفترقات الشوارع، أعلنت مساجد وحسينيات المدينة وفاة الحاج محيسن أبو رجب. احتشد بعض رجال عند باب الدار وكان عويل النساء يسمع من الداخل. وقف رجب وولداه يشرفون على التحضيرات والتهيئة لرفع الجنازة ووضعها فوق السيارة المركونة جوار السياج الخارجي. لم يشارك في التشييع سوى أنفار قليلة من المقربين، اغلبهم من الشيوخ أصحاب محيسن أبو رجب. فلم يتسنّ لرجال الحزب حضور الجنازة، وهذا لوحده كان كافياً لجعل رجب في أشد حالات الإحباط والضيق.

انطلقت أربع سيارات لا أكثر تخترق شوارع المدينة التي بدت شبه خالية من الحركة. ولكن الأكف كانت ترتفع برتابة تحيي موكب جنازة أبو رجب. وتخطت السيارات مخرج المدينة تاركة وراءها مدينة تعيش القلق والخوف، وتنتشر بين طرقاتها مجاميع رجال، متوعدة الناس بأقسى العقوبات إن لم يستجيبوا لنداء الحزب.

قدمت لرجب اعتذارات حارة وحميمة أثناء مراسم الفاتحة التي أقيمت في بهو البلدية الكبير. وقد تقبل رجب تلك الاعتذارات بروح راضية واعتذار متبادل؛ فهو وكما سمعه بعضهم " يقدر الظروف ويدركها جيدا، ويعرف أن مهام الحزب والوطن يجب أن تأتي دائما في المقدمة. ومثلما يقول

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المثـل، فـالحي أبقـى وأوجـب مـن الميـت، وصـاحب الإرادة والعزم، يجب أن يكون مثلي ويقرّ بأهمية وصواب القرارات التـي تتخـذها سـلطة الحـزب والثـورة لمصـلحة هـذا الشـعب العظيم"

* * *

كانـت المدينـة، حالهـا حـال المـدن الأخـرى، تترقـب بخـوف وتوجس ما يطرأ من أحداث، وما يتوارد من أخبار مفزعة عن معارك شرسة وقتلى بالعشرات. كان قصي الابن الأكبر للحـاج رجب يلتقط الأخبار من محطات التلفزيون وينقلها لأبيـه، مثلمـا الإشاعات التي تتداولها الألسن في المدينة. جميع الأخبـار تؤكـد بأن الهجوم بدأ من الجنوب، فالقوات البريطانيـة تحاصـر الفـاو، والقـوات الأمريكيـة تتقـدم مـن غـرب النهـر باتجـاه مدينـة الناصـرية، وشـوهدت طلائعهـا تقتـرب مـن منطقـة تـل اللحـم، والبعض تحدث عن إنزال وأرتال كثيفة من الجيوش شوهدت قرب جسر الهولندي.

كان رجب قد استقر على أمر وهيأ نفسه لجميع الاحتمـالات، ولكنـه لـم يكـن يعـي مـا هـو قـادم مـع هجـوم القـوات الأمريكيـة. فالواقعـة ليسـت مثـل سـابقتها عـام مـا بعـد هزيمـة الهـروب مـن الكويـت. كـل الوقـائع تشـير لحـدث جديـد مختلـف. ببطء شـديد حـرّك رجـب ذراعيـه وهزّهمـا هـزاً خفيفـاً كأنمـا راودتـه فكـرة محبطة يريد السيطرة عليها والتحقق منها. مـا كـان لـه أن يتـرك مكتبه دون إحكام أقفاله. ربما تطول أيام المعركة ويجوع الناس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ويخرج اللصوص من مخابئهم مثل الجرذان يقضمون كل شيء. كل شيء جائز. كيف فاته مثل هذا الأمر. حتى أوراق المقاولات وغيرها تركها في المكتب. يا للخيبة، جميع استعداداته سوف تذهب أدراج الرياح ويخسر الكثير. الشيء ذاته تعرض له في أحداث الانتفاضة عام واحد وتسعين.

سرح بفكره عند تلك الأيام الصعبة المفزعة، التي عاشها وعاشتها مدينة الناصرية، فشعر بغصة تملأ صدره. فإن كان في دخيلة نفسه يحتقر كل تلك الوقائع والعلاقات والخوف الذي أجبره ليكون الأقرب لرجالات الحزب والسلطة، فإنه اليوم بات يتوجّس من تكرار تلك الأحداث القاسية التي مرّت عليه وعصفت بمدينته أيام انتفاضة ربيع عام 1991. فهو لا يعلم إن كان بقي لديه من القدرة ما يمكنه احتمال إهانات جديدة، مثلما تلقاها حينذاك من بعض الغرباء الذين سيطروا على المدينة بعد هزيمة الجيش إثر نهاية غزو الكويت.

شعر بحزن عميق يخيم على روحه، فلزم فراشه حتى ساعات المساء. كان تفكيره مشوشاً مثل روحه التي بدأ الفزع والجزع يسيطران عليها. هل لهذه الأمور أن تنتهي ذات يوم. هكذا فكر وهو يمدّ جسده الناحل فوق السرير ويطالع المساء الهابط بغبرته المكفهرة خارج النافذة. وراحت تتناهى لمسامعه رشقات الرصاص تأتي أصواتها من بعيد تصاحبها بين الحين والآخر أصوات مدافع تهدر معلنة اقترابها من المدينة.

لم يكن يحسب حسابات خاصة يتوقف بها ملياً عند الخيبات والآلام التي مرت عليه، بل كان يجعل كفتها تهوي دائماً حين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يقارنها بوفرة ما اكتسبه من نجاحات على مستوى حياته العملية والعائلية، وما ذاقه من أفراح ومسرّات وانتصارات، ولكنه الآن يشعر بأن شيئاً جديداً يطرأ على حياته وحياة مدينته التي أحبها بكل جوارحه وقناعاته. شيء آخر يدفع الماضي إلى الخلف، يسحبه نحو الانهيار. ما الخلاصة التي سوف تستقر عليها الأشياء، ما لون الحياة القادمة وما كنهها؟ لم يكن صراع الخير مع الشر ليستكين أبداً في هذه المدينة البائسة، وروحه أيضاً ما كانت تدرك جيداً أن هذا الصراع لن يهدأ يوماً ما، هذا ما كان يعذبه ويقلقه ككابوس يقضّ المضاجع. هؤلاء الناس البسطاء التعساء الشقاة عانوا كثيراً وغطسوا حد الأكتاف في الفقر والخيبات، وابتلعهم الخوف في جوفه مثل سعلاة لاهية عابثة تتلذذ بسماع صراخهم وعويلهم. ولكن، ويا للعجب، فإن تلك القلوب لم تتخلّ يوماً عن فطرتها الطيبة البريئة المفعمة بالحياة. لقد محضوه بلا شروط محبّة دون ثمن، وقابلهم هو بحبّ مماثل، بالرغم من كون ذلك الحب، وفي بعض الأحيان، لم يكن ليخلو من حسابات الربح والخسارة. اليوم يشعر وبإلحاح مفرط أن حساباته تلك كان لها الكثير من القيمة. وهو يعرف حق المعرفة أن حظوته عند أهل مدينته كانت قد حصدت الكثير من النجاحات، وهذا ما أدركه أيام انتفاضة عام واحد وتسعين. فمساعداته وإحسانه ما كانت تبحث عن غير رضا وطيبة الناس وقناعتهم بانتمائه لهم، ولم يجعل من موضوعة حساباته في كسب محبّة الناس أثم يلوث أردانه.

اليوم، وفي قرار روحه، يشعر بوجود مهاوٍ دون ملامح واضحة، ولكنها من الجائز أن تسبب له ولعائلته الكثير من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الخسائر والعذاب. حياته بكل تفاصيلها ووقائعها تحتكم اليوم عند حدود تلك الأصوات الثقيلة المدوّية للقنابل المتساقطة، وأزيز الرصاص الذي تثقب حدّته سماء المدينة دون رحمة. لو أن أحداً سأله اليوم عما أدركه في هذه الحياة لأحس بمرارة في الحلق وشحّ كلمات، وحار بعجزه عن الإجابة. مع المجهول القادم.. ربما هو اللاشيء أو كل شيء. هذا ما تفتق عنه كامل ذهنه عند تلك اللحظة الرجراجة التي تعدم فيها القدرة على التوقّع واكتشاف ما يخبؤه المستقبل. فهو لا يملك الإدراك والتقدير للواقعة، فكيف تراه يخمّن أو يتعرف على ما تفصح عنه نهاية تلك المعارك.

وقائع حياته، عمله، مكاسبه، عائلته، الناس المحيطون به، سهراته، أفراحه وأتراحه، كلها ارتبطت بوثاق قوي مكين. شبكة من خيوط محكمة الحبك، لم يشأ أن يدعها تهون أو تتمزق وتذهب هباءً. لقد عززها برباط متين حاكه بعناية ودقّة مع الآخرين، رجال السلطة والحزب، نساء ورجال هامشيّين وذوي دالّة من أهل المدينة. كان يعرف جيداً التنوع الغريب لعلاقاته تلك، ولكن روابطه مع رجال السلطة والحزب كان لها طابعٌ خاصٌ. وكان يدرك أيضاً أن تلك العلاقة، رغم ما انطوت عليه من مصالح مشتركة وتوسعت لتكون علاقات اجتماعية وصداقات، وصل بعضها حد التشابك في الخصوصيات. بالرغم من كل ذلك فقد كان يشعر بأنها بعيدة كل البعد عن هواه ورغباته الروحية والمعرفية، فهو يمقت مقتاً لا حدود له تلك التعابير والنقاشات السياسية الحزبية، وما كان ليتخلى عن اعتقاده، بأن الرجل العملي هو آخر من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يمارس العمل السياسي، أو حتى الشروع في حديث حول مشاكل ومسائل حزبية، والركض وراء مناصب حزبية لا قيمة عملية لها، وعَد هذا الحال مضيعة للوقت أو لهواً فارغاً، فالعمل الحزبي يجعل المرء يلج مسالك هو في غنى عن السير فيها، ويبدو معها المرء غير واضح في سلوكه وخطواته، ومتعصباً لمواقفه ومراوغاً ومهاتراً حتى في البسيط منها. وفي الغالب لن يكون قادراً الإفصاح عن ذاته.

كل ذلك كان حقيقة ماثلة أمامه. ولكن المصيبة كانت تتسرب من تحت قدميه، ويشعر بها مثل حية رقطاء تلتف صاعدة لتحيط جسده بالكامل. شباك تحاك بنشاط وغرابة فتلتف خيوطها لتربط حياة البشر دون أن تسألهم عن خياراتهم بمعنى من المعاني. ورغم أن الفعل يظل غامضاً، ولكنه في النهاية يتجلى بوضوح في جميع زوايا ومقتربات الحياة وعلى مدار الساعة. تلك الأيام بمرارتها ولؤمها، ما زالت لحد الساعة ماثلة في ذهنه، حاضرة حيّة متيقظة وفاقعة.

يتذكر اليوم تلك الوقائع بحيثياتها وتشوهاتها. عند الباب الأمامي لمبنى البلدية، بادره أبو مصعب المسؤول الحزبي لمنطقة حيّ البكر، السلام والتحية. للمرة الأولى يتحدث معه، رغم أنهما سبق والتقيا لبعض المرات لقاءً عابراً، دون حديث أو حتى سلام. أمسك بكفّه وهزّ يده بحرارة وبوجه رضي وابتسامة مشرقة، سأله إن كان يوافق على دعوة خاصة في بيته. يتذكر جيداً تلك الساعة حين جاء لمبنى البلدية وسط المدينة ليقدم عرضه الخاص لمقاولة تشييد بناية الجيش الشعبي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

في حي البكر. كان يستحيل عليه رفض الدعوة، وقرّر دون تردد تلبيتها. كانت تلك الجلسة بداية البدايات، لا بل كانت مفتاحاً لأحداث جسام تلتها.

منذ البداية أسترسل أبو مصعب بكلام مبهم، بعدها راح بمبالغة فجة توصيف شخصيته وقدراته، ثم ولج حديثاً جديداً عن السلوك والأخلاق ومصالح الناس وحاجات الحزب وإرادته، ومن ثم، وبكلام واضح، طرح ما أراد الوصول إليه، فكانت المساومة وكانت هناك حجج ونيات، كان عليه أن يكون دقيقاً وحذراً في توصيفها وفهمها، ومع كل ذلك الحذر والتطيّر، سمح لنفسه في النهاية أن يوافق أبو مصعب رغباته، مع الحذر وتفادى الزلل. وجد نفسه يذعن شيئاً فشيئاً لتلك المساومات التي كانت صفقات في الحصول على المقاولات مقابل رشىً. وكان الاضطراب والاشمئزاز مع تقدم الصفقات قد اختفيا كلياً من روحه. صحيح أن البداية كانت صغيرة بمكسبها، ولكنها فتحت له الأبواب ومهّدت له مسالك، ما كان بمقدوره الولوج فيها. وصارت بناية المحافظة والكثير من موظفيها، وكذلك أعضاء مهمّون في الحزب، مجرد معابر مهيأة ووافرة بالطمأنينة. لم تكن الحياة خالية من كلمتي " فيد وأستفيد " ولكن هذا المعنى اختلف بالنوع والحجم، وبدت الأمور تأخذ منحىً آخر، فكان يفرحه معها أن تتاح له فرصة اكتشاف العالم الخاص بهؤلاء الرجال. وبالرغم من التظاهر عن عمد بعدم الاهتمام أو ملاحظة ما يدور في حياتهم الحزبية والمهنية، فقد كان يحتفظ في ذهنه بجميع المشاهد الخاصة بحياتهم، رغباتهم وأهوائهم والكثير من أسرارهم، حتى العائلية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منها، وهو يدرك أيضاً أنهم يعرفون مثل هذا الأمر بشكل أو آخر، ولكن هذا لم يكن ليمنعهم في أن يودعوه أسرارهم وأسرار غيرهم دون تحفظ.

هل كان عليه أن يميز بين سلطة الشيطان وسلطة الرحمن، في ذلك الوقت وتلك الحومة التي زلت إليها قدماه دون رغبة التوقّف أو الحذر. ولِمَ الحذر والخوف؟ هل كان عليه أن يصبح شخصاً آخر لينأى بنفسه بعيداً عن تلك الأجواء؟ ولو خُيّر في ذلك، فهل كان يمتلك القدرة على دفع الخوف جانباً ورفض ما يعرض عليه؟ ما كان سيصبح عليه الحال؟ هل كان من الممكن للأمور أن تسير بشكلها الطبيعي؟ أم أن كل شيء سيتعرض للانهيار؟ بين هذين الأمرين، لا يمكن أن يرجح غير خيار واحد. الحيرة والتردد لا يمكن للمواعظ والنصائح أن تفك عقدتهما، بل ترتسم هناك صورة واضحة لرغبات مكبوتة كانت ترزح بعيداً في روح البشر، هي كومة من عقد ووجدانات وأمانٍ دون تسميات واضحة، ترتسم عند لحظة الخيار بين حالين، بين مشهدين، بين حياتين، لا بل هما، وفي ذلك المنعطف، خيار بين الموت والحياة، فأين من كل ذلك نصائح الروح والوجدان. قباحة وحماقة كانت، وظلت كذلك وسوف تبقى. ولكن الخوف لم يكن في ذلك الاختبار شذوذاً، نتفاً من شظايا لخيار آخر. كل تلك الصفقات والمساومات ما كان القلب ليبتذل بها، ويلغي معها كلياً ما يمليه الضمير والروح الشغوفان بحب الناس من أهل مدينته والعطف عليهم. هؤلاء القوم الذين قادتهم الأقدار نحو مرارات لا حدود لها. هؤلاء المعذبون الواقفون يتفرجون على ما يحدث، ولا يملكون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

من قرارهم شيئاً، والخوف يلفهم بقسوته ويسلط عليهم وحشته، هؤلاء البشر ما كانوا غير عيون تتلصّص فتراها مسّهدة معذبة مع كثرة ما تلتقطه وتخزنه من صور الخسارات والنكبات.

أحَبَ في تلك العيون استكانتها وقدرتها على كتم الألم، وبدوره، ما كان ليوّجه لأحد من أهل مدينته كلمة قاسية أو يواجههم بصدود. صحيح أنه يفعل هذا وفي كثير من الأحيان إشفاقاً وتأسياً. ولكن دخيلته حَوت شغفاً وحباً كبيرين لهم لا يمكن المساومة عليهما.

هذه اللحظات الحارقة أيقظت في روحه عواطف محبة ومودة غريبة وطافحة، لأهل مدينته، حد أن عينيه كانتا تذرفان دمعهما بغزارة. شقياً كان ساعتها وهو يدرك المجهول الذي لا يفقه كنهه والذي راح يلف المدينة ويثقب سماءها بدويّ الرصاص ولعلعته.

كانت نفسه المكروبة قد جادت اليوم بألمها وهي تلملم ذكرى الماضي القريب. ذاك الأمس المرمي ثقيلاً راكداً في الذاكرة. أيام موحشات صعاب، أيام انتفضت فيها تلك الأرواح المعذبة الكظومة لتفصح بقوة عن خزين عذابها ووجعها. تلك انتفاضة الناس الذين أُطلقوا من قمقمهم الدهري يبحثون عن زمن ينصفهم، ويستعرضون في وجه جلاديهم بأس شجاعتهم وتحدّيهم. يتذكر الآن أيام انتفاضة مدينته، وكيف حُشر وسط مجموعة من الرجال في غرفة ضيقة من بناية البلدية. دُفع بخشونة وسط الحشد تصاحبه شتائم لم يعهد أن وجهت له مثلها من أبناء بلدته. لم يكن ليتعرف في بادئ الأمر على تلك الوجوه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

التي سحبته من أمام باب مكتبه ودفعت به نحو جوف السيارة، ولكن راوده اعتقاد بوجود بعض ممن كان قد شاهدهم سابقاً من بين تلك الوجوه المنقّبة. كانت هتافات التكبير تتردد في أنحاء المدينة وصوت الرصاص يلعلع وصفيره يخترق الرأس بحدّة، دون أن يعطى المرء فسحة من تفكير. امتد أمر الحجز حتى المساء حين بدأت حركة فوضى تعمّ المكان، وكان هناك صراخ وعويل وثمة أشخاص يدخلون ليسحبوا أحداً من الغرفة، ثم بعد دقائق يأخذون شخصاً آخر، ولم يرجع أحد من هؤلاء المسحوبين إلى الغرفة بعد ذلك. كان ينتظر أن يحلّ دوره حين دخل أبو ساطع حاملاً سلاحه وطالع الوجوه ثم صرخ

- أبو قصي... شتسوي هنا.. منو جابك.. يمعودين شني... شصار بيكم... شتسوون.. جا هذا ما تعرفونه؟

ثم سحب رجب من يده، وكانت وجوه عديدة تطالع الأمر بوجوم واستغراب. تقدم به نحو غرفة مجاورة حيث يجلس وسطها رجل معمّم يقف قبالته ثلاثة رجال بثياب رثة يتأبطون أسلحتهم. دون تردد وبلغة فيها الكثير من الحزم، طلب أبو ساطع إطلاق سراح رجب مع ضمانة من قبله، وتم الأمر بعد حديث طويل مرتبك وكلمات فيها نوع من الجفوة والمماطلة.

كان أبو ساطع صاحب سيارة قلاب، عمل طويلاً مع رجب في مواقع عمل كثيرة ويشعر بقيمة الروابط التي جعلته يحتفظ بمكانة خاصة لتلك العلاقة ولشخص رجب بالذات. فرجب هو من ساعده على امتلاك تلك السيارة القلاب، وقدم له العون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المالي، وكفله في أمر شرائها. وقد عمل في أكثر المقاولات التي كان رجب يقوم بتنفيذها. وبالرغم من أنه كان مهذاراً متطيراً وسكيراً في الغالب، لكنه كان يحمل قلباً طيباً وروحًا تفيض محبة، وفوق هذا فهو يعمل بإخلاص منقطع النظير وينجز عمله بتفان وإتقان شديدين.

بعد أن أعاده أبو ساطع إلى بيته وتحاشياً من تكرار اعتقاله، فقد صحب رجب عائلته تاركاً وراءه بيته ومكتبه ومدينته التي سقطت بيد المنتفضين. اجتاز بسيارته طريقاً صحراوياً وصل في نهايته وسط مدينة النجف، فوجد أن الأمور ليست مثلما توقعها، وكان حال المدينة مثلما مدينته، فهي ملتهبة وتمور بالثورة، والغضب أخذ مأخذه من أهاليها. وبالرغم من انتصاف الليل، فقد قرر عدم البقاء ومتابعة طريقه نحو بغداد وبدأت الشكوك تساوره، فربما الانتفاضة قد تجاوزت الحدود ليجد بعدها بغداد كباقي المدن والقصبات التي مر بها.

* * *

استفاق ظهر ذلك اليوم وقد انتابه شعور بالاضطراب وانقباض الروح. كان يحلم على الدوام أحلاماً مزعجة، وفي الكثير من المرات خلال الأيام العشرين التي قضاها مع عائلته في بغداد، فكر بهذا الأمر ورغب دائماً بأن يعاف قيلولة الظهيرة لما تسببه من كرب بعد أن يجد نفسه متعباً تعساً إثر أحلام لا بل كوابيس تتكرر وتجرح النفس وتثقلها بالهموم. كان يعجبه أن يتحدث عنها لزوجته أو لابنه الكبير، ولكنه في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

النهاية يجد نفسه ممسكا عن هذا الأمر. ونادراً ما ينجح في لملمة شتات تلك الكوابيس ليتذكر تفاصيلها بعد النهوض.

لم يبذل في ذلك اليوم جهداً يعينه للملمة ما دار في ذلك الحلم المقلق، وكان الصداع يطرق رأسه بحدة. كان شيئاً مثل حبل ثخين مضفور يلتفّ حول رقبته، وراح يضغط بشدة. شعر بالاختناق وكانت الأشياء من حوله قد بدأت تختفي ملامحها وتضمحل. قاوم الحبل بكل ما أوتي من إرادة، ثم وجد نفسه يصرخ ملء حنجرته بصوت مكتوم. هذا وليس غيره كل ما ورد في باله عن كابوس الظهيرة الذي نهض منه بعد أن ذاق سكرات الموت. عند تلك الساعة عقد العزم على العودة إلى مدينته دون إبطاء. استمع وهو ساهم لحديث ابنه حول استعادة الحكومة السيطرة على مدينة الناصرية وعودة الأوضاع إلى طبيعتها السابقة. شاهد مقدار الارتياح الذي ظهر على وجه زوجته.

كان يشعر بأنه يفكر لوحده، ويحاور نفسه، حين عرض عليهم رغبته العودة إلى مدينتهم بالرغم من جمل الإطراء والتضامن التي قدموها له. أخرج جملته بتثاقل وكأنه يلوكها تحت أسنانه.

ـ قد تكون النتائج غير سارّة، وقد نواجه قرارات صعبة أخرى، وربما نجد هناك من يتربّص بنا سوءاً، ولكن المهم أن لا نفقد السيطرة على أعصابنا ولا نتصرف بما يثير الحنق والبغضاء.

وبدوره، فإن الابن لم يحر جواباً وبدا وكأنه استعد لذلك منذ وقت ليس بالقصير قائلاً:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ ولكن الحكومة استردّت مواقعها وانتهى الأمر واستتبّ الوضع في جميع أنحاء المحافظة.

أنعشه هذا القول، فنظر نحو ابنه نظرة ثناء واستحسان، واتجه نحو الكرسي الوثير القريب من النافذة وهوى بجسده المتعب فوقه، كما لو أنه كان قد قام بعمل بدني مجهد، ثم راح يفكر ملياً بأمر العودة. ففي حالات الريبة من هذا النوع، فإن الإنسان لا يبخس ذكاءه ليذهب مباشرة إلى الاحتمال الأفضل، وإنما عليه البحث في جميع الاحتمالات، السيئة منها والحسنة. شعر بعض الشيء بالاسترخاء فشرع يدندن بصوت خافت بأغنية خطرت له تلك اللحظة.

لم تكن العشرون يوماً التي قضوها في بغداد مبعثاً لراحته، فلم تبد له معالم العاصمة بذات أهمية، رغم ما انتابها من تجديد. ووجدها على غير ما عرف عنها في زياراته السابقة. وجولاته في أحيائها كانت في الغالب مبعثاً لذعر وكدر، وكم تمنى، لولا مرافقة عائلته له، أن يلزم الغرفة المركونة في الطابق العلوي من الفندق، ليقضي بقية أيامه دون أن يواجه عيون الناس. تلك العيون الجاحظة الخائفة الحاملة لأسئلة حائرة ومحّيرة تجوب بها شوارع كئيبة مسكونة بالفزع والرهبة.

لاذت الزوجة بالصمت، ومثلها فعل الباقون، في حين راح هو يعبث بجهاز المذياع دون أن يوقفه عند محطة إذاعة بعينها، وكانت عجلات السيارة تلهب الأرض، مولية الأدبار خارجة من بغداد باتجاه الجنوب. لم يستغرق اتخاذ القرار

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بالرحيل غير القليل من الوقت، ولم يخطر في باله ما سوف ينتابه من خوف، أو ما يواجهه من مصاعب عند عودته إلى مدينته. علت وجه زوجته ابتسامة حزينة خائفة وهو يطالعها في مرآة السيارة الأمامية، حيث لاذت بالصمت في المقعد الخلفي. كان الحزن بادياً على ملامحها وكأنه والذعر قد لازماها طيلة حياتها. كان صوت محرك السيارة وعجلاتها يخرق الصمت المطبق الذي لفّ الجميع، وهذا ما كان يجعله يضغط على عتلة الوقود بقوة. الهواء العليل الرطب يبث رذاذاً خفيفاً يوحي بالنعاس، ولكنه بقي يحملق في البعيد بعيون جاحظة.

لم يشاهد مثلما المرات السابقة حزام الضوء الذي يحيط مدينته حين كان يعود إليها أوقات المساء. فحين اقترب منها ذلك اليوم كانت وكأنها استسلمت كلياً لغول الظلمة الثقيل، فشعر بالشفقة المشوبة بالاشمئزاز والخوف.

لقد أمضى الشطر الأكبر من حياته في كدّ وتعب من أجل الظهور بمظهر محترم يليق بمقام عائلة ميسورة، وكان ذلك مفتاحاً لحياة سهلة رغيدة يجدها اليوم مع تفتت الزمن تتسرب نحو هاوية المجهول مثلما المرة السابقة.

اليوم تُعاد التجربة مرة أخرى. فكر بذلك وهو يطالع من خلال النافذة لون المساء المغبرّ الذي تبرق فيه، بين الحين والآخر، ومضات من ضوء كان يعرف مصدرها. فقد خبرها سابقاً في العام الواحد والتسعين، واليوم مثلما السابق ثمة وحشة تتجول في الجوار وتملأ روائح الرعب أزقة الناصرية جميعها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كان النعاس يداعب جفونه، ولكن لم تكن له رغبة بالنوم، شعر بأن رأسه فارغ كلياً من أية أفكار تحيط بما يحدث، لا شيء أمامه غير هلام ممكن أن يصير أي شيء أو كل شيء. يعدّهم الآن جميعاً واحداً واحداً، أبناء مدينته التي احتضرت واستفاقت ألف ألف مرة، رعباً وجوعاً وقهراً وإذلالاً.

* * *

ساءت الأمور وأخذت بالتدهور منذ أول أمس. لا يقين يوقف ما يحدث، لأن الرجال الذين يحيطون المدينة الآن ليسوا هم رجال شوارتسكوف عام واحد وتسعين. أولئك الذين تقدموا ثم كبلتهم قياداتهم بأوامر، وحددت لهم خطوطاً حمراً، ليتركوا بعدها الناس في هياج وربكة، وليأتهم الموت مع دبابات وصواريخ وطائرات صدام.

لقد جاء الآن آخرون دون خطوط حمر. جاؤوا لإنهاء خصومة وبتر عضوٍ فاسدٍ علق طويلاً بأجسادهم. لا يخفون إعلان نواياهم، بل يصرحون بها على رؤوس الأشهاد. يختارون نقطة الانطلاق مثلما يبحثون عن ركائز عميقة في الأرض. وقائع تصورها محطات الإذاعة والتلفزيون. مشاهد تبعث الرعب في الأوصال. جنود ودبابات ومصفحات تجتاز الترع والقفار والبساتين، وكأنها أسراب جراد تلتهم الزرع. يقضمون الأرض بسرفات عجلاتهم قطعة إثر قطعة دون عدوّ يواجهونه، سيل جارف تنبئ عنه غمامة تراب تتخم الأفق وتحجب الشمس.

كان رجب، ولمرات متكررة، ينادي ابنه ليعرف منه آخر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المستجدّات والاستفسار عما يحدث في الخارج. هذه المرة جاء الابن ليخبره عن وجود بعض رجال ينتظرون مقابلته، وقد تعرف عليهم كقادة للمنظمة الحزبية في المحافظة. فنهض رجب وذهب لاستقبالهم. جلسوا صفاً واحداً في غرفة الضيوف، وجلس رجب أمامهم يطالع وجوههم. كان كمن يَعدّهم بعينيه. يجول بين سحناتهم المصفرّة وعيون أثقلها النعاس وكدّرها الخوف. طالعهم دون أن يفتح فمه. بدت تلك اللحظات كأنها مثل دقائق تسبق الإعدام. صمت وريبة. استمر هذا وقتاً قصيراً. ولم يكن رجب واثقاً من كونه قادراً على حسم الأمور معهم بما يليق به شخصياً، أو بهم كقادة، كانت المدينة تحت سطوتهم وتنفذ لهم ما يرغبون. ولكن نفسه حدثته بأن تلك الأرواح تسعى اليوم للحصول على نجدة، تريد من يساعدها للملمة ما تصدّع. هكذا هي الأشياء دائما دون ثبات. حين كانوا يذلّون أهل مدينتهم كانت كلماتهم الثرثارة تسقط ثخينة قاسية تثقب الأرواح وتهينها مثل بصقة تلطخ شيبة شيخ قبيلة. واليوم أنقلب السحر وحل بدله الرعب والترقب.

لفّهم صمت مطبق، فما كان من رجب إلا أن بادرهم دون مقدّمات من ترحاب وتودّد.

ـ كان كل واحد منا يتبع نهجاً ويسير عليه ومن أجله. وأنا كنت دائماً أفضّل أن أكون بعيداً عن مسائلكم الحزبية بالرغم من جميع الحوادث، وأنتم بالذات تعرفون جيداً مقدار ما أملكه من أسراركم، ومع هذا فقد زهدت وأخفيت الكثير، ليس من أجل الحزب أو من أجلكم، ولكن من أجل مدينتنا. وأظن أن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كشف بعض المستور سوف يكون شرارة تحرق الكثيرين، لذا فأنا أرى أن الصمت وإخفاء أو إتلاف بعض الأوراق الموجودة في المنظمة، سوف يساعد على حصر النزاع وإبعاد الشبهات، وليأتِ القدر بعد ذلك بما يشاء. ولكن ثقوا، وهذه أقولها من معرفتي الجيدة بأهل مدينتنا، ثقوا أن مدينتنا سوف تنال الطمأنينة بعد حين، وبعد أن يخمد أوار هذه الحرب الملعونة.

كان رجب يطلق كلماته ببطء شديد وكأنه يضرّسها تحت أسنانه، وهو يطالع الوجوه الخمسة ذات النظرات الحائرة المرعوبة التي جلست قبالته ترنو لإشاراته وحديثه مثل تلامذة مدارس. كان الخوف بادياً على ملامحهم، بالرغم من محاولاتهم التماسك لإبعاد شبح الرعب الذي سيطر عليهم كلياً. ولاحظ رجب أنهم، وللمرة الأولى، قد تخلوا عن بذلاتهم الزيتونية اللون.

ـ ولكن أبو قصي... لقد اقتربوا من المدينة والمعارك تدور الآن عند جسر الهولندي، وتل اللحم أيضاً... لقد أحاطوا المدينة من أغلب مداخلها.

ـ لا ضير... لقد حُسم الأمر... أظنه حُسم لصالحهم هذه المرة ولا حاجة لكم للعناد بعد اليوم ولا تفكروا بالحزب وتنظيماته بقدر خلاصكم الشخصي.

ـ ما الذي نفعله الآن... ؟

ـ لا شيء... لا شيء على الإطلاق... نحن أبناء هذه المدينة، والجميع أبناء حمولات، وبيننا وشائج قربى. اذهبوا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

إلى بيوتكم والله يتدبر كل شيء.

ـ ولكن يقال إن بعض العشائر تتجمع لتدخل المدينة، وربما سوف يحدث الكثير من الانتقام والقتل والسرقات.

ـ لا تلتفتوا للإشاعات... لا تدعوا القلق يقتلكم قبل أي شيء آخر.

ـ ألا يوجد حل؟

ـ أيّ حل وحول ماذا؟

ـ لوضعنا.. فأنت تعرف مسؤولياتنا في الحزب، ونحن نخشى من ردود فعل الناس.

ـ لا أظن أن مثل هذا سوف يحدث، ولكن لنتدبّر الأمر... عليكم عمل الكثير وبسرعة، وأولى تلك المهامّ هي إحراق وإتلاف كل ما تحتويه المنظمة الحزبية من ملفات، لا بل عليكم إضرام النار بالمنظمة ذاتها وكذلك بمقر المنظومة الأمنية.

ـ ولكن...

ـ دون نقاش... أنا لست مسؤولكم الحزبي، ولكني أتحدث من معرفتي بما يدور حولنا، وما تحتاجه وتترقبه المدينة قبل أي شيء آخر. ليس لكم غير طريق واحد، وجميعنا نتعلق به كأمل وخلاص. وقبل هذا أرى أن كل شيء قد انهار أو في طريقه... ليست حرب عام واحد وتسعين... إنها النهاية ولا تخدعوا أنفسكم.. لكم أن تختاروا ما تفعلونه بعد ذلك، ومن المصلحة بعد ذلك أن تكونوا دخلاء عشائركم. ذلك هو الحل الأمثل.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كـان رجـب محقـاً فـي توقعاتـه، فقـد كانـت أخبـار الانهيـار تتوارد بسرعة وتنتشر بين الناس الذين يبدو أن الدهشة تملّكتهم فبدا الصمت سّيد الموقف، يخالطه التشفـّي الذي يطفح بشكل ظـاهر فـوق الوجـوه المرتبكـة. هكـذا أخبـره ابنـه بعـد خـروج أعضاء الحزب.

رائحـة الـدخان تسـرّبت ثقيلـة مـع موجـة الغبـار التـي لفـت المدينـة. ليسـت خاليـة مـن روائـح بـارود وعفونتـه. دفـع رجـب حافـة النافـذة وأسـدل السـتارة وجلـس يسـتمع لجهـاز المـذياع. أدارت أصـابعه ولعـدة مـرات مفتـاح الجهـاز مـن أقصـى اليمـين إلى أقصى اليسـار، ثـم توقفـت عنـد وشوشـة وصـفير يأتيـان مـن بعيـد، وكأنهمـا مـن عـالم آخـر. عـالم سـاكن تتوقـف فيـه الحيـاة والريح صرصر تخترق الأجساد الجامدة فتحيلها إلى رماد يُذرّ في الهواء، ثم يـأتي المطـر مدراراً فتبنـى أجسـاد جديـدة لتجفـّ بعد حين، تـأتي بعدها الـريح العاصـف تنخـر الأجسـاد، وهكـذا دواليك، دوامة إثر أخرى. من أين يبدأ حلم الإنسـان؟ بأوجاعـه أم بسـعادته؟ وعنـد أي منعطـف يلتقـي بمـا أراد الوصـول إليـه. دسّ رجب رأسه تحت الوسـادة الثقيلـة فشـمّ رائحـة زفـرة ريـش الطيور فدفع الوسادة ورماها بعيداً.

* * *

ضغط رجب على أسنانه وأخرج كلماته ثقيلة واثقة.

- لا.. أرجوك، قل لهم يتركوني لحالي كي أعيش بسلام. هيـا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قل لهم ذلك. فلا شأن لي بهذا.

ـ لا أستطيع، فهناك من يريد سماع شيء منك.

ـ أيّ شيء.. ليس عندي ما أقوله.

ـ جرّب، فأنت لن تخسر شيئاً. وهم يودون فقط سماعك، ليسوا أعداء كما تظن. تأكد من ذلك. أنا متيقن من هذا، فلو كانوا يضمرون لك شيئاً لأتوا واعتقلوك دون مقدمات، لا يريدون إحراجك، ولا حتى إثارة الشكوك حولك، هاهم ينتظرونني في سيّارتهم، انظر هناك عند المنعطف.

ـ ولكن الأمر صعب.. صعب جداً.. فلم يسبق لي التعامل بأمور كهذه.

ـ إنهم يريدون الحصول على المشورة. بعض من أهل المدينة دلهم عليك.

ـ حول أي شيء وهم يملكون ما يملكون، والمدينة باتت تحت سيطرتهم واستقرت لهم الأمور.

ـ جرّب، لن تخسر فأنا كنت متردداً مثلك. ولكن في النهاية تيقنت بأنهم بيننا، ومن الخير التعامل معهم.

كانت تلك ليلة قلقة مترعة بالكوابيس وخيم الغم الثقيل على قلبه. لم يكن ليخطر على باله أن يطلب الأمريكان مشورته، وعد مثل هذه الدعوة شؤما وخسارة جديدة تحسب مثل سابقاتها، ما الذي يقدمه لهم، ولم اختاروه بالذات.

بزغ الضياء الأول من صباح مغبر يلف المدينة، دفع رجب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ستارة النافذة وطالع الشارع الفارغ الممتد أمامه، وحاور نفسه ثم خلص لجملة دائما ما عدها محاولة لطمأنة النفس. وهي تأتي مثل ترياق يسري بين العروق لتهدأ النفس وتذهب لحالة يأس مفرط أو لا مبالاة مفرطة.

ـ ليكن ما يكون.

* * *

أجتاز رجب الشارع مطرقاً رأسه، وذراعاه متشابكتان خلفه، مبعداً نظره عن حركة الأشياء من حوله. فكر بما دار من حديث مع القائد الأمريكي، كل ما أرادوا معرفته قدّمه لهم بنصيحة العارف بدقائق الأمور. طالبهم بأن يمنعوا الانتقام لكي تهدأ الأوضاع ويشعر الناس بأنهم قدموا لحمايتهم وليس للانفلات والفوضى وإشاعة الموت. كان مضطرباً وهو يسير وسط الشارع العريض الخالي من المارة ، تملكته رغبة عارمة للذهاب إلى مكتبه الذي عافه منذ بدأ الهجوم. ولكن رغبته تلاشت، ووجد قدميه تقودانه نحو بداية الشارع المؤدي إلى الناحية القريبة من شارع الحبوبي، حيث بيت صديقه المحامي أبو جبار اللامي، هناك يستطيع أن يفصح عما يدور في خلده، وليناقش معه ما دار بينه وبين القائد الأمريكي، فأبو جبار اللامي يملك من الحنكة والحكمة ما يستطيع أن يبعد عنه كل ذلك القلق والإرباك، ولا يمكن له أن يضنّ على صاحبه بما يطمئنه. ولكن ضحكة القائد الأمريكي كانت ترنّ وتملأ رأسه لتلسعه بطنينها. شقّ عليه استيعاب فكرة النوايا الحسنة، وراء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تلك الضحكة التي عرض عليه بعدها أن يكون صلة الوصل بينهم وبين أهالي المدينة. داعبه لحظتها الأمل، ولكنه سرعان ما استيقظ منه، شاعراً بثقل المهمة وغموضها، في هذا العمر وبعد أن جاهد كثيراً. كل تلك الحياة التي عاشها مغامراً يتقلب فيها بحثاً عن وجود وكينونة، لم يدر في خلده أن يواجه مثل هذا الموقف وفي هذا الوقت بالذات. حتى الموت حسب له حساباً ولكن موقف اليوم له حساب يختلف. في تلك الساعة الحائلة الملامح، تبدو الأشياء وكأنها تُشوى فوق جمر. ولم يجد من يقف جواره. شعر بوحدته المضنية. لم يصنع سوءاً لأحد، فلماذا تتعقبه الأقدار بخياراتها القبيحة وبكل هذه الحدة والقسوة؟ من الصعب أن ينمو المرء ويدرك في الأخير، أن ما تشبّث به كان خدعة أو لعبة لا خيار له فيها، بقدر ما يقودها القدر دون أن يفصح له عن هدفها. هل يمكن نسيان كل ما حدث مع مرور الزمن؟ واليوم عليه أن يبدأ من جديد. أية لعبة اختارها له قدره؟ وبعد كل حقول الألغام التي نصبت له والمهازل التي قدر له أن يكون مصاحباً لها، وتلك التي نجا منها. يجد نفسه اليوم لازال متماسكاً ويفكر. ولكن بأي شيء؟ ومن أجل ماذا يفكر؟ أيحتاج الأمر كل ذلك الجهد؟ أيخرج التعامل مع الأمريكان مدينته من محنتها؟ أم ترى أن المسألة تعيد صناعة نفسها؟ فبالأمس كان يرافق رجال البعث من أجل عمل أو حماية. والآن ما لون القادم؟ وما سوف يكون عليه مصير المدينة؟

سار رجب منعطفاً نحو البناية القريبة الواقعة في مقدمة السوق حيث عليه أن يتخطاها ليعبر الطريق نحو الجانب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأخر. بدت البناية وقد لـطّخت ببقع داكنـة ونطـت من سقوفها بقايا حديد معوجّ كأنه أضلع مكسورة. كان الدخان ما يزال يملأ المكان برائحته. دخان أسود يخرج من الجوف المحترق وبقايا كراسٍ ومناضد وأوراق مبعثرة محترقة مرمية وسط الشارع. وثمة ثريّا معلقة في إحدى واجهات غرف البناية تتدلى وكأنها رجل مشنوق.

- ها أبو قصي، شنو بدلت ثوب البعثية بثوب الأمريكان؟

لم يسمع رجب الكلمات جيدا، فقد ضاعت في الفضاء مع صوت رشقات رصاص. هزّت الرصاصات جسده وطوّحت به ليهوي عند عتبة البناية. اضطرب معها جسده فشعر بوخزات حادة لاسعة تخترق صدره. تلمّس مكامن الجراح وضغط عليها شاعراً بحّدة الألم. تراجع نحو الخلف ثم هوى بجسده وأخذ يخبط الأرض وكان الدم ينزّ فواراً من جسده المنخور، وعيناه المتيبستان ابيضّتا وكانتا تحملقان في الفضاء الكالح البعيد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صوتك حلو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

دفع طرف الكوفية عن وجهه وأرخى اللثام الذي يغطي أنفه وفمه اتقاء ذرّات الرمل المتطاير. مسّد شاربه ولحيته ونظر أمامه في الأفق المغبر. الحسنة الوحيدة التي يجنيها جندي فصيل الحجاب هي انفلات الرقابة اليومية للضباط ومن ينوب عنهم، وخاصة في موضوعة التعداد اليومي وحلاقة الذقن.

في فصائل الحجاب لا عمل لك غير مراقبة الموت القادم من وراء الساتر القريب وأن تكون مصدراً للإنذار لمن هم في الخلف، في مواضع الفوج، حين حدوث حركة مريبة، ففصيل الحجاب هو النسبة المئوية للخسائر التي تقدمها الوحدات العسكرية، وليس هناك تسمية تليق بهذا الفصيل غير مصدّ الموت.

ساعة إثر ساعة، لا بل دقيقة أو لحظة بعد أخرى، ما على الحواس غير أن تتوفز وتكون بكامل وعيها لتترقب الأفق البعيد. حتى الريح لها قيمتها في اكتشاف حركة العدوّ واستعداداته. كانت تلك آخر المعلومات التي أجبر على سماعها من رأس العرفاء شمخي، وهو ينبئه بقرار إرساله إلى فصيل الحجاب.

مرّر كفّه بتؤدة واسترخاء فوق ذقنه. نما شعر لحيته بغزارة، وأصبحت لأصابع اليد القدرة على إمساكه. بين لحظة وأخرى كان يحدق في السبخ والظلمة الممتدة بعيداً حتى حدود مواقع الخصم، والتي تعكس بصعوبة ضوء القمر الشاحب.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأرض اليبـاب المجدبـة تنخرهـا الـريح فيصـدر عـن شـقوقها صفير رتيب مزعج. الثالثة صباحاً. ليس هنـاك مـا يشـي بقدوم الفجر. للخريـف فـي هذه الأرض طبـاع مؤذيـة. تمتـزج الألـوان بين الأرض والسماء بصفرة غريبة. العاصـفة الرمليـة التـي بـدأ أوارهـا منذ صباح البارحـة جعلـت دكنـة الليـل تخـالط اصـفرار الرمـل الـذي غطـى بـدوره كليـاً وجـه السـماء، فاختفـت النجـوم. حتى القمر خفت لونه وخمد ساكناً شاحباً في البعيد.

منذ اليوم الأول لوصـوله، أطلـق للحيتـه العنـان لتنمـو. عنـدما كان فـي مقر الفوج، فـكر فـي هذا وشـعر ببعض راحـة رغـم المهمة الصعبة والمميتة التي كلـف بها. فهو سـوف يتحـرر مـن تلـك الأوامـر اليوميـة السـخيفة المملـة، حلاقـة الـذقن والتعـداد اليـومي، والوجـه العـابس اللئـيم للضـابط مسـاعد آمـر الفـوج، ووضاعة رئيس عرفاء الفوج ونفاقـه. فكر فـي الحـدث وابتسـم، قبل المهمة وتحرك نحو الخندق الشقي الممتد أمام الفوج، ولكنه لم يدع الأمر يمر دون أن يترك أثراً مريحاً في نفسه، لذا بصـق على الأرض جوار غرفة مسـاعد الآمـر، وكأنـه يُـودّعْ عنـده مـا يستحقه. شـعر بالرضـا التـام عـن فعلتـه مـع هـذا الغبـي القاسـي القلب، الوضيع في عباراته، واللئيم فـي أوامـره. لقد ودّعـه بمـا يستحق.

خـرج مـن مقـر الفـوج، ومـن ثـم سـار فـي الخنـدق باتجـاه الأرض المفتوحة، تأكد من حاجياتـه، بطانيـة وزمزميـة وصـفّ رصـاص وبندقيتـه الرشـاش، وعلبـة صـغيرة تحـوي ملقـط شـعر وماكنـة حلاقـة ومـرآة وزجاجـة كولونيـا لـم يشـعر لحـد اليـوم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بحاجة لاستعمالها. نصف ساعة من السير الحذر وضعه أخيراً وسط فصيل الحجاب.

لم يكن بحاجة للكثير من الوقت حين بدأ يألف باقي جنود الفصيل. ومثلما أُخبر فقد حلّ بديلاً لذلك الجندي الذي بدا منهكاً مريضاً وبانت ملامحه غائرة مصفرة، وكأنه خرج للتو من قبر. ودّعه مثلما فعل الآخرون، دخل بعدها جوف الملجأ. وضع حاجياته ثم مد البطانية فوق الدكة الترابية التي رُصّت فوقها ألواح خشبية لتكون سريراً للنوم. تبادل نظرات الرضا والتحايا المألوفة مع زميله الذي يشاركه الملجأ الكئيب الذي ينيره ضوء كابٍ لقنديل نفطي صغير. كان الملجأ من الصغر بحيث بدا وكأنه جحر كلب. أحس حينها بضيق وألم في الصدر وزاد في جزعه ما تلقفه أنفه من رائحة عطن طاغية ملأت الجو.

البارحة طالع وجهه في المرآة، فوجد بياض الشعر قد اكتسح ما تبقى من سواد، فتاهت نظراته بعيداً عند مجدبات أيامه. وكلما أمعن النظر، فكر في الملجأ الذي ينام فيه والذي أصبح مأواه وقبره المحتمل. يتذكر الساعات الأول التي وضع فيها جسده وروحه وسط هذا المكان، ودوّن حينها في تلافيف دماغه ملاحظة ليس من السهل انتزاعها، الحرب برمّتها كانت تعني جهنّم بجوفها المفتوح تصرخ مع مضي سنواتها وتوالي المعارك الطاحنة، ألا من مزيد، وأن فصيل الحجاب لن يكون سوى موقع صقر منها. فكر في ذلك ملياً، وأنتهي أخيراً بيقين أن الموت لا يمكن أن يختصر بغياب الجسد، ومن ثم طمره في لحد من تراب قرب ضريح أحد أولياء الله، فالأكيد أن للموت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

معنى آخر. أن يكون الخوف مسلطا فوق رأسك كل ثانية، أن تذلّ مثل عبد، وعليك لعق جراحك بصمت دون شكوى أو تذمّر. أن يعمر صدرك إحساس قاتل باليأس والخذلان. أن تقتل أحلامك وأنت لا تمتلك ما تدافع به عن وجودك. هذه أيضاً وجوه أخرى للحرب وصنوها الموت أو هي الموت بعينه.

لا نهاية للحرب، وليس هناك سوى انتظار دورك حين يهبّ زملاؤك بخفة وشطارة للملمة بقايا جسدك المبعثرة. فكر في هذا وسرح بعيداً. كيف يتسنى لمثله إعادة تركيب قدح تشظى بعد أن قفز فوق الأربعين، وبدا الأمل في العودة مرة أخرى لحياة جديدة ضرباً من الخيال. ولكن مدينته البعيدة تعلق في ذاكرته، تتشبث مثل أقدام عنكبوت تنسج وتشبك خيوطاً غليظة بين طيّات ذاكرته. يمضي معها متحرراً من كل قيد. يتلذّذ وهو يستحضر صورها وحركة الناس فيها. يتمطى في أزقتها، يدب دبيب الديدان دون هدف. لم تعد مثلما عرفها، وبالرغم من كل ما أصابها وما جرى عليها، لكنه ما زال يشعر ببعض أمان حين يزورها، فسير الأيام يخالطها الكثير من العذابات والمخاطر، ولكنها بقيت حاضنته التي يود أن تلملم أحلامه مرة أخرى.

في زياراته كان يطلق زمام خيالاته وأحلامه، يستمع لصهيل صبواته تردّدها الجدران. يقترب من النهر ويجلس عند حافة رصيفه يستمع لهدير الماء. يدندن أغانيه بانتظار أن يرخي المساء سدوله ليكون له فيه شأن آخر. شيء مثل ضوع الزهور وضوء الأقمار وبروقها.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أعاد الكوفية ليغطي أنفه مرّة أخرى، وتطلع لساعته محاولاً معرفة الوقت وكم تبقى من زمن خفارته. الرابعة إلا ربعاً، لم يتبقَّ سوى دقائق معدودات. كانت الريح تصفر بحدة، رغاء حزين يصدره مرور الهواء من بين حافة سقف المرصد وأكياس الرمل، وكأن هناك حيواناً يذبح، أنات موحشة تخترق حوافّ الساتر وتتسلل خلال أكياس الرمل. الساعة كأن الظلام امتلأ بالأرواح الشريرة، والعيون الوحشية الناطة من قبور تمتد أمامه. يتراكم الحزن في قلبه ويتسرب لجسده مثل حركة أقدام نمل، فيشعر بقشعريرة برد تتسلل لكيانه.

في هذا المكان القاسي الجافّ الموحش يقف اليوم وحيداً فزعاً مفجوعاً. هناك في مدينته للطراوة لذة وللخضرة بهجة. هناك تنام الطيور في قلب النخيل، والأزقة تخلو من المارة، ليس سوى مواء القطط ونباح الكلاب وشخير يتسرب من خلف الجدران والأبواب، وصرخات التياع تتغنج وتختلط بضحكات تهمس لترتشف رحيق لذتها. وحده جبار كرمش يخط بأقدامه فوق تراب الشوارع، صوته يهدر بأغنية ملتاعة فتنهض الصبايا من غفوتهنّ، يتنصتن ويدندنَ معه باستحياء وهنّ في أسرّتهنّ، يتكسر النعاس فوق جفونهنّ. الالتياع ذاته، كل ليلة يبهج الروح ويفقس ألف ألف لوعة. ويمشي جبار كرمش مترنحاً بين الأزقة يدور مثل وزّة عرجاء أنهكتها الشيخوخة. تنطلق من حنجرته كلمات وجد ما عاد يعرف لها نهاية أو يدقق فيما تعنيه. الرغبة في الغناء تكتسحه وتزيده وجداً وصبابة.

وهو مثل شبح يتسلل مراقباً جبارا عند المنعطفات ثم يعافه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لأغنياته. الليل المندّى فضاء دون حدود وأزقة المدينة تفتح أكفّها ملساء دافئة لا تحمل غير الطمأنينة والأمان. يقترب ببطء، يتخفى ويسير وئيداً بين حوافّ البيوت مثل لصّ، ثم يجدها تتلصّصه بعيونها عبر فتحة الستارة. يقترب من الشباك فتطالعه بابتسامة رضية. ينبسط صوت جبار في البعيد، مدراراً يأتي، يخالطه عرير الصراصير ونباح الكلاب وثغاء الخراف. عندها يتقاذفه مع أغاني جبار تيه شفيف فيجد روحه تهّس مثل سعفة ويغور بعيداً تهدهده ترانيم مثقلة بالفرح.

سألته يوماً وهو يلتقيها عند طرف السوق. اقتربت منه ووقفت جواره ولكنها أعطته ظهرها خوفاً من أن يراها أحد ما تحادثه مباشرة.

ـ هل أنت من يغني في الليل.

أرتبك وشعر برعشة فجائية تنتاب جسده. تلعثم بالكلمات وشعر بأنه يمضغها بصعوبة لا تطاق.

ـ أي... نعم.

ـ صوتك حلو.

ـ أنت أحلى.

مشت، تتهادى مثل غزال، ترفع العباءة وتشّدها بين حين وآخر لتعيد ترتيب وضعها. تلتصق العباءة فوق الجسد مبرزة بعض ملامح القوام المشدود. تسير مبتعدة. تتوقف ثم تمشي وهو يلاحقها بنظراته وشهوته. يسحبه مسحوراً ذاك الجسد الطري الوثاب النطاط. يلاحقها ويدور من الجهة الأخرى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

للسوق ليكون أمامها. يتقابلان فينظر إليها مبهوراً، جيدها المكشوف، عيناها تسطعان مثل الزمرّد، وخصلة مثل سواد الليل تنسلّ متدلية فوق الجبين. جسدها الذي يتمّلاه ليلاً ها هو أمامه في وضح النهار مثل طير حرّ طليق. ثم يتردد الصوت، يأتيه من مكان لا يتبينه.

ـ صوتك حلو.

* * *

بعد السنة السادسة بدت الحرب مثل أحجية عصية على الحل. مضت السنوات ثقيلة مجللة بالسواد، دبّ معها اليأس في القلوب، وأغلقت منافذ أمل كان الجميع يظن أن الضوء سيرشح منها. يتذكر جيداً تلك اللحظات الأولى حين أزف يوم التحاقه بوحدته، يتذكر تلك الساعة، كيف وضعت أمه رأسه في حجرها وراحت تقرأ له الأدعية وتتمتم بالصلوات، وكيف وقفت بعدها عند عتبة الدار وبعيون تخضّبها الدموع، ودون أن تنطق بكلمة، دلقت وراءه قدر الماء. ذاك اليوم اقترب من بيت الحبيبة دون أن يرى وجهها، كانت الستارة مسدلة، مغلقة بالكامل. أراد أن يراها ولو للحظة. لا شيء كان يراوده ساعتها غير تلك الرغبة. نظرة من عينيها تكفيه، زوّادة لوداع ربما يطول. ودّع النافذة دون أن يلمحها. في إجازته الثالثة ما عاد لها وجود، لم يعد يراها، وحين سأل عنها، قيل له إنها رحلت إلى مدينة أخرى. هكذا وببساطة أنهوا القصة ببرودة يابسة مثل يباس روحه. تزوجت ثم رحلت وانتهى الأمر. ولكن هو،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كيف سيكون أمره. ما الذي سيكون عليه مسير أيامه، كيف يتسنى له أن يطفئ ظمأ شبقه المشتعل. ظل يمشي ويمشي، قضى جميع أيام إجازته يخور مثل ذئب جريح، يسير بين الأزقة دون هداية. الشوارع خلت تماماً، يطوف فيها الليل بطوله يبحث عن وجهها، جسدها، وصوت جبار كرمش يلعلع ضاجاً. المدينة تغط بالنوم والشخير العالي يملأ السطوح. وحده كان يجول فيها مثل لصّ، عاشق يغتصب الأزقة ويقبل الشبابيك. يتسلل إليها. يدبّ بين حواشي البيوت يتوقف أمام نافذتها المسدلة الستارة والمطفأة الأنوار. هنا كان يناجيها فتمنحه المتعة. وصوت جبار يأتي من بعيد مرحاً مغسولاً بضوء الفجر الطالع. وبعد أن ينسحب من أمام النافذة يجتاز سوق المدينة الكبير. يلتقيه جبار مترنحًا مطأطئ الرأس كأنه يعد خطوات ظله، يتوقف ثم يطالعه ويصرخ بملء حنجرته ويغني وجعاً.

ـ لون تنفع بالبواجي عليك.. أشكَ صدري أبدال الزيج وأدلع.

فجأة يصمت جبار ويروح يحدق به كمن يبحث عن شيء أضاعه في متاهات الذاكرة. يشعل سيجارة ويقدمها له بيد مرتعشة. يهرب من أمام جبار. يهرب كي لا يواسيه. يهرب كي لا ينادمه، يهرب كي لا يبوح بسره، كي لا يخاصمه على كذبة بريئة حصل منها على أحلى كلمات.. صوتك حلو... صوتك حلو

مضت السنون ثقيلة موحشة قاحلة ينتظر فيها يوم الإجازة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ثم يوم العودة. تسارعت الأحداث. كان أبوه قد مات بعد أن أكل السلّ رئتيه، وضياء مات منتحراً، ووصفي قتله رجال الجيش الشعبي بعد مطاردة شرسة إثر هروبه من الخدمة العسكرية. كمنوا له ثم لاحقوه وقتلوه جوار بناية معمل الثلج. توّسلهم ولكن رصاصاتهم كانت أسرع من كلماته. تركوه جسداً منخوراً يسبح بدمه ومنعوا أهله من إقامة مجلس عزاء. جارتهم الوديعة رحاب لم يُقَمْ لها مجلس عزاء أيضاً، وقبل مقتلها لم يعنِ لأحد أن يسألها عن الذي حدث. غسل العار لا يحتاج ثرثرة.

أقحلت المدينة وتيبست نداوتها. الخوف فيها يسيل مع الدموع. خائفون، أرواحهم مسلوبة من شدة الرعب، عيونهم الهلعة تترصد بعضهم البعض. الجميع يهاب ويخاف الجميع. وكأن المدينة بأزقتها موبوءة بمرض معدٍ ينتشر في جسدها وينخر أحشاءها.

ما عادت تثيره أمسيات التجوال، حتى صوت جبار كرمش ما عاد يفرش أنغامه فوق جدران البيوت. قيل وقتذاك إن جبار مات لعلّة مجهولة. اختفت الأغاني الملتاعة والضحكات الفجائية الوقحة، مات الشجن وما بقي من صوت جبار غير شبح يطوف الشوارع. يسير مترنحاً بجسده الناحل ووجهه الأسمر الشاحب يسكب ضحكة رضية يمنحها لمن يقابله.

كم من مرة فكر أن يجالس جبار. فقط يجالسه ويستمع، لا شيء غير ذلك. ولكن سرعان ما كان يعاف التفكير بمثل هذا الأمر، فمثل هذه المغامرة لها ثمن عند الجميع، فجبار كرمش

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هو زنديق المدينة وسكيرها وداعرها الأبدي. ولكن أين المفرّ الآن فصوت جبار ما زال عالقاً يلتصق بقوة في حجرات جمجمته. يرافقه في حلّه وترحاله. عند تلك السواتر والملاجئ بين ضجيج القنابل المتساقطة ولعلعة الرصاص. الآخرون كانوا يطلون عليه من حين وآخر بملامح غائمة مشوشة. جسدها ووجهها وحدهما وصوت جبار كانوا يرافقونه دون فكاك. في آخر يوم من إجازته الأخيرة رافقه قيس حتى مرأب السيارات الذاهبة إلى البصرة.

ـ بدأت تشيخ يا صاحبي.. بعدك تكره الزواج... عقده مو.

ـ يمعود تريدها أرملة تتردد على المقبرة.

ـ حين تعود في المرة القادمة سوف تجد مقبرة المدينة قد ضاقت بالموتى، وكل يوم جديد يكون أشد عسراً من سابقه... لا تهتم لهذا الأمر يا صاحبي ربك كريم وينظر بحنو لعباده.

وبضحكة مرة أكمل قيس جملته.

ـ تره جبار كرمش كتله العرك.. لو...

ـ لا... اللو هيه اللي كتلته؟

ضلت تلك اللو محشورة في ذهنه، تنخره، تفترس خلايا روحه، وهو يقف الآن في الليل البهيم ورائحة الخريف مشبعة بالرمل وليس هناك أمامه غير أفق مظلم مصفرّ، والريح تصفع وجهه بقسوة. بأسها لا يحتمل. تحسس جبهته ثم وجنتيه، بدت له بتغضناتها وبروز العظام وكأنها قناع طيني متيبس. أكيد أنها شاخت ومثله تغضّن وجهها وتسربل شعرها بالبياض. لا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ليس في مخيلته مثل تلك الصورة. الحقيقة وحدها كانت قد توقفت في ذلك الليل البليل، عند تلك النافذة، وفي جوف تلك الغرفة والجسد البض يتحرك بعنفوان. حدّق أمامه فشاهد حركة شخص يتقدم نحوه.

ـ قف.

ـ هاي شبيك.. أني رحيم.

ـ سرّ الليل؟

ـ أهو مو دا أكَلك أني رحيم.. ما أكَدرت أنام كَلت خل أجي أستلم منك الواجب.

ـ سر الليل؟

ـ دروح يمعود.. الجريدة.

ـ توصل.

ـ للفرقة.

ـ هلو رحيم همزين أجيت... أني ميت من النعاس.

أصدر حذاؤه الثقيل صوتاً مسموعاً حين ضغط على أرض باب الملجأ اللزجة. وقف وسط الملجأ وجال بنظره خواء الجدران ثم مد جسده فوق سريره باسترخاء، وأحتضن بندقيته، وسحب الغطاء بعد أن شعر بشيء من البرودة الرطبة تتسلل لأطرافه رغم جو الملجأ الخانق. استكان جسده وشعر ببعض الدفء. حالما تسّرب النعاس إلى جفونه استحوذ عليه هدوء غريب وبدأت تتسرب إلى عقله الصور والأحداث. حلّق معها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منتشياً فوق مدينته. بنشوة لذيذة هدهدته الصور الملونة، وكانت شبابيك البيوت تقاربه، تلامس وجهه فيشم عطر طلاء أخشابها الرطب وألوان ستائرها.

كان انهيال الصور غزيراً، الوجوه كانت تأتيه عابسةً متوترةً هرمةً. تقترب منه في العتمة الخفيفة، تتواتر مع ارتعاش ضوء الفانوس الشحيح. يحدّق في الجدران الطينية، فترتسم فوقها وجوه طالة بعيونها تطالعه بنظرات قاسية. كانوا هنا، حضروا جميعاً. ولكنه شعر بأنه يقف وسطهم غريباً وحيداً، لم يعره أحد منهم نظرة أو اهتمام. وكان نواح جبار كرمش يختلط بنواح كلاب وأنين ثكلى، ومن زاوية قصيّة راحت أمه تدندن بأدعيتها، ويسيل الماء فوق عتبة الدار من إبريق يرتجّ في يدها المرتعشة. راح يخط بأصابعه فوق الطين اللزج ويدندن أغنيةً سمعها من جبار. رسم صورة جسد بنهد ناط وشعر مسدول. صور كثيرة تجلد ذاكرته. كل شيء يبدو الآن ذابلاً محطماً، ميتاً ينم عن الشقاء، وجوه طحنت وأذلت. وحده وجهها بقي مشرقاً مسربلاً بالفرح والنشوة يقترب منه، فتتصاعد في روحه إشراقات ليل طال فيه الشوق.

أطلق حسرة مكتومة، ومرر أصابعه يتلمس شعر اللحية. مازال يشتهي رؤية جسدها الطريّ حين يتلوى أمامه، يقترب ويبتعد منه. ترتمي فوق السرير ثم تنهض، فيجد تضاريس الجسد وقد استحوذت عليه كلياً. تسمح له أن يتلصص عليها من بين فتحة الستارة. لم يكن هناك غير جمر يتقد في روحه. تشتعل حواسه مثل ذئب جائع. تدلف عيناه عبر النافذة لتشد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

جسدها البض بقوة، يتألق الخال فوق كتفها الأيسر المكشوف، وحلمات الصدر تندفع من وراء الثوب الشفاف تريدان الوثوب خارجاً. يمسك خشب النافذة، يعصره، يشد جسدها بكل ما أوتي من قوة، يتصاعد في السماء هيجان الشهوة، يحس وكأنّ ناراً مجمرة تشتعل بين فخذيه. يضغط ثم يضغط، ثم يروح في الهلام المشتعل الذي ما أنطفأ أبداً.

أطبقت عيناه ممسكة بحلمها. صورة جيدها ونظرات عينيها المشتهاة، وشعرها الفاحم الهابط فوق ظهرها العاري. تبتلعه رائحة الجسد وضوع شذا يلفه الآن وها هو صوتها يرن في فضاء الملجأ.

ـ صوتك حلو... صوتك حلو... صوتك حلو...

تنتصب أمامه، يشم رائحتها، يأتيه صوتها ناعماً كهمس النسائم، تحتد رائحة الجسد، فتنتشي روحه ويتأجج داخلها لهب حارق. تتقدم نحوه في هدوء وصمت. صدرها العاري المندفع إلى أمام شهياً مثيراً يقترب من فمه، فيشعر بحلمتيها وهما تولجان رحيقهما في جوفه. اقتربت بجسدها منه. دسّته تحت الغطاء وضغطت، لامست حرارتها صدره وفخذيه. شدّته إليها فشعر بحرارة قيظ تلفع صدره. اهتز جسده من قشعريرة لذيذة طاغية. ضغط على عضوه، هرسه بقوة. سمع دندنتها في أذنيه. قبّل جيدها وعضّ على شفتيها، أغمضت عينيها وتركت يديه تبحث متلذذةً بين ثنايا جسدها. مدّت يدها وفتحت أزرار سرواله وراحت تداعب وتداعب وروحه تفور مثل بركان. ألهب شفتيها بالقبل فأغمضت عينيها بخدر لذيذ. دار متلذذاً بين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ثنايا جسدها ثم لف ساقيه حول ساقها البضّ الطري وضغط بكل ما منحته اللحظة من قوة شبق أضناها الظمأ. ضغط بشدة وكان جسده يتلوى بعنفوان.

بدأ صوت العاصفة الرملية يزمجر غضباً. غطت صفرتها كل شيء. صفير الريح يضرب بحدة باب الملجأ، جاعلاً قطعة القماش البالية المسدلة فوق فتحته تتلوى شمالاً وجنوباً. مع صخب الريح دوّى صوت مكتوم لرشقة بندقية رشاش. امتلأ الملجأ برائحة البارود وغطت جوفه سحابة بيضاء. وكانت هناك ثمة خصلة شعر بيضاء خضّبها الدم تلتصق بالجدار الطيني للملجأ.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

النهر يكتم أسراره

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المشهد الأول

كان موعد سفره إلى بغداد يقترب ، ومعه تزداد نسب القلق والارتباك. أربع سنوات مضت على سقوط الصنم، وللمرة الأولى يفكر بالسفر إلى هناك بعد غربة جاوزت الخمسة عشر عاما. جهّز كل شيء بسرعة وعناية شديدين. وضع حاجياته الخاصة في حقيبة جلدية صغيرة سوداء، وفكر أن لا يحمل معه من الملابس الكثير، وما سوف يحتاجه يمكن شراؤه من بغداد. ملابس جديدة وكثيرة انتقاها من مخازن البيع في المدينة وابتاع لها حقيبة كبيرة. دقق كثيراً بنوعية الملابس واختارها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بأحجام مختلفة لعلها تناسب جميع من سوف يلتقيهم، صغاراً كانوا أم كباراً. في الأسبوع ما قبل يوم السفر واجهته المشكلة التي اعتاد مواجهتها خلال السنوات الخمس التي مضت منذ انفصاله عن بريغيتا.

بريغيتا مطلقته الفنلندية التي أذاقته الأمرين لثلاثة أعوام، وما زالت تلاحقه لعنتها لحد الآن. بين الفينة والأخرى يجد في صندوق بريده ورقة استدعاء من سلطة البلدية، وفي النهاية يجد أن الأمر لا يعدو كونه وشاية أو شكوى من بريغيتا.

ذهب إلى الطابق الثالث من مبنى البلدية عند العجوز روزماري، فأجلسته قبالتها وطالعته بعيون صقرية، ولكن وجهها كان يحمل ابتسامة ظاهرة. دون مقدمات، أخبرته بشكوى طليقته. كونه ولشهر كامل، لم يعتن بطفلهما ولم يصطحبه للتنزّه. شعر بالحرج ولكنه وجد في سفره إلى العاصمة ستوكهولم ضمن إيفاد من دائرته لفترة أسبوعين ماضيين، عذراً مقنعاً، قدمه للعجوز روزماري ذات العيون الصفراء الجاحظة. شعر بالرضا بعد أن أحس باقتناعها. واضطر لإخبارها بأمر سفره إلى العراق، كي لا يجد ما يحرجه من شكاوى جديدة، من الممكن أن تقدمها طليقته بريغيتا خلال فترة سفره، متحججة بقرارات المحكمة عند انفصالهما.

لا يدري إلى متى سوف تلاحقه سفاهات بريغيتا وتنكد عليه حياته. إلى متى تفتعل هذه الشكاوى والوشايات. ولولا تعلقه بابنه سام، لرحل بعيدا عنها نحو أقاصي الكون. حبه وتعلقه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بسام كان يمنعه من ذلك. كان يلذ له أن يطلق عليه تسمية سالم، ويشعر بأن سام يتقبل اسمه العربي بفرح وسعادة. حتى هذا الشأن كان مصدر خلاف كبير بينه وبين بريغيتا. وهو اليوم متيقن بأن شكوى بريغيتا هذه وادعاءها حول عدم العناية بسالم، جاءت إثر معرفتها بسفره القريب إلى بغداد. فهي تتسقط أخباره من زملائه في العمل.

حين تعرّف عليها، كانت بريغيتا ذات الشعر الكستنائي والعينين العسليتين الواسعتين، شابة جميلة رقيقة ذكية. وأحبها أيما حبّ. ولكنه وبعد مضي الزمن شعر بأنه خُدع بها أيما خدعة. فبعد العام الأول، ومع ولادة سالم، بدت وكأنها لم تكن على قناعة أبداً بنمط الحياة التي يعيشانها. وبدأ الملل يتسرب لحياتهما والمشاحنات تنغص عليه حياته. أشياء تافهة وبسيطة تتحول إلى معارك لا هوادة فيها. وأبدت في الكثير من الأوقات غروراً وفظاظة عجيبين، ومع الأيام كانت تنفر وتظهر احتقاراً لجميع معارفه وأصدقائه، لا بل راحت وفي أحيان كثيرة توغل في تحقيره والسخرية منه. وكانت تجيد توجيه الإهانات له وللآخرين. تختفي من البيت حين يدعو أصحابه، وتحسن صنيع العبث كي تجعله وضيوفه ينفرون من الفوضى العارمة التي يجدونها قد عّمت الدار.

يتذكر ذلك اليوم، كان يوماً شتوياً عاصفاً حين التقاها عند تقاطع الشارع المؤدي للسكن. طالعها بمودّة، وبادلته النظرات، بعد ذلك عرف أنها تسكن الطابق الرابع من البناية المجاورة. عدة لقاءات عابرة كانت كافية للتعبير عن مشاعر متوافقة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ورغبة بالحديث الذي بادرت هي به، بسلام صباحي وابتسامة مشرقة. بعدها تعمّد اصطياد أوقات خروجها ليلتقيها وجهاً لوجه عند موقف الحافلة. لم تمض غير أيام قليلة حتى بادرته بالسؤال عن الطقس، وتحدثا عن العواصف الثلجية التي تكررت بشكل غير طبيعي ذلك العام. ثم استقّلا واسطة النقل وجلسا جنباً إلى جنب. ومع الأيام تكرر الأمر وتطور معه الحديث متخذاً طابعاً ودوداً وشيقاً.

لم يكن ليستطيع الغور بعيداً لمعرفة دوافع حب بريغيتا له. ولكنه علل ذلك بأن لا حدود أو عوائق ومصدات إن أراد الأوربيون اجتراح الحب وممارسته. وليس هناك غير القناعة الذاتية والرغبات الحقيقية التي تدفعهم في خياراتهم. وربما رأت فيه غير ما يرى الآخرون. فلم يكن يمتاز بأية صفة تجعل فتاة بجمال بريغيتا تنجذب إليه، سوى طباعه الطيبة السمحة وجديته وكياسته، كما يتحدث عنها الأصدقاء، عدا ذلك لم يكن يتميز بشيء أخر يتفوق به عن حال الآخرين. علاوة على ذلك كان يحمل ندبة عميقة تخترق جبهته بشكل ظاهر. كما أن ثلاثة أصابع من يده اليسرى معطلة ومتيبسة. وتلك كانت آثاراً حملها من مشاركته في الحرب العراقية الإيرانية. وحين كان يحدثها عن تلك الأيام المفزعة التي دارت فيها رحى الحرب المجنونة، ويصف لها كيف كان الموت يحصد الشباب دون رحمة، كان يرى عينيها تغرورقان بالدمع وحشرجة البكاء تنكسر في صدرها. كان يضمها لصدره فيبدوان كمن يتبادلان المواساة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ما الذي حدث؟ ما الذي غيرها على تلك الصورة المفزعة. بقي يلوك التساؤلات دون الوصول لحل معقول. من الجائز أن يحدث تغيير في طباع النساء مباشرة بعد الولادة، ولكن ما حدث مع بريغيتا كان جد مختلف، ولم يقتصر على فترة ما يسمى بحمى الولادة أو هشاشة الأعصاب التي تتعرض لها المرأة أثناء الولادة وبعدها، ولا يمكنه الاقتناع بأن مثل هذه الحالات تتعدى الثلاثة أشهر في الغالب، هذا ما قرأ عنه في أحد الكتب العلمية. ولكن أن تتحول بريغيتا إلى نمر شرس وطباع فاسدة وإهمال متعمد. هذا ما جعله يظن أن في الأمر سراً كبيراً. وبعد مضي السنة الثالثة ما عاد يطيق وجودها وأصبح كل شيء تقوم به أو تفتعله منفراً ومضجراً وكريها.

كان ابنه سالم هو الشعرة الوحيدة التي تمسكه وتمنعه من إنهاء علاقتهما. ولكن في أحد الأيام وجدها تطلب منه الطلاق ، وكان الشرر يتطاير من عينيها، ووجهها يكتسي غيظاً وعبوساً. حسم أمره ووافقها بشكل سريع دون تردد أو نقاش، وكأنما كان ينتظر هذه اللحظة واستعد لها زمناً طويلاً. عندها كان يطالع ابنه سالم وهو يخربش رسومه فوق ورقة بيضاء في الزاوية البعيدة من غرفة الضيوف، التي بُعثرت في جميع جوانبها ملابس وأدوات طبخ وكثير من أوراق ومظاريف رسائل ومجلات وجرائد.

* * *

حين هاتفهم قبل مجيئه إلى بغداد، كان ذلك قبل شهر من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الآن، شعر بثقل الحنين يطغى على روحه مثل سحابة مضمّخة بالعتاب الجارح. سمع صوت والدته المثقل بالحزن، وهي تجهش بالبكاء وتدعو له بالسلامة، وتتمنى أن تراه وولده قبل أن يأخذها الموت. كان ذلك المساء نذيراً بهيجان شوق كُبت كل تلك السنين الخمس عشرة التي حسبها انطوت سراعاً، ليقف في هذه اللحظات مرتعشاً تملأ روحه الموجوعة موجة من غمّ ونكد ، فترك لدموعه الفرصة لتمسح ما تستطيع من هموم. وفجأة وجد نفسه يقرر السفر إلى بغداد.

طالعته سماء بغداد وهو غير مصدق عينيه. كان الغبار يفصح عن دَكانة كئيبة تغطي بناياتها، ولكن نهر دجلة لا زال في مكانه راسخاً يتلوى مثل أفعى. رغم الجزر المغطاة بالحشائش التي رقّعت وجهه، كان يتمايل هادئاً كسولاً ذاهباً نحو أقصى الجنوب باتجاه الخليج. أصابته الدهشة وهو يرى هذا المنظر المرقّع بألوانه الداكنة المختلطة بغير عناية، عبر نافذة الطائرة. حلقت الطائرة بدوران حلزوني فوق المطار ثم هبطت بحذر شديد فوق المدرج. عند هبوطه سلم الطائرة لفح وجهه هواء حار خالطته ذرات رمل لاسعة، فرفع منديلاً ورقياً ليضعه فوق أنفه، ولكنه وجد أن العملية ليست بالسهولة التي يظنها، ليرفع معها حقيبته وفي الوقت ذاته يحاذر التعثر والتدحرج من أعلى السلم.

المفاجأة الأولى غير السارّة التي واجهته كانت عملية خروجه من المطار نحو بيت أهله في مدينة الكاظمية. فقد وجد صعوبة في الحصول على سيارة تقلّه إلى هناك. وقف واجماً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أمام الباب الواسع والعالي لمطار بغداد، لعله يجد من ينقله إلى هناك. انتبه لإشارة كان يلوّح بها صاحب سيارة حديثة فاتجه نحوه. حسم الأمر وقبل بالمبلغ الذي طلبه السائق. بعد بضعة كيلو مترات باتجاه المدينة أخبره السائق بأنه سوف يوصله عند نقطة عباس ابن فرناس القريبة، وهناك سيجد سيارات نقل كثيرة تذهب إلى جميع أحياء بغداد. أحتار بالإجابة، فالمبلغ الذي طلبه السائق ليس بالقليل، والسائق حسب الاتفاق استوفاه عن نقله إلى مدينة الكاظمية، وليس تركه في مكان تحكمه سيطرة عسكرية، وعليه أن يستقل من هناك واسطة أخرى. لم يتركه السائق في حيرة من أمره، فأوضح له السبب معللاً الأمر بارتباطه بواجب في المطار وعليه العودة بسرعة. وأضاف أن السيطرة الموجودة في موقع عباس بن فرناس سوف تمنعه من العودة مرة أخرى إن خرج إلى المدينة. أراد مناقشة الأمر مع السائق ولكنه سهم وفكر، إن كانت الخسارات لا تتجاوز أكثر من هذه الخدعة، فهي لا تعني شيئاً، وليدع الأمر يسير دون انفعالات وضجيج، فربما يتطور الأمر إن ألح، وفي النهاية إلى مشاحنة وخصومة لا يعرف نتائجها، وسبق له أن سمع عن حوادث راح ضحيتها أشخاص دون وجود ما يبرر حدوثها. وزيارته لأهله بعد كل تلك السنوات، مع ما يتوقعه من انفعالات الفرح والغبطة التي ترافق مثل هذا اللقاءات تجعله يهمل ويرمي بعيداً أي تفكير بإثارة مشكلة عابرة، يمكن حلها بواسطة النقود، لذا اقتنع وقبل بما فرضه السائق عليه، واستقل سيارة أخرى من نقطة تفتيش عباس بن فرناس.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

استدارت السيارة واقتربت من منعطف الشارع القريب من بيت أهله. طالع البيوت التي رُصّت جوار بعضها البعض، وبدت ألوانها كالحة وجدرانها تعرت وظهرت أحجارها المنداة كبقع كبيرة متباعدة. سار بخطوات متعثرة وقدماه تقودانه داخل الزقاق. شعر بأن الشارع بدا ضيقاً وليس كما عرفه سابقا. تردد بعض الشيء ووقف أمام باب دكان صغير نطت بوابته من أحد جدران البيوت. كانت البيوت واطئة أسدلت ستائر شبابيكها، فبدت وكأنها تغلق نفسها أمامه على صمت مبيّت. شعر وكأنه يسير إلى لا مكان، وحيدا يختم على قلبه بقوة، مانعاً أكثر ذكرياته نشوة وفرحا من الطفح. حاول تشتيتها في تلك اللحظات المحرجة اللجوجة. اختلطت في رأسه أصوات عراك وقهقهات لصبية يختبئون خلف تلك الأبواب الموصدة. همس قوي رددته البيوت في وحشة تلك الأمسية الكالحة، فأحس بارتجاف جسده. ولكنه شعر ببعض طمأنينة حين أسكره عطر أشجار النارنج ورائحة الحشائش المنداة، ولون السماء بغيومها الرمادية التي تعكس ضوء الشمس الغاربة.

لم يخدع نفسه، فالشعور الذي أنتابه لم يكن إحساساً بعودة إلى وطن، فقد شعر بغربة قاحلة تلف روحه، وكأن قدميه تطآن المكان للمرة الأولى. كان الباب محافظاً على اللون الأخضر الفاقع ذاته، وكأن طلاءه قد جُدد حديثاً. ولكنه استغرب هبوط دكة الباب عن مستوى الشارع حيث بدا وكأن الدار برمتها قد غاصت نحو الأسفل. طرق الباب.

لفته زحمة ضجيج وتلقفته أياد كثيرة. أقارب ومعارف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ووجوه يراها للمرة الأولى. عجائز وشيوخ، شباب وصبية، قبلات واحتضان، عتب وبكاء، شجن وحسرات، وكانت أمه قد تلقفته ولم تترك جسده يفلت منها. كانت رغم قصر قامتها وجسدها الناحل الدقيق تتعلق برقبته وتتشبث بها، وكأنها تقاتل الجميع دفاعاً عن حصتها فيه.

لعدة أيام ظل جالساً في صالة الضيوف لا يفعل شيئاً سوى استقبال الأقارب ومجموعة الأصدقاء والجيران، ما كان يفعله غير مطالعة الوجوه التي ضجت بهم أيامه، وهو يبادلهم الابتسامات ويهز رأسه شاكراً حضورهم وحسن وفادتهم وحرارة ترحيبهم وسماع تعليقاتهم. وكانت أمه تتلمس جبينه بين الحين والأخر وكأنها تمسد وجه طفلها حديث الولادة. كانت أصواتهم وحكاياتهم أشبه بصفير مكتوم يثقب رأسه، تتراقص وجوههم أمامه، تتأرجح وهي تروي حكايات عن علاقاتهم به، أو عما كان يحبه أو يكرهه، عن مغامرات وأفعال شعر بسماجتها أو افتعالها. كان يقضم الطعام معهم ويبعث ابتسامات بليدة يرسلها بمشقة نحو عيون تطالعه طيلة الوقت لتفتش في تقاطيع جسده.

لقد هزل الجميع، وبرزت عظام وجوههم وتحددت بتجاعيد دقيقة. جميعهم، حتى الصغار منهم، هؤلاء الصغار الذين شابوا بسرعة مذهلة، ولم يتركوا له ما يستطيع الاستدلال للتعرف عليهم. تلك الفوضى التي سادت البيت، مع حضور كل تلك الأعداد من الناس، ذكّرته ببريغتا وكيف كان صوتها يبعث في رأسه صدىً مخنوقاً لتجعل من المكان بيتاً لمصح عقلي.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لمرات عديدة أحس بالقشعريرة والخوف وهو يسمع رشقات الرصاص ودويّ الانفجارات، بالرغم من وجودهم حوله. كان في حالة من الذهول الدائم لقرب تلك الأصوات من المنطقة. وكان يراقب بخوف شبابيك الغرفة وهي تهتز بقوة مع كل انفجار، ولعدة مرات وثب من مكانه وهو يتحفز لدرء الخطر المجهول.

ما زال أمامه خمسة أيام. ومع مضي الأيام السابقات، استعاد بعض صحوته من صدمة ما شاهده وعرفه وسمع عنه، أشياء تبدو أكثر قرباً من الخيال. جاهد في الليالي الماضيات أن ينتزعها من رأسه دون جدوى. كان ينتظر، فمثل تلك الحكايات والأفكار والثرثرات، سوف تزول حتماً حين يجد نفسه قد عادت لتكون بينهم مثلما السابق، أو ليتعرف جيداً على طباعهم وحياتهم الجديدة ليتقبلها راضيا ثم يهضمها. إن مثل هذا الشيء يحتاج إلى وقت، وقبل ذلك إلى قناعة وهدوء وهو يمتلكهما حتماً، هكذا حاور نفسه.

كان يستيقظ كل ليلة ليسترق السمع في ذلك السكون الموبوء بنباح الكلاب وأصوات الصراصر، ورشقات الرصاص، وزعيق سيارات الشرطة والإسعاف ، ليل يسمى ليلاً، ولكنه يخلو من كل علاقة بتلك التسمية، فيدس رأسه في الوسادة المتيبسة مبعداً روحه عن ذلك الجنون، يحاول جرجرتها نحو شقته في مدينته السويدية مولندال وابنه سالم، وحديث الشجر في غابته الجميلة.

البارحة كان ليلاً طويلاً مميزاً، فقد سهرت أمه معه حتى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ساعة متأخرة. كانت قبلاتها عطشى وكان حضنها وسادته اللدنة المحببة. للمرة الأولى، يشعر بأنه يستعيد شيئاً من الطمأنينة والحنان ويبعد كلياً الخوف عن روحه. سمع أصوات ضجيج سيارات الشرطة والإطلاقات النارية واهتزاز الشبابيك، ولكنه لم يشعر بالرعب مثلما في الأيام السابقة.

بتلميح ذكي نبهته أمه لزهراء. استدرجته في الحديث وهي تمسد شعره بأصابع يدها اللدنة، وكان هو يشم رائحة طفولته تلفع أنفه، متأتية من شالها الذي كلح لونه. ما زالت زهراء في خاطره، وهي قريبة من أمه بعد أن توفيت أمها. زهراء بنت خالته التي يكبرها بعامين، وكانا يتذاكران سوية أيام الدراسة، وكان قد لاحظ اهتمامها به، وتركيز نظراتها عليه. انتبه لذلك جيدا، وبدوره حفظ لها في قلبه ابتسامة بريئة طرية. ربما تعاد تلك الأيام، ولكن تمناها أن تكون على براءتها، شقاوة ومودة وأخوة بريئة. لا يدري ما تخبئه الأقدار. كان ذلك منذ ما قبل خمسة عشر عاماً مضين وأخذن معهن الكثير. ها هو قد جاوز الأربعين بتسعة أعوام، وهي ترملت مبكراً، عافها زوجها وذهب ضحية حرب لعينة، دون أن يترك لها ما يشيع في قلبها فرحا حتى ولو بسيطاً. أرملة وحيدة، وهي اليوم ذات سحنة سمراء داكنة بعض الشيء، منتفخة الجسد وعروق يدها ناتئة، وتبدو ذات بشرة مترهلة، رغم ما يظهر عليها من حيوية ونشاط، وما زالت تحتفظ ببقية من سحر شباب. ظن ذلك عند موعد الغداء، حين بادلها ابتسامة أوحت لأمه الكثير من الدلالات، فضغطت على ركبته، وتوشح وجهها بالرضا وابتسامة لها أكثر من مغزى. لذا كان حديث الليل طويلاً أقتصر على طباع زهراء وسجاياها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

في تلك الليلة شعر بأنه تعرف على ابنة خالته زهراء مرة أخرى. وجدها قريبة منه، ودودة، تعامله بفرح ومودة. كانت وكأنها عادت لتسأله المساعدة في شرح الدروس فيجيبها بعد مماطلة، ولكنها لم تكن لتيأس، وفي النهاية يقتنع فيشرح لها ما عصي عليها فهمه. كثيراً ما كان يصدق إحساسه، فبمجرد كلمة أو نظرة يجد أن ذلك ينطبع في قلبه وذهنه ليصدق الحال بعد ذلك دون جهد يذكر. زهراء بنظراتها تطلب منه ذلك، والآن فإن أمه تعرض عليه الأمر دون مقدمات. حين حديث أمه عن زهراء تحايل كثيراً وناور كي يغير الحديث الذي شعر بأنه غير مستعد للخوض فيه، أو إعطاء كلمة مناسبة في شأنه. ولكن أمه كانت امرأة صبورة لجوجة لا تتخلى عن هدفها بسهولة. كان يردد في سريرته لو أمكن صرف انتباهها إلى موضوع آخر، لكن إصرار الأم كان لا يتزعزع. لم يحر طويلاً بالأمر فبادرها بالسؤال:

ـ ألا يزال القارب عند الشاطئ.

ـ أي قارب؟

ـ قارب الصيد الذي كان لوالدي.

ـ أجل، مازال هناك وقد أهمله خالك منذ عام. و أظنه في المكان عينه. ما الذي تريده منه؟

ـ لا شيء.. أتتذكرين تلك الأيام حين كنت أشارك أبي في الصيد ثم أستخدمه في نزهاتي.

ـ أتذكر ذلك جيداً.. ولكن الظروف اختلفت يا ولدي.. حتى الصيد بات صعباً في ظل هذه الأوضاع.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ لا أريد أن أصطاد.. فقط أريد أن أعيد النزهة.. هذا الشيء بات غصّة في صدري. ما أجمل ما يعيد لي تلك الأيام.

ـ ولكن يا ولدي ليس من السهولة فعل ذلك..

ـ للمرة الأخيرة.. وليكن ذلك ذكراي العزيزة التي أحتفظ بها في غربتي.

ـ لست متأكدة، ولكن أسأل خالك عنه.. فربما لم يعد القارب صالحاً للاستعمال.

* * *

كان الوقت هو النصف الأخير من شهر حزيران، ومثلما كان يفعل سابقاً، اصطحب جهاز التسجيل وصفيحة ماء بارد، وقطعة صغيرة من البطيخ وعنقود عنب، وضعهما في صندوق فليني مع قطع من الثلج. كان القارب عريضاً ثقيلاً. تقدم ووضع مقتنياته في جوف القارب ودفعه بعيداً عن ضفة النهر. هبت نسائم خفيفة باردة بعض الشيء، ولاحت في البعيد غبرة غطت السماء. تلألأ من الجانب الآخر ضوء خافت عكسته أشعة الشمس الساقطة فوق منارة جامع الإمام الأعظم المنتصبة في الطرف الآخر من النهر. المكان الفارغ يعيد لذاكرته أحداثاً كثيرة. معمل فتاح باشا، وضجيج الشباب وهم يسبحون بمرح عند الشاطئ، نادي قريش الرياضي، هناك حيث قضى وطراً ليس بالقليل من شبابه يمارس هواياته بين السباحة وكرة الطائرة. جدف مبتعدا بقاربه نحو عمق النهر، ثم عاف المجداف ليدع القارب ينزلق الهوينا مع جارف الماء، ثم مد يده

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

والـتقط جهـاز التسـجيل، أداره وضـغط زر التشـغيل فـانطلق صوت أم كلثوم يصدح.

إسال روحك.. إسأل قلبك

أبل ما تسأل أنا غيرني إيه...

كل شيء من حوله قد تغير. ذاك ما أحسه الآن، حتـى جرف النهر بدا وكأنه يزحف نحو العمق باتجاه الضفة الأخرى، وبـان له المنظر مشوهاً كسيحاً. طـالع الشـاطئ الآخـر فانتابتـه لحظـة كدر شعر معها بـألم يجتـاح كيانـه. فكـرّ بتلك الأيـام حين كـان يلهث ويقع مجهداً جرّاء عبوره النهر سباحة. ولكنـه يعتقد الآن أن خمس دقائق ستكون كافية للوصول إلى الضفة الأخرى. فـي الماضي كانت هواية السباحة تتملكه وكان يحرص علـى جعلها مثل طقس صـوفي أعتـاد ممارسته. وطقسـه ذاك كـان لـه طعم مختلف، يلذ له فيه أن يكون وحيداً متفرداً. كانـت أمسيات أيـام الصـيف لهـا نكهـة فائقـة العذوبـة، مـا زالـت روحـه مشـبعة بأطيافها، تراوده كل سـاعة. كـان القـارب بانحداره يأخذه بعيدا عن منطقته. وكانت عادته تلك لا تخلو من طرافة حين تجـاوره فـي مسير قاربـه وهدوء النهـر قـوارب أخـرى بعض ركـّابها يعاكسونه ويناكدونه، وبعضهم يوادّه ويشاطره فرحـه. صـيادون وهواة رياضة ومحبّو طرب وعشاق سكينة وهدوء.

فـي الماضـي، غالبـا مـا كـان يخـرج نحـو النهـر قبـل مغيـب الشمس. يركـب قاربـه ويـدير جهـاز التسـجيل الـذي يضـعه فـوق الحافة الأمامية العريضة للقارب، ويروح سـاهماً يسـتمع لأغـانٍ يحبهـا. يلامـس بيديـه المـاء، فيشـعر ببـرودة لذيـذة تتسـلل نحـو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

جسده، يشعر معها بنشوة فائقة تغمر كيانه. يفتح قنينة الكحول ويرتشف كأساً حادة الطعم، ويذهب متهادياً بقاربه مع مجرى الماء. يتلذذ بفرادته وينتشي بأصوات الطيور وهي تهرب نحو أعشاشها تاركة وراءها يوماً مليئاً بالضجيج والحركة. يلوّح بيده لأصحابه الذين يقفون أو يسبحون عند الشاطئ القريب. يشعر بالغبطة والاسترخاء. يدع القارب يأخذ طريقه منساباً مع مياه النهر ويروح يطالع السماء منتشياً. في تلك الوحدة والسكون كان يحسم خياراته ومشاغله، يحاور روحه بصفاء ورضاً. ينتشي بعدها أيما انتشاء. تستمر ممارسته لطقسه اليومي الأثير أكثر من ساعتين بعدها يستدير ليعود بعد أن تغيب الشمس وتختفي بعيداً. فيتجه إلى المكان الذي أنطلق منه قرب نادي قريش. يوقف القارب ويركنه عند جذع شجرة صفصافٍ صغيرةٍ متيبسةٍ غـُرزت جذورها عميقاً في الطين، بعدها يقذف جسده المتعب من التجديف، والنازّ عرقاً وسط الماء، ويندفع ليتهادى في غمر الماء حتى الشاطئ الآخر في جانب الأعظمية. يعود بعدها والسكينة تملأ قلبه وكيانه.

كل تلك الوجوه والدعابات وملامح البنايات المجاورة يراها قد اختفت أو تغيرت. خلا الشاطئ ومثله الشوارع من البشر، وانطفأت مصابيح الشوارع ومثلها أنوار البيوت ما عدا ضوء الشمس الكسيحة التي تميل باحمرارها المختنق بالغبار نحو المغيب. شعر بالوحشة والغربة وكأنه دخل عالماً مسكوناً بالأرواح الشريرة. تلفت حوله محاولاً أن يتلمس في الجوار بعض حياة، ولكنه لم يجد غير طيور النوارس التي راحت تتعارك حول جيفة يجرفها الماء، وثمة أشواك تأتي قادمة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لترتطم باللسان الرملي الذي امتد ليكوّن شبه جزيرة تخترق النهر وتضيّق مجراه. فكر بالعودة وترك النزهة ليوم آخر. ربما هذا السكون المجوف، يخفي مالا طاقة له على مواجهته. ولكنه تمالك نفسه ووجه لها تقريعاً ولوماً حادين. لمَ يتهيب الآن وهو الذي اعتاد أن يخترق الغابة الداكنة الطويلة التي يؤدي الطريق عبرها نحو شقته في منطقة سكناه في المدينة الصغيرة مولندال القابعة غرب السويد، والواقعة على الطريق الذاهب جنوباً. كان يجتاز الغابة دون أن تنتابه مشاعر خوف أو رهبة. تلك الغابة الموحشة بسكونها وكثافة أشجارها كان يفضل أن يسلك فيها الطريق الميسمي الطويل ، دون أن تنتابه مشاعر رعب أو إرباك، منذ أيامه الأولى التي سكن فيها تلك المدينة الجميلة الوادعة، .

لم يكن هناك أثر لريح، وكانت الشمس تهبط رويداً فوق طرف السماء من جهة الغروب، والأماكن على جانبي النهر كتل صمّاء جامدة. انساب القارب نحو عمق النهر، فتركه يتهادى دون أن يبذل جهداً لتصحيح سيره. تلفت حوله بحذر وأحس بالرهبة من الفراغ المفزع الذي يحيط بالمكان، شعر بالندم يسحق روحه، فكر بالعودة وترك المغامرة، فقد أحس بمئات العيون تترصده من ثقوب البيوت المطلة على النهر، حتى طيور النهر عافت طعامها وراحت تحوم حوله. لم يشعر بطعم الفاكهة وهو يلوكها. لا شيء هناك في الأفق غير السماء الرصاصية المصفرة وهي تهوي مقتربة من سطح الماء الرجراج. طالع هيكل جسر الصرافية الحديدي الذي اقترب منه. بدا الجسر وكأنه نافذة حديدية واسعة وضع الزمن بصماته

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عليها ببقع صدئة داكنة ونافرة. تذكر أن الجسر كان دائماً هو خط النهاية لنزهته، وعليه أن يعود أدراجه، فجأة سمع صوت أطلاقة تخترق السكون فزع إثرها سرب عصافير. نهض واقفاً ينظر نحو مصدر الرصاصة ولكنه بوغت برشقة رصاص من المكان ذاته. أطلق صرخة تردد صداها في المكان. ارتعش جسده وانحنى شيئاً فشيئاً إلى أن هوى في قعر القارب وكانت عيناه الفزعتان تطالعان المنحنى المتشابك للجسر الذي كان ينزلق بصمت فوقه بالضبط.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المشهد الثاني

كان اعتقادي أن واحدة من خزعبلات البشر التي يمكن إدراجها، أو أنا من يفضل تصنيفها في خانة الترهات الغبية ليس إلا. هو ذلك الحديث الطويل العريض عن القدر المفروض على وقائع حياة الإنسان وتصرفاته اليومية. فقناعتي كانت تامة بأن ليس هناك قدر مفروض، وإنما هناك وبشكل قاطع فعل متعمد. هذه القناعة التي حملتها لفترة طويلة، ودافعت عنها أمام آراء مختلفة لأصدقاء ومعارف، لا بل حتى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أمـام غربـاء كانـت تتهـدل شـفاههم دهشـة واسـتغراباً ، حـين يسمعون ما أفصح عنـه فـي هذه المسألة الشائكة، وكنت دائماً مبشـراً بوجـود مـادي للـروح والجسـد معـاً، ولـيس هنـاك مـن انفصال بينهما، ولم أسمح لأحد أن يثلم مـا كنت مقتنعاً بـه أشد الاقتنـاع، وأصـبحت قضـيتي أو فكرتـي هـذه أشـعر معهـا بـأني أتفرد بها دون سواي.

اليـوم أسـجل فـي دفتـري تـأريخ التاسـع عشـر مـن حزيـران 2005. هـذا التـأريخ سـوف يكـون شـاهداً علـى التغيير أو هـو الحد الفاصل بين فكرتين لم تكونـا تنازعـانني سـابقاً، ولـم أسمح لوجودهمـا مـع بعـض ولـو لمجـرد تفكيـر بسـيط، وأن ينـافس قناعتي حول تناقضهما. كنت حاسماً ومنحازاً في تفسير كليهما. ولكـن مـع هـذا التـاريخ أجـد أن عنـادي قـد صـرع بالقاضـية، وتهشمت قلاعه وهوت مثل قصور رمل، لا بل قل مـات وشـبع موتاً، بعد أن وجهت له ضـربة قاصـمة ووضـح معهـا خطـل مـا كنت اعتقده.

لقد وقعت أخيراً صريعاً في حضن المعتاد ممـا يـردده النـاس ذوو القناعات الجازمة. أعترف بـأني مـا زلـت أفكر، وبـالرغم من التغيير الذي حصل، بأن أغلـب النـاس لهـم لوثـاتهم الخاصـة التي تجبرهم على الوقوع في شـرك الإيهـام والتـوهم وأنـا مثلهم لي لوثاتي أيضاً.

دون مقدمات تغيّر كل شـيء، دون سـابق إنـذار ودون أي جهـد. لـم أسـتمع لنصـائح أو ينتـابني كـابوس مفـزع. فجـأة دون مقدمات، وجدتني ألـوك خـاطراً ملحاحـاً يـدفعني عنـوة للاعتقـاد بأن هناك روحاً شريرة جاءت من خـارج جسـدي، وبغفلـة منـي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تلبستني، سيطرت عليَّ بالكامل، وأن سقم جسدي بات ناتجاً طبيعياً لعذاب روحي وأشجانها. أعترف أن هذا الخاطر غلّ عميقاً في داخلي، وأنا أنسحب منزوياً مبتعداً حابساً تلك الروح الرجراجة الهشة الممزقة في غرفة صغيرة بأثاث معدم. سرير واحد يصر عند إرخاء جسدي أو شده، ومنضدة تتكدس فوقها بعض الأغطية وتحتها صندوق حديدي يحوي مدخرات أمي التي أعتبرها مخلفات لملابس توحي رائحتها على زمن اندثر. فراش أمي فوق سجادة بالية يجاور باب الغرفة. مساحة الدار كانت الغرفة الوحيدة هذه، وفسحة إسمنتية تمتد أمامها نحو الباب الحديدي الخارجي. و كان هناك في زاوية من تلك الفسحة مستطيل ترابي صغير يجاور السياج الكونكريتي الخارجي، تصر أمي على تسميته بحديقة وتتلذذ بزراعته، ومعها كل الحق في تلك التسمية لو نظرنا للمحصول عند موعد القطاف، وبالذات حبات الطماطم القانية الحمرة المعلقة بغصون وأوراق خضراء، وما يضفيه المنظر من طراوة عند طرف المساحة الأسمنتية المغبرة.

اليوم اكتشفت، لا بل وجدت، أن هناك وشيجة حقيقية تربطني بشخص أخر. شخص منهك القوى خائف مكتئب، وأيضاً يضمر الشر لما يحيط به، لا بل يصنع الشر لذاته. روح أخرى حلت في جسدي عنوة، لقد جاء هذا الإحلال على غفلة مني، ولكني ارتضيته. لقد اخترت ذلك السلوك. سابقاً كنت من النوع البعيد كل البعد عن اليأس والقنوط. المرح والمشاكسة هما طبعي الدائم، وإسرافي فيهما كان يواجه بعض الاعتراضات واللوم، دون أن يمنعني ذلك أو يحيدني عن مزاجي الرائق حين يبدأ.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فـي هـذا اليـوم الجـاف، وبعـد أن تسـللت إلـى روحـي تلـك الرعشة الخفية، شعرت بأن سقمي وضـجري لا بل الكآبـة التـي تغلـف روحـي، هـي التـي تجعـل جسـدي نـاحلاً علـيلاً. وخيبـة روحي ويأسها المفرط، هما بالذات من أقعداني طريح الفراش كـل هـذه الأسـابيع التـي مضـت، متلبسـاً بكـابوس مـن الخـوف ورهبة من القادم. وسيطر عليَّ قلق دائم فـي أن يستمر الوضـع دون أن أستطيع امتلاك القوة للخروج منه. وكنت كلما أفكر بما أوقعنـي فيـه ابـن عمـي وهـاب، أتوقـع أن تكـون الأيـام المقبلات ضـاجة بمختلـف الكـوابيس وبحالـة يـأس مفـرط وقنـوط ربمـا يدفعانني نحو هستريا منفلتة أو شيء من هذا القبيل، قرأت عن الاكتآب الكثير وضـجرت منـه وقتذاك واعتبـرت ذلـك سفاهات أو مجرد سخافات تمارس من قبل صبيان لا يحتملـون العنـاد أو المناكدة.

اليـوم أشـعر أن جسـدي وروحـي حلـت بهمـا الرذيلـة، فأحالتهما إلى وحش كاسر. وباء لا فكاك منه، ويداي ملطختـان بالدم، ووجهي تلبسه قناع يفصح عن وحشية ودونية وابتذال.

قبل هذا التأريخ كنت قد فضلت العزلة التامة، فقدت خلالهـا الرغبـة فـي الحـديث مـع النـاس والخـروج للنزهـة مثلمـا كنـت مفرطـاً فـي كليهمـا. مـرت أسـابيع ثلاثـة علـى قعـودي اليـائس الخنوع وحيداً في غرفتـي الشـحيحة الضـوء، والتـي لعبـت دوراً حاسماً في إضافة الكدر لقلبي المكلوم، مستكيناً فوق فراشـي لا أفعل سوى إشعال سيجارة من عقب أخرى، ومطالعـة ظـلال المارة الساقط أسفل باب الدار الخارجيـة حين مرورهم أمامـه،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أو النظر في جدران الغرفة التي طليت باللون الأخضر الكابي المستكين، وكأنه يشي بالخنوع أو القناعة التامة بأن ليس هناك من جديد غير السكون.

في ذلك الوقت، كنت أشعر ببعض الراحة وليس الوحشة بالمطلق. لقد سجلت كل حيثيات وشذرات ودقائق الأيام بقصاصات ورق أحتفظ بها تحت وسادتي. تحت ضوء الفانوس الكابي كنت أدون كل شيء ولم يفتني مشهد ما. لقد ركزت جهدي على توصيف التغيرات الجوهرية التي طرأت على فكري، وأيضاً ظنوني وتحفظاتي وكرهي للوقائع، وكيف واجهت الصدود والعدوانية من أناس كنت أستمع لوعودهم وتصريحاتهم فتسبغ على أمالي الكثير من الغبطة والفرح.

أعرف أن تدوين الأحداث نوع جيد من الخدع، يساعد على تزجية الوقت والسيطرة على الروح، والأكثر من هذا يبعد ولو لقليل من الوقت، القلق والضجر عن النفس بنوع من المماحكة الصعبة. ولكن لحظات الكتابة، في أغلبها، لم تكن لتعينني على إفلات روحي من قيد خيبتها ويأسها المحكم والتفكير بما يخبئه أو يكون عليه مستقبلي.

* * *

كان ذلك يوماً مختلفاً. فجأة سمعت طرقاً على الباب الخارجي، ثم صرير الباب الحديدي الثقيل وهو يوارب. بعدها صوت خطوات ثقال على أرضية الفسحة المقابلة للباب الداخلي. رفعت رأسي عن الوسادة وطالعت صورة القادم،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وأخيراً كان صوته الأجش بفخامته المزعجة الثقيلة، التي تطرق الأذن وكأنها صوت مزمار صدئ لحافلة نقل ركاب قديمة متهالكة، قادمة من خلفك، أو نهيق حمار يغافلك ليضع شفتيه الغليظتين قرب راسك ثم ينهق بأعلى صوته.

ـ خالد... لك داد خالد... خلودي أني ابن عمك وهاب.

أجبته بتثاقل دون أن أحرك جسدي.

ـ شتريد؟

ـ أخوية أبو الخلود.. جا وين حجيك ذاك... وين زماطك؟

ـ شتريد.. لتداهرني تره اسبك واسب الكون كله.. خليني بقهري وروح شوف غيري تسولف وياه.

ـ عيوني أبو الخلود... حجاية زغيره وأروح.. والله أريد أفيدك.

حركت جسدي فشعرت ببعض الغثيان، ثم استقامت قامتي فتوجهت نحو باب الغرفة وفتحته. احتضنني وهاب بقوة شعرت معها بأن سلسلة من عظامي بدأت بالصرير والنواح فدفعته جانباً.

ذاك اليوم زرعها هذا الملعون في رأسي مثل علة شيطانية، بدأت تتسلل بين أوردة جسدي وشرايينه. ماضية في رواحها ومجيئها، هازة كياني مقلقة وضعي، مربكة تفكيري الذي كان في قمة عجزه وهشاشته. شطرت روحي لا بل شظتها إلى بقع متنافرة متباعدة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

من أين له هذه الأفكار هذا الوهاب الخبيث؟ ليتني لم ادعه يدخل الغرفة تلك الساعة. لو أني أخبرت أمي مسبقاً، وطلبت منها منعه من الدخول. هذا الوحش الكاسر دفع بي وحشرني وسط متاهات لا قرار فيها. لا بل كان مبيتاً لنية أن يراني بعدها مضرجاً بدمي أو مقيداً بالسلاسل. كانت نواياه الشريرة محسوبة بدقة وعرف مسبقاً ما يريد أن يصل إليه.

يا ترى أتكون صفات البغض والخبث متوارثة مع الجينات! إنه يحمل الكثير من طباع أبيه. ذلك الوحش الكاسر الذي سام أبي مر العذاب قبل أن يُقتل. أتذكر ميتته البشعة حين وجدوه ممزق الجسد مضرجاً بدمائه دون أن تتعرف الشرطة على قاتليه، وكثر الهمس حول الأسباب ولكن دوافع القتل ظلت تلوكها الألسن متذكرة معها مساوئ كثيرة كان يتمتع بها عمي.

سهمت وأنا أستمع لحديث وهاب، بكلماته المتسارعة الضاجة، وهو يمازج الجد بالهزل، ولكن نبرة الإقناع والاقتناع جعلتني أصغي إليه بوجل.

ـ خالد حبيبي.. يمته خلصت جامعة؟

أجبته بتململ وضجر..

ـ شنو متعرف.

ـ أعرف.. بس جم سنة صار وانته أدور على شغل؟

ـ وأنته شنو.. صاير حنين.

ـ مو خمس سنين كافية تلف بيه بين شغل يوم وعشرة بطال.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ ليش أنـي لكَيت شغل ثابت وتبطرت عليه.. حتـه شرطي ردت أصير.. رادو مني دفتر... كَلي مخلص الحجي شتريد..

ـ أنته مو جنت مدرب للسلاح بخدمتك العسكرية؟

ـ أي جنت.

ـ تعرف كل شي عن قطع السلاح.. كل أنواع السلاح.. مو؟

ـ أعرف، بس شنو دخل هذا بالموضوع.. شنو تريد تكول؟

ـ أوكي حبي.. أريدك تشتغل ويانا.

-ـ شنو أشتغل أوين وأنتم منو.. ؟

ـ دون لف ودوران... أحنه نشتري ونبيع الأسلحة... شغلتك سهلة.. بس فحصها واستلامها وتسليمها..

ـ هيه هذه شغلة... هاي مغامرة خطرة وجبيرة وكسران ركَبة..

ـ صحيح ابن عمي.. مغامرة ولكن فلوسها تستحق المخاطرة موشلون ماجان.. فكر زين، مسؤوليتك مو صعبة سلم واستلم وأبوك الله يرحمه.. بعدين راح تشوف شلون حالك يتغير وتلعب لعب بالفلوس.. فكر زين وباجر أمر عليك.. مزمز وراح تدعيلي طول عمرك.

انسل مثل الزئبق عبر باب الغرفة وتركني مصعوقاً حائراً يلف رأسي دوار غريب. لم يكن هناك من منفذ، فكلماته واضحة اندفعت نحو رأسي مباشرة. رأسي الذي حشي بالضجيج واعتمر باليأس. عقلي الذي بدا هشاً مشتتاً، ولكني وبعد أقل من يومين حسمت الأمر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مضت على تلك الواقعة بضعة أسابيع كنت فيها مثل المهووس المجنون. فقدت فيها الشحيح مما في قلبي من ود ومحبة لعالمي وما يحيط بي. ما عاد يعنيني ما يأتي به اليوم القادم بقدر ما كنت أشغل نفسي وأغلها في لهو يومي لا يهمني فيه إن كان مناسباً أو غير مناسب لشخصي. أتنقل من مكان إلى أخر، أحمل قطعة السلاح أفحصها ثم أسلمها لشار أو أتسلمها من بائع. ولم أكن في كل تلك المقابلات للتسليم أو الاستلام أهتم بشخصية من أقابلهم، رغم ما كنت أحمله من مشاعر تهيب وتوجس وخوف وحذر. كان وهاب بدوره يهيئ ليَ ما تحتاجه العملية ويعطيني النقود بعد انتهاء المهمة. ويردد دائماً:

ـ ها أبو الخلود.. شلون الأجواء؟

فأجيبه بنفرة وضجر:

ـ الكالة أخت المداس.. وضاع الداس ياعباس.. سلم الفلوس أو ولي عني..

* * *

ذلك اليوم خرجت من الدار، أجاور في سيري جدران البيوت في حي الكسرة. كانت الشمس توشم بخطوطها الحمراء الحافات العلوية للبيوت مبشّرة بظلال مغيب قادم. وضعت البندقية الرشاش نصف أخمص في صندوق كارتوني صغير للعبة صبيان. جلست في المقهى القريب لسوق الكسرة حيث كان موعدي مع وهاب والزبون الجديد. جلست أطالع الوجوه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بحذر. قدم وهاب ومعه شاب صغير ضئيل الجسد نحيله. جلسا عند الطرف الداخلي القصي للمقهى. انتظرت أن يكملا شرب ما طلباه. بعدها تحركت خارج المقهى فتبعني الزبون الذي عافه وهاب وذهب في الاتجاه الأخر.

أغلب المرات كنت أختار لعملياتي الجانب الأيمن من الشاطئ تحت جسر الصرافية الحديدي، حيث هناك مكان قريب ومناسب لفحص السلاح واستعماله. أسفل الجسر مجموعة من الحفر والتلال الرملية الصغيرة. ومع شحّ الماء في النهر امتدّ لسان رملي طويل يسهل المشي عليه للوصول إلى ما يقارب منتصف النهر. المنطقة القريبة تحيط بها مؤسسات حكومية خالية من الموظفين تماماً. حتى البيوت خلت من ساكنيها، خوفاً من المعارك الطائفية التي تندلع بين وقت وآخر في المنطقة. كل ما في المكان يبدو مناسباً وبعيداً عن أعين المارة. ليس هناك مشاة ولا تخطر السيارات بالقرب منه وبالذات عند غروب الشمس، حتى الشرطة والجيش ماعاد لهما وجود قريب من تلك المنطقة. أصوات الإطلاقات النارية تلعلع بين الحين والآخر على جانبي الجسر. الساعة قاربت الخامسة مساءً وثمة ضوء ينسحب إلى خلف البيوت المغلقة والهامدة في جانب الكرخ من الجسر. دخلت المكان بحذر، عاينته جيداً، ثم لوحت لزبوني أن يتقدم. رأيت غراباً أسودا نحيلاً حط على سياج الجسر وصاح بفزع ثم طار. شعرت بشيء من الضيق وخطر في بالي أن هذا نذير شؤم. كانت والدتي تقلق وتتبرم عندما ترى مثل هذا الطائر الأسود يحط فوق سور بيتنا، وتبقى اليوم بطوله وهي في حالة تبرم وتأوه، وبمزاج عكر وخصومة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

معي ومع غيري. أظنني ورثت عنها هذا الهاجس المرضي. تداركت الأمر لا بل حاولت إهماله كي لا يسبب ليَ قلقاً واضطراباً في هذا الوقت بالذات.

حدق الشاب بوجهي وكانت أساريره تنفرج عن ابتسامة مرتبكة خجولة. ران الصمت بيننا بادئ الأمر ثم راح الصبي يتمعن قطعة السلاح. كان يبدو صبياً في كل ما تحمله تقاطيع وجهه، ويوحي به جسده الناحل. راح يطلق حديثاً غريباً عن حاجته للسلاح، ومع الحديث كان جسده يتلوّى ويداه تتحركان بسرعة وكأنهما ذراعا آلة. مع استرساله في الحديث أبدى بعض النزق والتعابير التي توحي بطفولة غير سوية، وليس فيها الشيء الكثير من الدعة والسلام. كان يرتدي قميصا لماعاً مهلهلاً مبعثر النقوش، ولكن ألوانه تبدو مريحة ومبهجة، ويرتدي فوقه سترة خفيفة بلون أخضر غامق. تركته يتحدث دون أن أقاطعه، فأنا أعرف أن الاسترسال في الحديث سوف يبعد عنه الخوف الذي شعرت بوطأته عليه، والذي تفسره حركة الأصابع والجسد غير المستقرة. ورغم نحوله كان يبدو بصحة جيدة، متوسط القامة وجهه طفولي يتسم بالرقة. مع كلامه المتقطع المتوتر، كان يدفع ضحكة متكررة خفيفة، لها رنة طفولية محببة. فجأة شعرت بالحنو عليه، وودت أن أبعده عن هذه اللعبة القذرة والخبيثة. ولكنني عزفت عن هذا وأنا أوجه له استفساراً مباشراً.

- زين... أنته تعرف بالأسلحة؟

لم يتردد وأجاب بسرعة:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ أي.. أي... جـان أبويـه عنـده مسـدس وجـان ينطينيـاه مـن نروح للمزرعة.

ـ بس اليوم راح تشوف سلاح جديد.

ـ ميخالف.. كلشي حلو.. أجربه..

ـ شنو شغل ابوك.. ؟

ـ صاحب معمل حلويات.. هو مو هنا..

ـ لعد وين أبوك.. ؟

ـ خطفوه..

سـهمت وأنـا أطـالع وجـه الشـاب حيـث كبـت عينـاه واختفـت الابتسـامة عـن محيـاه، واسـتكانت أصـابعه متشـابكة تعصـر بعضها بعض. لعلّ البعض لم يواجه مثل تلك الحالة، ولا يدرك كنهها ولكنـي كنـت أشـعر بمـا يجـول فـي خـاطر هـذا الفتـى. شـاهدت فـي عينيـه مقدار الألم الكـامن، رغـم حركتهمـا الفزعـة المرتبكـة. تلـك الالتماعـة المعبـرة عـن مغـزى أن تكـون لوحـدك تواجـه كـل تلـك الآثـام والرعـب المبثـوث مـن حولـك. شـعرت برغبـة عارمـة أن أنجـز العمـل بسـرعة وأتـرك المكـان ليـذهب الشاب بعيداً عني.

ـ خلـي بالـك... البندقيـة سـريعة الإطـلاق.. تحتـاج أن تكـون قويـا وتسيطر عليهـا... هـاي مـو مسـدس.. راح أراويـك شـلون تفككه وشلون تشدها، وبعدين أنته تسوي مثلي.. خوش

ـ أي ميخالف.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

سحبت البندقية من الصندوق ووضعتها في حضني ثم نزعت مخزن الإطلاقات وبدأت التفكيك. كان الشاب يراقبني بنباهة ودهشة. أعدت تركيب البندقية ثم سلمتها إليه ليفكك أجزاءها. ارتبك بادئ الأمر ولكني لاحظت بإعجاب قوة نباهته وقدرته على حفظ العملية بدقة مناسبة. في عملية إعادة التركيب نسي من أين يبدأ وكيف يعيد التربـاس إلى مكانه، فأشرت له ببعض الملاحظات فقام بالعملية على أتم وجه. ثم طلبت منه إعادة عملية التفكيك والتركيب لمرة أخرى فأعاد العملية بجدية ودراية جيدتين. قدمت له النصيحة عن كيفية المحافظة على السلاح باستعمال النفط والزيت بين فترة وأخرى، لكي لا يصيب البندقية الإهمال ويدبّ فيها الصدأ من الداخل.

ـ هسه راح أنجرب السلاح قبل ما تستلمه وتروح الله وياك..

ـ أني هم أجربه؟

ـ طبعاً... لعد ليش تشتريه..

أعدت مخزن الإطلاقات إلى مكانه وسحبت الأقسام بخفة ثم أطلقت رشقة سريعةً ترددّ صداها في المكان وطار إثرها جوق عصافير. ناولت الشاب البندقية بعد أن أغلقت عتلة الأمان. أخذها بين يديه وهو يطالعها بانبهار ظاهر. سحب العتلة ولكنها امتنعت عن التقدم، فرفع عينيه نحوي وكأنه يتوسلني لتفسير ما حدث. ضحكت ونبهته لضرورة التدقيق بمجمل العملية، وضع المخزن أولاً، ثم وضع عتلة الأمان ومهمتها في البندقية، ووجوب بقاء البندقية في حالة الأمان عند عدم الاستعمال،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ودفع العتلة إلى الأسفل حين الاستعمال، بعدها يأتي سحب الأقسام، وفي حالة الرمي الضغط على الزناد، ومن الواجب أن تسند البندقية إلى حوض الكتف ومسكها باليد اليسرى بإحكام، وإلا سوف تقفز البندقية ولا يستطيع المرء السيطرة عليها، وربما يسبب هذا خطأً قاتلاً، وإن لم يسيطر المرء عليها بشدة، فإن عملية ارتدادها سوف تؤذي عظام الكتف وأنسجته. ونبهته لضرورة أن يبدأ بتجربة الرمي المفرد، وشرحت له الفرق بين هذا والرمي بالرشقات السريعة.

لم أشأ أن أسأله عن سبب رغبته بالحصول على السلاح، ولم يكن مثل هذا السؤال ليثقل بالي في المرات السابقة أيضاً، فلكل شخص أسبابه ومبرراته، وإن أردت استجلاء مثل هذا الأمر سيكون من السخف أن أجد ما يبرر اقتناعي من عدمه. الأحداث في الغالب تسير ليس بما يظن المرء وبما يطمئنه، ولكن في كل الأحوال ومثلما يقال فإن للضرورة أحكاماً، ولا جدوى في البحث عن الدوافع أو سبب الاقتناع، ومثل هذا الأمر إن بادرت في البحث عنه، سوف يضعني في دوامة الهموم والمشاكل الشخصية للزبائن. وقناعتي أن الجميع تعرضوا لحوادث خلقتها حالة الانفلات الأمني، وهذا بالذات ما يغني عن السؤال. المهم أن المرء لا يستطيع العمل وهو يفكر بهموم الآخرين ومشاكلهم في وقت واحد.

إنجاز المهمة بوقت قصير يعني الكثير، وفي المقدمة من ذلك أن تخرج وزبونك من هذا المكان سالمين معافيين، ودون أن يكون جسدك ممزقاً ومرمياً عند طرف اللسان الرملي تحت حافة الجسر الحديدي.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وضع الشاب البندقية في حفرة الكتف فطلبت منه تثبيتها بقوة وإمساكها جيداً قبل الضغط على الزناد. اندفعت الإطلاقة، واخترقت الهواء بصفير مسموع متجهة نحو الضفة الأخرى للنهر. علت وجه الفتى ابتسامة فخر، وومض بريق غريب في عينيه. لم ينبس بكلمة ولكنه كمن كان يقول ليَ.

ها شلوني... مو كَدها..

وضع البندقية مرة أخرى في حجرة كتفه بعد أن سحب عتلة الأمان ووضعها في موضع الرشق وضغط على الزناد بعجالة فانطلقت الرصاصات بحدة. تحرك جسده وتمايل بعنف، ولم تستطع يداه السيطرة على حركة البندقية واتجاه الرمي. قفزت وسحبت البندقية بقوة ووضعت الفوهة باتجاه الأرض.

سمعت الصرخة المفجوعة التي اخترقت السكون وتردد صداها بين ضفتي النهر. نظرت نحو النهر، شاهدت القارب المنساب وئيداً. ترنح جسد الرجل ثم سقط في حوض القارب. تأكدت من أن الرصاصات أصابت صاحب القارب الذي كان يتهادى وسط النهر قادماً من الجهة الشمالية نحو الجسر. سحبت مخزن الرصاص وطويت أخمص البندقية ووضعتهما في العلبة وسحبت الشاب من يده وتركنا المكان.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

سيرة ليست للسرد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لست مستعداً للحديث بالتفصيل عمّا دار أو حدث لي في الأسر. الحديث عن كوابيس تلك الأيام يجعلني أعيشها مرة أخرى بكل حيثيات الأوجاع التي حوتها. لهذا السبب تراني أحاول دائماً انتزاعها من ذهني. أحاول وأكرر المحاولة، أحاول ولكن هل ذلك ممكن، أشك في الأمر مثلما أشك بقدرتي على انتزاعها ورميها بعيداً. لا يقين عندي. فروحي من الهشاشة أجدها بعيدةً عن التماسك، وواهنة القدرة على استحضار وتركيب الأحداث. أحداث تلتصق في تلافيف عقلي وتنتشر مثل شبكة ثخينة من حبال مفتولة. تنفلت ولكنها تلتفّ في التجاويف، وتثب أمامي كوحوش بمخالب مدببة، تنهش روحي ماسكة بتلابيب ذاكرتي. ورغم الألم المضني الذي ينخر روحي، فإني أظن أن التفكير، وفي آن واحد بكومة من الفواجع والمواجع، يربكني ويضعني في لجة من متاهات لا نهاية لها. ولو فكرت الآن بالأمر ملياً لوجدتني أدرك جيداً أن الإحساس بالألم جراء القسوة المفرطة التي وجهت لجسدي وقبله لروحي، يجعلني أكثر قدرة على الاختيار بين الفصل أو الجمع بين الأحداث. سردها حسب الرغبة أو الظرف، لن يكون عملاً سهلاً. فألم التذكّر له خصوصية غريبة، يكون العقل فيه، إمّا منفلت مشوّش أو يمتلك ما يمكنه من ضبط إيقاع جميع المشاهد وجعلها طوع الحديث.

الأسر، حاولت دائما أن أجد له تعريفاً دقيقاً، ولكن في كل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

مرة أجدني عاجزاً عن ذلك. من وقع في الأسر يستطيع أن يفرج عما خبأته ذاكرته لوقائع من فظائع وآلام واجهها هناك. ومع ما يملكه من إدراك أو إحساس بفرط القسوة التي وجّهت له، يبقى المرء غير قادر على أن يعطي وصفاً دقيقاً ومتكاملاً لوضعه النفسي، أو بناء صورة حقيقية لعالم عاش فيه، اسمه الأسر. فهو عالم متشابك ومبطن ومفزع. ولذا فأنا أعترف بعجزي التام عن توصيفه بدقة. عجزي هذا يدفعني أن أعافه. فإن أردت استحضار عذاباته وجدتني في الأخير أتسربل بالذل، وأحس بمقدار الخذلان والدونية التي واجهتها. نعم دونية تصل حدّ الاعتقاد بأني كنت مثل كلب أجرب، احتشدت جوقة من رجال يمتلكون قدرات فائقةً من السادية، التفوا حوله، وبجهود منفلتة كانوا يحاولون إرساله إلى حتفه اختصاراً للزمن. ولكنه وبمرور الوقت، وفي كل مرة، بين طواعية واستسلام وتخاذل ودونية، يجد نفسه قد توطن بالكامل مع رغباتهم ولذا بقي يقاوم من خلال ذلّه وخوفه. ولكن كل شيء أرادوه نفذته طواعية.

لا أريد أن أسرد كل ما واجهته في الأسر. ولكني أتذكر الآن وهو ما يعتصر ذهني وقلبي حدّ الوجع. أتذكر بإفراط، الأشياء المحيطة بذلك المعسكر، وأيضا الوجوه التي جاورتني أو رُصت معي في المحاجر، وحتى من ذهب منها دون عودة، بقيت صورته ملتصقة تتأرجح في بالي. ولكن لأبعد اليوم الحديث عن كل تلك الوقائع وتفاصيل الحوادث بالرغم من أنها كانت شبيهةً بالزلازل. نعم زلازل تهز الكيان، ربما حدوثها بالنسبة لي يفوق بقوته ، أكثر مما يحتمله مقياس رختر ذو الرقم المتيبس عند النقاط العشر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأسر هو الأسر، أي سجن دون يقين أو نهايات، وهو اقتلاع حتمي من الحياة الطبيعية السوية. ومنذ البداية يوم ابتلع المرء طعم الذهاب إلى الحرب عنوة أو بخياره، يجد نفسه تحت وطأة التفكير بحلول قاصرة تدور في دائرة مغلقة، تتمحور حول موضوعات الموت أو الأسر أو العوق أو العودة مع ذاكرة مريضة ملتبسة.

في الأسر لا يعدم هناك من يحذر الآخرين وينصحهم بعدم الإفراط بالحديث عن أموره الشخصية، كي لا تكون دليلاً يستغل ضده. ولكني ومنذ البداية بحت بكل ما جادت به قريحتي حين سألوني عن الذي حدث، وسبب قدومي إلى حدود دولتهم طالبا اللجوء.

لم أقبل نصيحة رحيم حميد رجب العافي، وهو من شاركني في قفص الأسر الأول. حين نبهني أن تكون إجاباتي دائماً مختصرةً ودقيقةً وعلى قدر السؤال، ولكني تجاوزت نصائحه، ورحت أثرثر لهم عن أماكن وأحداث كنت أعرف جيداً أنها ستزيد من قساوتهم في تعذيبي. كنت أظن أن ذلك ربما ينهي معاناتي بشكل أو آخر، ولكنهم لم يعطوني مثل هذه الفرصة. كانت حساباتهم بعيدةً جداً عن حساباتي.

لا أبالغ لو قلت إن الوئام كان مستحيلاً مع نفسي، وهو كذلك مع من شاركتهم أقفاص الأسر العديدة التي تنقلت بينها بتوصيات وسجل آثام يلاحقني مثل الظل، دونتْ فيه الكثير من المساوئ والتهم البشعة الملفقة. لم أتوطن مع الجميع مثلما مع الأماكن. هكذا كانت فترة أسري. كان من المستحيل عليَّ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مقاربة جميع الأشياء حتى مع الأسرى الذين يشبهوني في عذابي.

في الأسر، وفي البداية أوجزت لهم وضعي لمرة واحدة، وبعدها أفضت حوله عشرات المرات. ولكن الثرثرة أو حتى الإجبار على ممارستها، لم يكن لينفع بشيء مع النوايا السيئة التي واجهتها. فقد استغل أسمي وهويتي ليكونا سيف ديموقليس الذي أتلمس شفرته الحادة وهي تقترب من عنقي كل ساعة. في اليوم الواحد رددت أسمي عشرات المرات. وحين أتلعثم وأنا أعلس الطين مخلوطًا بالأحرف بالدم، كانوا يطلقون ضحكاتهم المجنونة فأصاب بالعته، وأروح أتلوى ليرفع ذلك عقائرهم بالصراخ والشتائم ويندفعون في دحرجتي وركلي وتمريغ وجهي بالماء الآسن. كانوا يعفرون وجهي بتراب الأرض وطينها، وكان الدم يتدفق من جسدي كما ينساب ماء العيون. أمدّ جسدي فوق الأرض ليسحقوا ما يشاؤون سحقه. فما عاد لي رغبة بوجوده. هكذا، لم يكن قد تبقى لي ما أحافظ عليه.

حطّموا أسناني، فأصبحت ألثغ حين يطالبونني بإعادة تكرار أسمي وقصة اختلاف هويتي وهروبي من الحرب. روضوني مثل بهيمة، فكنت أطيع إشاراتهم بحرفة العارف بالرموز والإشارات. أصبحت أعرف ما يطلبونه مني عبر إشاراتهم وليس كلامهم. أسبقهم في معرفة ما تعنيه إشارة الإصبع أو الكفّ وحتى الحذاء. ما عادوا يحتاجون غير التلويح لي بالحركة، فتجدني أقعي على ركبتي ثم أضع خدي فوق التراب أو الطين ليدوس أحدهم بحذائه الصلد المتيبس فوق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

رأسي. يضغط ثم يضغط حتى تكتم أنفاسي، وحين انتفض قافزاً خوفاً من الاختناق والموت، تبدأ حفلة الركل والضرب والشتائم.

حين عدت من الأسر كان كل ما أملكه جسداً ذابلاً منهكاً وروحاً متهاوية متصدعة. كان يقيني يعرض أمامي أشباحاً توقظ أسئلة حيرى.

النتيجة كانت هي الأسر؟؟.. لا حتما.. التعذيب هو النتيجة؟؟.. كلا الأسر هو السبب، أم يا ترى الحرب هي النتيجة والسبب؟.. بلا شك لو كنت أعرف، لو أني تيقنت ووجدت ما يقنعني بما حدث، لثبت إلى رشدي دون عناء واستعدت قواي الجسدية والعقلية، وامتلكت القدرة على الفتك بكومة الخواطر التي تراودني وتقض مضجعي. نعم أنا من اختار الأسر.

* * *

في ليلة ظلماء ممطرة كان الربُّ فيها غاضباً على من بنى أجسادهم من طين، وبثّ فيهم من روحه، ففلتت تلك الأرواح من بين أصابعه، لتصنع لها قدراً دون معرفة كنهه أو لأي مصير سيقودهم هذا القدر. اخترت أسري طواعية. لحد هذا الوقت أتساءل مع نفسي، ما الفرق بين الأسر والموت في الحرب؟ هل هناك تفاضل بينهما؟ من المستحيل أن يكون هناك جوابٌ مقنعا يكسر حدة هذه المعادلة البشعة واللئيمة. ما نوع النتائج في كليهما؟ هاأنذا لا أملك غير أقل من دزينة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أسنان، وبعد وقت قصير سوف يقل هذا العدد. الركلات واللكمات اقتلعت الثلث منها، والباقي نخره السوس والسجائر. أما عاهتي الأخرى فهي اليوم تسكنني ليس كوجع، بقدر ما تعني قربي من العمى الكلي. فالالتهاب أخذ يسري نحو عيني الأخرى وشح الضوء فيها، وأخذت الصور أمامي تفقد تفاصيلها ووضوحها.

لا يغادر المشهد ذاكرتي على الإطلاق. ألوكه بمرارة تمني الموت. أبداً أستحضر تلك اللحظة حين دفع رأسي بحذائه الثقيل، وبكل ما يمتلك من قدرة. غرز رأسي في حفرة من طين لزج. لم يأت لإضاعة وقته في الحديث معي. أشار لي فوضعت وجهي في الطين. شممت رائحة نتانة الطين. دفع براسي فغاص وجهي. شعرت بلسعة حادة تخترق جفن عيني المغمضة. حرقة كأنها لفحة نار كاوية. لا أدري ما الذي حدث بالضبط، ولكني رفعت جسدي بكل ما أوتيت من قدرة وصرخت. كان الدم يختلط بالطين. شعرت بتلك القطعة الخشبية الحادة، وقد اخترقت عيني وغارت داخلها. لم أعد أرى شيئاً وتلقيت بعدها ركلات عديدة مرغت جسدي في الحفرة.

كل شيء اكتمل في الأسر وعدت شبه أدرد، أعور و كليل العين الأخرى بعد أن التهب الجرح وتورم وجهي دون أن ألقي عناية خاصة.

من كان السبب في كل ما حدث؟ أنا أم هي الحرب أو الأسر الذي جازفت ودفعت نفسي لخياره، أكنت مخيراً بين الموت و

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

النجاة. الحديث عن الأسر موجع ومفزع، وأنا الآن لا أملك القدرة للبوح بكل تفاصيل ما وقع لي فيه. لأدع ذلك ليوم آخر أو لحساب آخر. لا أستطيع احتمال استحضار كل هذا أو حتى الحديث عنه، رغم أن الثرثرة حول العناء والآلام تجلب بعض الراحة مثلما يقال.

أن تختار الأسر يعني أن تختار موتاً دون حدود أو مواقيت. وحكايتي فيه، تصلح فقط للمجانين. فالمجانين وحدهم من يدرك معنى خزين العذاب الذي تعتمر به الروح. ولذا أفكر، أي سبب أو نتيجة أختار. ولذا أحجم عن سرد تفاصيل قصة الأسر، وأبدأ من لحظة خياري له. نعم أعتقد ذلك. وليس صدفة أن أبتر من حديثي مشاهد معسكرات الأسر التي تنقلت فيها. فرغبتي اليوم أن أختلي بالسبب والنتيجة سوية. أن أشبكهما تحت أضلعي، ثم أفرغهما أمامي. وقبل أن أسرد حكايتي التي لا أعرف إن كانت تستحق التدوين أم لا. فإنني أشعر بالارتباك وعسر في المحاولة. وإن كانت سنواتي المنصرمة قد ذهبت هباءً، فالمهم الآن محاولتي تدوين تلك الخديعة من الرذيلة والقسوة التي وقعت فيهما جراء خيار، حتماً لم يكن أنا من ذهب إليه طواعية، وإنما هناك من دفع بي نحوه.

لا لست صادقاً ولا حتى كاذباً ولست أنا من يقص هذه الهلوسات، ولكن عليَّ أن أدونها قبل أن أجن، فقد كنت شاهداً ومشاركاً فيها، . وأجد أن المهم وبعد أن أرويها، علي أن اقطع الشك باليقين وأمحيها من ذاكرتي نهائيا، ولن يكون ذلك حلا دون أن أختفي معها وإلى الأبد.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أخذت السماء تمطر مطراً ثقيلاً لم يسبق لـه مثيل، أرعدت، وشطر البرق بسطوعه حافة الجبل اليمنى. كنت أطالع المنظر من خلال شقوق الباب الخشبي المتهالك، فتلتقط عيني صورة الظلام الذي راحت قطرات المطر الكثيفة المتسارعة، تكسر حدته بالتماعات براقة مرتعشة إثر انعكاس ضوء الفانوس عليها. كنت مستغرقاً في النوم ولكن الرعود وصوت المطر المتساقط فوق الصفيح أيقظني، وجعلني أثب من الفراش. اعتقدت أن هذا المطر الغزير الهادر، يمكنه أن يجعل سقف الغرفة يهوي فوق رأسي. أنتظر الفجر حيث عليَّ أن أتسلّم ورقة الإجازة الدورية والعودة إلى مدينتي القريبة من بغداد. ولكن بمثل غزارة هذا المطر، من الممكن أن يُقطع الطريق الترابي المؤدي إلى الشارع الإسفلتي، الذي بدوره ينقلنا إلى مدينة خانقين. كان هذا ما يحدث عادة أثناء مواسم الأمطار. حينها تحفر السيول أخاديد عميقة تخترق السهل، فتبدو وكأنها وديان شقّها الرب منذ غابر الأزمنة. عندها يتوجّب على فصيل الهندسة أو مجموعة من جنود كتيبتنا، ومع توقف المطر، العمل على تعبيد طريق جديد من خلال طمر ألواح الخشب والصناديق والصخور، ثم يهال التراب فوقها ليهيئ. ومع غضب آخر للمطر تذهب جميع تلك الجهود سدى. في هذه الأرض لا شيء يبعث على الاطمئنان بل يبدو المكان، وقد أنبتت فيه حقول أسى وفزع وخذلان. وأنا اليوم ما عليَّ غير انتظار يوم آخر سوف يكون بطول دهر، كي أتسلمّ إجازتي الدورية.

بيت الآغا وهو شيخ المنطقة الذي هرب مع سكان القرية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بعد احتلال الجيش العراقي للسهل، اتخذناه مقراً لوحدتنا العسكرية. هذا البيت الواسع الذي يحتوي على العديد من الغرف المبنية من الطين المفخور، يقع فوق مرتفع، وشيّد أيضاً بارتفاع آخر بمقدار أكثر من مترين عن الأرض. البناء يوحي بأن الآغا كان يدرك ويتحاشى ما يتعرض له السهل من سيول جارفة في مواسم الأمطار، ففضل أن يكون بيته فوق هذا المرتفع، ومثله فعل الباقون من عشيرته، حيث تنتشر بيوتهم الطينية فوق المرتفعات القريبة والمحيطة ببيت شيخهم، ليشكلوا منها قرية تتخذ من السهل أسفل جبل باغ مكاناً.

بيت الشيخ أو مقرّ وحدتنا بعد ذلك، عبارة عن مجموعة غرف تجاور بعضها وتلتف لتحيط ممراً واسعاً وتشكل مستطيلاً يمتد لأكثر من عشرين متراً طولاً وعرضاً. تقع غرفة الضيوف أو الإيوان عند طرفه الأيسر، وهي باحّة مفتوحة تشرف مباشرة على الشارع المفضي نحو الجبل أو النازل نحو الحدود العراقية، والطريق يتشعب إلى فرعين ميسميين، أوسعهما يتجه مباشرة إلى مضيق يدعى فتحة سرتنك، تلك الفتحة الفاصلة بين جبلين عاليين. الجبل يمين الفتحة يسمى باغ ويسارها جبل سلمانان. السّهل والفتحة ومرتفعات الجبلين باتت تحت سيطرة الجيش العراقي منذ الأيام الأولى للحرب. لم يخطر في بالي ولو لمرة أن أسأل عن معاني أسمي الجبلين، بالرغم من أني تسلقتهما عشرات المرات، كجندي حماية للمؤن المرسلة إلى مراصد كتيبتنا المنتشرة فوقهما.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المهجع الذي أنام فيه كان في يومٍ ما مطبخاً لبيت الشيخ، يوحي بذلك الهباب الأسود الذي يغطي الجدران والسقف، وهناك أيضاً بقايا موقد، وقد اضطرنا هذا الوضع لاستعمال ورق الجرائد لتغطية سخام الجدران. صاحبي الذي يشاطرني السكن في هذه الغرفة الصغيرة الوسخة، ذهب منذ يومين بمأمورية إلى معمل تصليح المعدات في بعقوبة. وهذا ما يبعث القرف والوحشة في نفسي.

تنبهت لجلبة أصوات مكتومة كانت الريح تجلبها. كانت مثل رغو حيوانات أو عويل يحدث صخباً يخالط صوت المطر، فيبعث بالنفس قشعريرة. لم أكن متيقناً لولا أن الصوت بات يقترب أكثر فأكثر وكأنه يخترق الظلام ويرتطم بجدران البيت وأبوابه. خرجت متحاشياً المطر، واتجهت صوب الحرس الذي وقف متسمراً عند حافة الفناء اليسرى من شرفة الرواق المطل على الشارع. كان يحملق في الفضاء البعيد محاولاً اختراق الظلام بقدر ما يستطيع نظره. كان وكأنه يترصد عدواً شعر باقترابه. نبهته فنظر بعضنا إلى الآخر وعلامات الاستفهام تملأ وجهينا.

ـ ما الذي يحدث؟... كأني أسمع حركة في الجوار.. أتسمع مثلي صوت عويل؟

ـ بالضبط.. ولكن الظلمة والمطر يحجبان الرؤية..

ـ لعلها أصوات صادرة عن مقر مجموعة الجاش[1] وحيواناتهم.

---

[1] الجاش أو الجحوش: هم مرتزقة صدام حسين وعملائه من الأكراد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ ولكنها مثل عويل مجموعة بشر.. إذهب وأيقظ ضابط الخفر.. إنها النوبة الليلية لنائب الضابط عبد الرزاق.

ـ ما الفائدة إن لم تتحقق من الأمر جيداً.

ـ لا عليك أيقظه ليكون على اطلاع.

غدت الأصوات أكثر وضوحاً وقرباً. كانت ترتفع عويلاً يضج به الوادي، وعندما عدت بصحبة نائب الضابط عبد الرزاق، التمع البرق بحدة كاشفاً في البعيد عن جمهرة كبيرة تتقدم راجلةً فوق الطريق. اجتازت الأخدود المجاور للمقبرة جنوب مقرّ وحدتنا، ثم انعطفت متجهةً صوب الشارع الذي يصل إلينا. مجموعة كبيرة لا يحصى عددها من البعيد، ولا ترى أشكالها غير أجسام تمشي ببطء وتنوخ بأجسادها، وثمة مجموعة من الجاش يمتطون بغالهم ويسيرون أمام وخلف هذا الجمع.

ـ إنهم مهجرون إلى إيران... هكذا أعلمتنا برقية الفرقة عصر اليوم.. راقبوهم جيدا كي لا يتسرب أحد منهم.

هكذا أوجز الموقف نائب الضابط عبد الرزاق، وانسل عائداً نحو غرفته. تسمرت أرقب الحشد القادم من بعيد. عند تلك اللحظة خطر الأمر في بالي. مثل ومضة برق، بدا وكأنه حشر في دماغي وتضخم وملأ كل جوانحي. لحظات كانت، قررت بها كل شيء دون تردد. اتجهت نحو المهجع وسحبت حقيبة سفري، وأخرجت بنطالي وقميصي والجاكيت الشتائية التي أحتفظ بها لأرتديها في مدينة خانقين، حين وصولي إليها متجهاً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نحـو بغـداد. خلعـت بـذلتي العسـكرية علـى عجـل، وارتـديت ملابسي المدنيّة. لقد اتخذت قراري، ولم أراجع أية احتمالات أو توقعات من الممكن أن تعيقني وتمنعني عنه. احتشدت في قلبي لحظتها عواطف غريبة. الهرب من الموت إلى حافة المجهول هو الأهون أو الأفضل في جميع الاحتمالات. من ساعتها عرفت ما أريد أن أفعله. حسمت أمري وقررت. كل ما يأتي يهون بالمقارنة مع الموت الذي يترقـّبني ليخطفني في أي يوم أو ساعة، وسوف يكون لا مفر منه.

ليس سوى بضعة أيام وسوف أحتفل بعيد ميلادي السادس والعشرين. ها هنّ سنوات عمري الجميلة هصرتهن الحرب وقتلت أجملهن غيلة. لا ينفع الآن البكاء على ما مضى، فيكفيني ما تعرضت له وأنا أجول مع الموت كل يوم. أعذرني يا أبي فلم تدع الحرب لي خيارا أو فرصة لأكون تحت جناح حنانك، ولا أريد أن تبكيني جسداً مزقته الشظايا. لقد قررت، وإن الوقت يمضي بسرعة وما عليَّ غير اللحاق بهم. فكرتي هذه وحدها من ينتزعني من أتون الحرب. تخيلت وقتها أن أمي تنظر نحوي مشفقةً دون توسل أو ملامة. طافت صورتها في مخيلتي، فالتصقت عيناي بعينيها. لا تشغلوا بالكم فالعناية الإلهية ستتكفل بكل شيء. قبل أن ينكشف ضوء النهار أكون قد وصلت إلى ما أصبو إليه. صحيح أني مضطرب الآن، والكثير من الخوف يعتمر روحي، ولكني على يقين بأن قراري صائب، ولن أتردّد فيه مهما كانت النتائج. إنها لفرصة لا يجود بها القدر غير مرة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

زيادة في الحيطة اتجهت إلى اليمين وهبطت السلم الصغير، واختفيت تحته أرقب الحرس الآخر الموجود في الباحة الخلفية لمقر الكتيبة. لم أشاهده أو لم يكن موجوداً أصلاً. لذا سارعت أدب وئيداً تحت الدكة العالية للبناية، ثم انعطفت وجلست بالضبط تحت امتداد السقف الظاهر للفناء الخارجي للدار والمشرف على الشارع حيث تجمّع فوقه بعض أفراد الكتيبة يراقبون قدوم أعداد المهجرين. كانت الجلبة القادمة من هناك تقترب شيئاً فشيئاً، وتتصاعد أصوات العويل مع هدير ماء المطر الذي راح يضرب كل شيء، ويحفر في الأرض بقطرات ثقيلة. أرهفت السمع. لم يكونوا قد اقتربوا بعد من مقر الكتيبة. ولكن الصخب والعويل أصبح أكثر قرباً ووضوحاً. سبق جمع المهجرين بضعة بغال يمتطيها المرتزقة الجحوش. كانت المسافة بينهم والمهجرين بعيدة بعض الشيء. بعد عدة خطوات ظهر الجمع وكأنهم غمامة سوداء تتحرك في ذلك الظلام الكالح. المتقدمون منهم كانوا ثلاثة لا يتضح منهم غير كتل بشرية تسير مهدودة منكفئة تجر خطاها بتثاقل، متدلية الأيادي كأنها تحمل أطناناً من أثقال. لم أجد الفرصة سانحة للخروج والولوج بين الصفوف. ولو فعلت ذلك فإن محاولتي سوف تكتشف من قبل جنود الكتيبة الذي تجمعوا فوقي. بضعة أمتار كان عليَّ اجتيازها، ولكن تلك الخطوات ستفضح محاولتي وتفشل مشروعي بالكامل، وربما تذهب بي نحو حتفي. لذا وبسرعة قررت أن أقفز نحو الجهة الأخرى القريبة من فصيل قلم الكتيبة، الذي يبعد عن مكاني بضع خطوات، والواقع عند نهاية الطرف الأيمن لمركز المقر ويحاذي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الطريق. وفي هذه الحالة عليَّ أن أحاذر الحرس الآخر عند بناية فصيل القلم. كان الظلام دامساً تخالطه كثافة المطر التي تحجب الرؤية إلى حد ما. ولولا التماعات البرق لما وضحت أي معالم للمكان حتى القريبة مني. تقدمت نحو الجدار الجنوبي أسفل شرفة الفناء، ثم قفزت بخطوات واسعة أصبحت بعدها خلف مقرّ فصيل القلم. لم أجد حرساً هناك. الاحتمال الكبير أنه ترك موقعه وذهب مع جمهرة الجنود في المبنى المجاور. وهم الآن منشغلون في التطلع إلى الجهة الأخرى حيث يقترب حشد المهجرين. جلست متحفزاً للوثوب نحو مجموعة المهجرين حين يقتربون من المنعطف. وضعت الكوفية لأغطي بها رأسي ووجهي حذراً وتمويهاً.

اقترب جمع المهجرين من المنعطف القريب، فشعرت بحرارة تخرج من جسدي وبدأت أعضائي جميعها ترتعش. تملكني خوف حقيقي، فرحت ألعق بعجالة قطرات المطر المتساقط فوق وجهي. لحظة المجازفة لها ثمن ليس بالهيّن. وإن اكتشفني جنود الكتيبة أو الجحوش المرافقون لمجموعة المهجرين، فسوف تحل الكارثة فوق رأسي وتكون نهايتي. شعرت بأن قدميّ تغوصان في الأرض اللزجة. المكان وحشد المهجرين استوليا كلياً على تفكيري، وما عدت أفكر بشيء غير التهيؤ للوثوب وكيفية القيام بالحركة الأولى. كانوا يسيرون مثل موكب جنائزي. العجائز الثكلى تجر أجسادها الخاوية، وبضعة من فتيات مرتعشات يلتصق بعضهن ببعض خائفات مرعوبات، وهناك في الخلف تسير مجموعة من شيوخ تنوء بأجسادها. الجميع وكأنهم أنقذوا توا من غرق. أسمال

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مبتلــة تلتصــق علــى أجســادهم، وطــين الأرض كــان يثقــل خطـواتهم. ملابسـهم بـدت مثـل خـرق يغطيهـا الوحـل. وكـان نواحهم الجنائزي كمن يعاتب الربّ على فعلته في هذا الوقت. تحت التهديد ومن ثم التهجير، ترشقهم السماء دون رحمة بهذا الغضب الذي لا يرحم حتى ضعفهم وما تحملوه من مشاق.

الظـلام كـان مطبقـاً ولكنـي تفحصـت كـل شـيء مـع التمـاع البـرق وتهيـأت للتحـرك. لبرهـة تـرددت ولكـن صـرخة قويـة وجلبـة أصـوات فزعـة نبهتنـي، فقـد هـوت امـرأة مـنهم نحـو الأرض، فتكدس بعضـهم حولهـا. كـانوا بـالقرب منـي أقـل مـن متـرين. حسـمت الأمـر وقفـزت وسـط الجلبـة ورفعـت المـرأة بساعدي. تلفت نحو جميع الجوانب فلم أجد ما يثير الشبهة أو مـن لاحـظ دخـولي وسـط الحشـد، وكـذلك لـم ألحـظ دهشـة أو استغراباً أو استنكاراً مـن المحيطـين بـي. سـرت بضـعة أمتـار وعنـدما لاحظـت أن المـرأة قـد اسـتعادت بعـض قوتهـا سـحبتها متكئة علـى كتفـي. كانـت العجـوز تتشـبث برقبتـي بقـوة، وتمسـح عن وجهها ماء المطر بين فينة وأخرى.

كانـت الـريح قويـة تـدفع بحـدة زخـات المطـر لتلسـع الوجـوه والأجساد. الطريق الموحل المظلم يربك السير، ويجعل المرء يسـير وكأنـه مكبـل بـأغلال. الليـل فـي منتصـفه، وكـان لابـدّ أن نسير ساعاته المتبقيـات لنعبـر فتحـة سـرتنك بـين الجبلـين باتجـاه سـهل سـربيل زهـاب، قبـل انـبلاج نـور الصـباح. كانـت تلـك أمنيتـي، أن نصـل إلـى هنـاك قبـل أن ينكشـف ضـوء الصـباح أو يتوقف المطر، فهما ستري الذي أتخفى بهِ عن الأعين.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نواح العجائز يبعث فيّ رعشة تهز جسدي. وكنت أشعر بسخونة يد العجوز وجسدها، وكأنها مسكونة بحمى مرض مميت. ما أردت أن أتلفت كثيراً لأستطلع ما حولي كي لا أثير الشكوك، وكانت نظرة خاطفة بين حين وآخر تكفي للاطمئنان.

ندت صرخة مكتومة من شخص كان يسير في مقدمة الركب، فقد هوى جسده عند أخدود أحتفره السيل. بطأت حركة الجميع وراح البعض يستطلع الأمر. تقدمت نحو الشيخ فتاة طويلة ضخمة الجثة يفصح جسدها المشدود عن قوة وعزيمة. شدته نحوها وضمته إلى صدرها مثل رضيع وعبرت به إلى الجانب الآخر وألقت به على الأرض، وانحنت تمسح عن وجهه الوحل العالق. شاهدت وجهها مع وهج البرق، فطالعتني بعينين جاحظتين. في تلك اللحظات ارتبك الحشد عند ذلك الأخدود، وشكلنا دون أن ينبس أحدٌ بكلمة، سلاسل مترابطة تسحب بعضها لعبور هذا النهر الصغير بمياهه الجارفة المنحدرة من أعلى الجبل. شعرت بحدة ارتعاش يد العجوز التي أمسكت كفي متشبثة بوهن ظاهر، وكانت عيناها تنطان من محجريهما جاحظتين فزعتين متوسلتين. فتبدوان في هذا السواد الموحش كعيني جؤذر. ارتفع صراخ الجحوش يطلبون من الحشد الإسراع في السير. تقدم أحدهم ولكز ظهر الفتاة. فصرخت بوجهه بحدة، فدفعها بصدر دابّته لتقع فوق جسد الشيخ، ثم ترجّل وأخذ يضربها بعصاه. ساطها عدة مرات ولكنها لم تتوقف عن شتمه، فتقدم نحو الشيخ ورفعه عن الأرض، ثم دفعه إلى الأمام ليسقط على وجهه متهالكاً. اندفعت الفتاة ورفعت الشيخ وتقدمت تسير به بصمت أمام الحشد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

طلب مّنا التوقف عند نهاية فتحة الجبل حيث نقطة المراقبة للجيش. تقدم بضعة جنود كانوا عند نقطة الحراسة. تحادثوا مع الجاش في بعض شأن. طلب الجحوش من الجميع أن يتركوا ما يحملونه من متاع أو حقائب. اندفع بعضهم لتفتيش الجميع. كانوا كالكلاب المسعورة يلتقطون من الأيدي كل ما يجدونه. بعضهم راح يوقف النساء ويحاول العبث معهن بحثاً عما يحملن من بقايا حلي أو حقائب يد. إثر ذلك حدثت مشادة كلامية بينهم والجنود، وبعد هرج ومرج وصراخ وعويل تركنا الجحوش وتجمعوا خلفنا ثم طلبوا منا السير نحو الأمام ، وبدورهم نبهنا الجنود لضرورة الابتعاد عن حافتي الطريق حيث زرعت هناك حقول الألغام. انطلقنا بالمسير مرة أخرى. تيقنت عندها أنهم لم يلحظوا وجودي لذا سرت متقدماً الجميع حيث اتجهنا نحو المنحدر المفضي إلى الوادي الفسيح الذي شكل لوحة كالحة الظلام. هذا الوادي الذي ينفتح بسعته أمامنا، كنت قد تعرفت عليه سابقا يوم كنت أذهب إلى المراصد فوق الجبلين. السهل هذا المسمى سهل سربيل زهاب، يمتد نحو العمق الإيراني مثل بساط أخضر. ترقّع وجهه بعض القرى المبثوثة في منحدراته وروابيه، وهي اليوم مهجورة محترقة هرب أهلها مع بداية الحرب.

ربما لوقت قصير نستطيع بعده الوصول إلى البيوت الطينية المهدمة، وهي أقرب قرية تقع على الجانب القريب من الطريق الذي نسير عليه، ولا نحتاج غير الانتباه لحقول الألغام، فاجتيازها بسلام وهي مساحة لا تعدو غير بضع كيلومترات أو أكثر قليلاً، سنكون بعدها قد وصلنا تلك البيوت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

التي ربما تحمينا من المطر، ونجد فيها بعض راحة بعد عناء المسير كل تلك المسافة الطويلة. تقدير المسافة والاتجاه في هذا الظلام كان يتوقف على حدسي، والصورة التي رسمتها في ذهني عن السهل عبر المنظار في أبراج الرصد. وكان عليَّ استغلال لحظة البرق للاستدلال على الأماكن.

بتلك الأجساد الفانية الموهنة القوة والسيقان الناحلة الراجفة تحركنا مخترقين المنحدر نحو الوادي. كان قلبي يخفق بعنف بين ضلوعي، وأنا أشاهد بغال الجاش واقفة بعيدة ترقبنا من الخلف. صعب عليَّ أن أصدق ما حدث، ولكني تمالكت نفسي ورحت أغذ السير وكأني أهرب من تهديد مازال يتعقبني. موجات المطر تهطل مدراراً، سائطة وجهي بقوة وكأنها حصى أو عصي. سرت بسرعة وليس بهرولة خوفاً من إثارة الشكوك، ولكي أعبر مرحلة الخطر التي بعدها لن يستطيع الجنود أو الجاش اللحاق بيّ. شعرت بلسعات البرد وارتعاش جسدي. كنت أتلفت حولي متخيلاً سماع صوت يناديني باسمي كي أتوقف. بعد مسير طويل ومجهد تيقنت إثره ابتعاد شبح الموت الذي كان قريباً مني، لا بل كان يحوم حولي طيلة الوقت. اطمأنت نفسي، فجلست على الأرض وانتظرت قدوم الباقين. تمنيت اللحظة أن أقف أمام أبي وأطلب منه العفو والمغفرة، وأن أقبّل أمي التي بدا وجهها أمامي معاتباً، فغيابي سوف يجعلهم يتخلون عن الاحتفال بعيد ميلادي، ولن تكون هناك قبلات فرح بالمناسبة.

ساروا جواري ثم اجتازوني وكانوا حذرين في مسيرهم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

يتلمسون بأقدامهم الأرض الرخوة للاستدلال على الطريق خشية من وجود حفر وترع. لم يلتفت نحوي أو يهتم لوجودي أحدٌ منهم، بل كان كل همّهم السير وليس شيء أخر، وكانوا كمن يحادث نفسه ويواسيها أو يلومها، فيروح في نياح وعويل. مع التماعات البرق كنت أحاول الإمساك والتعرف على تلك الملامح التي تغضنت جلودها وغارت وغامت فيها العيون.

تنبهت لتلك الفتاة الضخمة الجثة وهي مازالت تحمل جسد الشيخ وتسير ببطء خلف الجميع. راقبتها وهي تجتازني. كان رأس الشيخ يتدلى ويميل إلى الخلف وقدماه تتدليان وتتأرجحان. شككت بوضعه، فنهضت وتقدمت نحوها. كانت عيناها ساهمتين تنظران ببلاهة نحو الأمام. أوقفتها وأخذت منها جسد الشيخ. كان جسده متيبساً بارداً وعيناه مفتوحتين مبيضتين. وضعته على الأرض. كان فمه قد اعوج وخرج منه سائل لم أميز لونه. وقفت الفتاة بعيداً ترقبني، وكانت مثل شجرة سدر ضخمة متيبسة، تتهيب الاقتراب خوفاً من أن تفاجأ بالحقيقة. في تلك اللحظة اعتقدت أن تلك الفتاة ليست من المهجرين وربما هي مثلي هاربة من وضع آخر لدوافع خاصة. شعرت بذلك، فقد وجدتها معزولة مهدودة القوة ووحيدة بالمطلق، وكان الجميع يمضي بعيداً وكأنهم يحملون أطناناً من البؤس والعذاب لا تطيق حملها أقوى الأجساد، وأنهم مع كثرة ما تعرضوا له من فواجع وموت يومي لم يبق لهم في أرواحهم عادات الناس الأسوياء حين يفجع أصدقاؤهم أو أقاربهم. أغلقت عيني الرجل وأشرت إلى الفتاة أن تبتعد وتستمر في السير. تلفتت يميناً ويساراً، ثم استدارت وراحت تغذ السير بعد أن قلت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لها سوف أعتني به فلا تتعبي تفكيرك. بعد أن تيقنت من موت الرجل حملته على كتفي وسرت به بعجالة، ورفعت صوتي موجهاً الجميع للسير نحو جهة اليسار، هناك حيث توجد البيوت الطينية لعلنا نجد فيها ملاذاً. ثم طلبت منهم أن ينتظروا ويتبعوني لأدلهم على الطريق، وحذرتهم من أن يحيدوا عنه لوجود حقول الألغام على جانبيه. واصلت السير كابتاً رغبة عارمة في الحديث مع أحد ما، لم أكن أرى منهم غير أجساد تتحرك خلفي ببطء. صرخات ألمهم تسمع كدوي طبول، وأشعر بعيونهم ترقبني لا بل تلسع ظهري. أصواتهم ما زالت تدوي. تنعي ملْء الحناجر. وأظل أنصت لها لتترسب في الروح فجيعة تتلوى في داخلي كجمر متقد. فكرت أن أتوقف، وأخبر الفتاة بموت شيخها، ولكن وجدتني أبعد عن ذهني مثل هذا التفكير، وأتركه لحين انبلاج الفجر حيث عليها أن تواجه الحقيقة. وعن أي شيء أحدث الآخرين، وهم على هذه الحال، يسيرون مثل المخدرين يهدهم التعب والجوع، لا يسمع منهم غير زفرة أو عويل. أنا وحدي حامل سري الذي حتى وإن اكتشفوه فهم حتماً غير معنيين به. تقدمت مسرعاً أحمل جسد الشيخ الهزيل الخاوي والبارز العظام من تحت جلده المغضن.

أيه أيها الشيخ، أتراك تحدثني بصمتك. ما الذي تريد قوله بعد أن أُزهقت روحك في هذه البرية. ألا حدثتني عن تلك الليلة التي خطفك بها الذئاب ودفعوك إلى حتفك هذا. لقد وضعك القدر في طريقي ومثل ذلك فعله معي، ووضعني بين حشدكم، أحمل الآن جسدك سوية مع خوفي وأملي. كان جدي مثلك دقيق العود خاويه، يثقل عليه أن يرفعني ويضعني في حضنه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وأنا ابن الرابعة، يروح يداعب ويشم شعري، أشعر بحرارة أنفاسه، أنت لا تفعل مثلما كان يفعله جدي. جسدك بارد جداً. كان جدي يفرك أصابعي الطرية أيام البرد. كنت ألثغ بحرف الراء فيلح عليّ أن أكرّر لفظه. لا أدري إن كان يتلذذ ويفرح بسماع ذلك، أم تراه يريد أن يقوّم لساني. أكان لك حفيد مثلي، وكنت أنت جداً له تلاعبه وتواده. ما الذي سوف يقولونه، بعد أن أغمضت عين جدهم في هذه الوحشة بعد مسيرة العذاب. جدي علمني في الخامسة عد الأرقام. يجلس معي وسط الغرفة قرب المدفئة، ويرمي فوق سجادة صلاته قطع الميكانو البلاستيكية ويختار منها الأرقام ثم يأخذ ببعثرتها. ما كنت أترك له أن يعبث بأحجاري البلاستيكية، أعانده ويعاندني. ولكنه يغريني بقطعة حلوى، ويدعوني أن أرتب الأرقام بشكلها الصحيح ليمنحني قطعة أخرى. أكان لأحفادك مثل تلك اللعب، أكانوا يعاندونك، هل منحتهم قطعة حلوى؟ أم أنّ القدر لم يمنحك مثل هذه الفرصة؟ أكانت قلوبهم المجللة بالفرح والأمل تستهويك لتلعب معهم؟

كان يصعب عليّ أن أحفظ الرقم ستة، وكان ذلك في سنتي الخامسة، أعد الأرقام وأهمل أو أغفل الرقم ستة. عمري الصغير لا يدعه يلتصق بذهني، وعندما أسهو عن ذكره يطلق جدي ضحكته الخفيضة ويكرر.. أيها الملعون أين رميت رقم ستة؟ متى تتعلم هذا الرقم؟ وقد ذهبت كل جهوده سدى، لحين دخولي المدرسة التي علمني فيها أستاذ جبار الحضري الخوف وعد الأرقام بترتيب دقيق لا شائبة فيه. وكان جدّي حين عودتي يضمني إلى صدره ويطلب مني ذات الشيء ويقول ليّ.. شاطر سبع.. سوف تكبر وتصبح طياراً.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ما الذي دفعني لأحمل جثتك اليوم؟ كل ذلك الذي حدثتك عنه، أم أريد أن أتستر بجسدك.. كان مثلك ساكناً هادئاً، وجدته يحملق بي بعين يابسة. كنت في سنتي الثامنة طلبت منه أن يستيقظ ليصاحبني إلى المدرسة. حركت قدمه وهززتها، دفعت يده ورفعتها فسقطت ثقيلة، همدت جواره. جلده كان بارداً مثلما أنت عليه الآن. كان هناك من يبكيه بدموع حرى، ما عداي، فما كان وعيي يتيح ليّ معرفة معنى الموت مثلما عرفته بعد حين، وبالذات عند جبهات القتال. ولكن أنت، ما بكاك أحد، ولم يهتم بك غيري في تلك الوهدة والظلمة الموحشة. حتى تلك الفتاة كانت مسكونةً بالرعب، تخاف وتهرب من معرفة حقيقتك الجافة، وتتهيب أبدية إغفاءتك، كي لا توقظ الفزع في صدرها المشحون بكومة من عذاب، يكفيها ذخراً لسنوات قادمة. ما رأيت دموعها بقدر ما شاهدت رعبها ينفجر مع سطوع البرق. سوف نصل وترقد أنت هنا وحيداً مطمئناً تواسيك وتؤنسك أو تفزعك أصوات القنابل ونقرات الطيور، وتنمو فوق مثواك سلال من حشائش البراري. وتمر المواسم وحتى الدهور وتعاود الحياة طبيعتها جوارك. تسمع أصوات قهقهاتهم، بقربك، خلفك أو أمامك تدور صرخاتهم، وهم يلعبون متناسين أنك رقدت غريباً في أرضهم، وقد تفتت جسدك الواهن، ومعك تفتت أعوام لا بل قرون بُذلت فيها وبسخاء مفرط ووحشي أرواح دون حساب.

ـ ما تبقى من الطريق للوصول إلى الجانب الإيراني طويل جداً، دعونا نريح أنفسنا عند تلك الخرائب ثم ننطلق في السير عند انبلاج الصباح.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

رفعت صوتي منادياً ثم استدرت متوجهاً صوب المرتفع الذي تقع عنده تلك البنايات الطينية المهدمة. استداروا وتبعوني. كانت الريح العاصفة والمطر الكثيف يلهب الأجساد بسياطه، والرعود تصك الأسماع، وتتهشم البروق عند حواف الجبال. نظرت نحوهم، كانوا يجاهدون في سيرهم، ثقال أنهكهم التعب. سقط بعضهم ثم نهض. آخرون مدّوا أجسادهم فوق الأرض الحجرية. لم أحتمل الانتظار ومواصلة النظر إليهم، لذا جرجرت قدميّ، واتجهت أسبقهم إلى أن وصلت الخربة القريبة وهي أولى البنايات فوق حافة المرتفع. كانت مهدمة بالكامل. طرحت جسد الشيخ أمام بابها. انتابني شيء من الغثيان وأنا أشاهد جسده المسجى وتلك الكهولة الجافة المزرقة وضعف البدن المفزع. ولكن ما عليَّ أن أفعله الآن وأنا في ورطة لم تنفرج بعد، وخوفي أكبر من أن يطمئنه وجودي في هذا المكان. لذا عفته هناك و توجهت إلى الخربة الأخرى، فوجدت سقفها وقد هد بالكامل. رحت أبحث في البيوت الأخرى إلى أن عثرت على غرفة واسعة كان سقفها قد تهدلّ نصفه، وأطبق على الأرض تاركاً فراغاً يصلح كستر عن المطر. ناديت على من تقدم منهم وطلبت أن يحتموا هناك. تجمعوا والتصق بعضهم ببعض. ذهب الباقون يبحثون عن أماكن يحتمون بها، ورجعت أنا وجلبت الجثة، ووضعتها فوق السقف المنهار خوفاً من أن تأكلها الحيوانات البرية التي تجوب المكان ليلاً.

ليس بعيداً عن الباب كانت هناك كومة قش طمرت تحت جدار مهدود، أزلت وجهها محاولاً العثور على الجاف منها، في النهاية وجدت الشيء القليل فجلبته إلى الداخل، ثم رجعت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أبحث عن حطب أو خشب أستعين به لإشعال موقد من النار ننال منه بعض دفء. جمعت ما وجدته وبدأت العمل. بعد جهد طويل استطعت أن أشاهد وهج النار وهي تلتهم التبن، فرحت أنفخ به ليتسرب إلى باقي الأخشاب. بدأت النار تتصاعد شيئاً فشيئاً، فشعرت بالحرارة تضرب وجهي، والدفء يدب في أصابعي. اقترب بعضهم وتحلقوا حول النار. على ضوئها طالعت وجوههم، فكانت جميع العيون تتجه صوبي تتفحصني. لم ينبس أحدنا بكلمة، كان الصمت يجول مع النظرات الفزعة المتسائلة. أين نحن؟ من أنت؟ إلى أين نحن سائرون؟ متى نخرج من هذا المكان؟ ربما هي تلك الأسئلة لا غيرها تعتمر بها أرواحهم ويريدون مني الإجابة عليها. ولكن بم أجيبهم وكيف أفسر الموقف. أأقص عليهم حكايتي أم الصمت أجدى. لأدعهم في حيرتهم، فربما طمأنهم وجودي بينهم أو اكتفوا بما شاهدوه ونالوه مني.

فجأة سمعت حفيف الهواء وصوت القنبلة وهي تخترقه لتسقط قريبة من المكان. قدرت أنها سقطت خارج البيوت عند نهاية المرتفع، بعيدة بعض الشيء. تيقنت أن الراصد سوف يصحح إحداثيات الهدف ليرشقنا بدفعة جديدة من قذائف المدفعية. انتظرت حدوث هذا. ومثلما توقعت سقطت قنبلة أخرى، ولكنها كانت بعيدة أيضاً مثل سابقتها، ثم مرّت دقائق معدودات دون أن يتكرر الرمي، وطغى هدير المطر وصوت الرعد على كل شيء.

ـ ربما يكون ضوء النار والدخان هو من يدلهم على مكاننا. من المناسب أن نطفئ النار.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قلت ذلك وجلت نظري بين وجوههم الشاحبة اليائسة.

ـ دعهم يفعلون ذلك، فما عاد للحياة من معنى يا ولدي. لقد سلبونا كل شيء وطردونا من بيوتنا، فهل بعد ذلك تستحق الحياة أن تعاش؟

صمت وأنا أنصت لتلك العجوز ذات العيون الكابية وهي تلوك جملتها المفزعة، وتعلن طلاقها التام مع الحياة. وكنت حينها أرهف السمع لأتسقط صوت القنابل إن عاود المدفع وكرر الرمي. ولكن كل شيء بدا وكأنّ الأمر انتهى مع تلك القنبلتين.

* * *

كان السهل يمتد طويلاً أخضراً مقفراً، عدا تلك القرى المهجورة المتناثرة البعيدة. جلت نظري في جميع اتجاهاته، فكانت نهاياته تتلاشى شيئاً فشيئاً وسط ضباب أبيض تدفع به سخونة الأرض بعد أن توقف المطر عن الهطول. كانت الأصوات الباكية مازالت تتردد موجوعة مستفزة تثقب الرأس، وتبعث في الروح كدراً ويأساً مفرطاً. استدرت ناظراً نحو باب الخربة، كانت تقف هناك امرأة صغيرة الحجم متشحة بالسواد تطالعني بفضول وحذر، سألتها إن كانت بحاجة لمساعدة، لكنها أشاحت وجهها واستدارت لتدخل الغرفة. فكرت بجسد الشيخ المسجى وما عليّ أن أفعله. مهمة شاقة في هذا الوضع المأزوم والجو المكفهّر. أكان عليَّ الاستمرار معهم لحين الوصول إلى سواتر الجيش الإيراني أم من الأفضل وبعد أن بدأ الضياء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأول يكللّ سنام الجبل من الجهة الشرقية، أن أسير وحدي إلى هناك، وأدعهم يستدلون على الطريق بعد أن أعرفهم عليه. من الجائز أن القدر وحده من دفعني لأكون لهؤلاء دليلاً ليل البارحة. فمسيرهم في ظلمة الليل كان من الجائز أن يدخلهم وسط حقول الألغام أو يتجهون نحو فصيل الحجاب، وهناك يقع لهم ما هو محذور. ليس من الأخلاق أن أدعهم يتخبطون في تلك الوهاد. نظرت نحو جسد العجوز المسجى منذ البارحة فوق سقف الغرفة المائل. أردت أن تحضر الفتاة وأحدثها بالأمر وتلقي عليه نظرة الوداع. دخلت إلى هناك وجدت الجميع متراصين لبعض، فبدوا لي مثل كومة ملابس رثة حائلة الألوان. أشرت نحو الفتاة داعياً إياها للمجيء لأحدثها بما وقع. تقدمت مني ولكنها وقفت بعيداً بعض الشيء، كما لو أن غريزة الخوف قد حددت لها المسافة. كان وجهها حاداً غليظاً ولكن بمسحة جمال ظاهر، شعرها المنفوش الأشيب قد تلطخ بالوحل. عند انكشاف ضوء الصباح الأول رأيت وجهها المكلل بالحزن. قوية صلبة العود، عيناها الداكنتان كانتا تحملقان بي، مستني رعشة حين نظرت بهما. شاهدت وجهها بتلك الطلة البهية رغم كدره وفزعه، وشعرها الأشعث الأشيب. اقتربت مني وشكرتني بصوت خافت ناعم. وددت لحظتها أن أسألها عن اسمها ولكن لساني انعقد خجلاً وعزفت أيضاً عن رغبتي في معرفة علاقتها بالشيخ المتوفى. كانت تعصر كفيها ببعضهما وعيناي مثبتتان عليها، أتملى قوامها المشدود وصدري يصدر زفرة قوية.

ها هي زهرة شبابها تذهب إلى المجهول وربما تذوي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هنـاك.. كـم مـن الأعـوام اغتصـبت منهـا عنـوة؟.. تـرى أهـي متزوجـة؟.. أكـان لـديها أطفـال؟ هل زينـت جيدها بالقلائد مثل باقي النساء السعيدات. لـم تعافهـا عينـاي وهـي تسير أمـامي فـي هذا الصباح. وددت أن أقتـرب منهـا لنتجـاذب الحـديث، ولكنهـا كانت تسير وسط الجمع بخطوات وئيدة مكدودة محزونة، وكـأن أحداً ما يقودها إلـى حيث لا تـدري. وجهها لا يفـارقني، ملامـح الفزع في عينيها لا تغـادر خـاطري. حين أخبرتـها بوفـاة الشيخ لم تحـاول الاقتـراب منـه للتحقق من الأمـر، مـرت فتـرة طويلـة كانت فيها جامدة مكانهـا وعيناهـا مثبتتـان علـى وجهـي، قبـل أن تنهار وتروح في نوبة متشنجة من بكاء مر.

ـ الشيخ توفاه الله منذ ليل البارحة والمسافة إلى موقع الجيش الإيراني طويلة جداً، لذا علينـا أو الأحـرى عليك أن تقرري مـا نحن فاعلوه مع الجسد الراقد فوق السقف.

جالت نظراتها أركان المكان وكأنها تبحث عنه غير مصدقة حديثي. قلت لها صدقيني لقد وضـعت جسده هنـاك. أشـرت لهـا نحـو المكـان لكنهـا لـم تلتفـت، وبحركـة سـريعة لطمـت وجههـا، وجلسـت علـى الأرض وراحـت فـي نوبـة بكـاء حـاد. خرجـت النسوة وتحلقن حولها نائحات لاطمات، لقد سمعن حديثي، كنـت متيقناً من ذلك، لـذا دخلـت الغرفـة وطلبـت مـن أحـد الشيوخ أن يوافيني لندفن الجثة. تبعني بهدوء وتثاقل ووقـف جـواري ينظـر إلـى النسـاء. كـان كهـلاً يبـدو فـي السـبعين مـن العمـر وقامتـه الطويلة الضخمة بعض الشـيء لا تتوافق وصـغر رأسـه. ذهبنـا سوية نبحث عن مكـان مناسـب نـواري بـه الجسد. وجدنا خلـف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الغرفة ما يشبه الملجأ الشقي، وكان حفرة مهملة ممتلئة بالماء غطت الحشائش وجهها. فأشار علي الكهل بأنه المكان المناسب، فسألته كيف يتسنى لنا إخراج الماء، لم يحر جواباً واقترح أن نذهب ونفتش في الخرائب لعلنا نجد ما يساعدنا على ذلك. تركته يذهب نحو مجموعة النساء وأنا اتجهت باحثاً في الغرف الأخرى. عند الطرف الأيسر من المرتفع وجدت مجموعة قدور، فأخذت أحدها مع غطائه وعدت إلى هناك. حين شاهدني راجعاً قال إنها فكرة جيدة يا ولدي. أخذت أفرّغ الحفرة من الماء، وبعد أن أكملت المهمة دعوته ليجلب الجثة. فامتنع وقال افعل أنت ذلك فلا طاقة لي عليه. ضجت النسوة بالنواح حين رفعت جسد الشيخ المتيبس وحملته متوجهاً به حيث الحفرة. لم تعترض الفتاة طريقي وكنت أنظر نحوها وأنا أرفع جسد الشيخ، وجدتها مطرقة نائحة تضم وجهها بين كفيها. العجائز وباقي الشيوخ والنساء تجمعوا وساروا ورائي صامتين وكأنهم قد اقتنعوا بما نالهم من فاجعة موت أحد شيوخهم. كان جسدي يرتعش وكأني أصبت تلك اللحظة بالحمى. فللمرة الأولى أدفع بجسد ميت لأواريه التراب، البارحة حدثته طويلاً ولم أكن مقتنعاً بتلك النهاية، حدثته وكنت أرطن خوفي وفجيعتي. أثرثر لأطمئن روحي وروحه، واليوم أسحبه لأولجه في صمته الأبدي. أيّ قدر قادني لهذه الصحبة وتلك الساعات؟

وقفت عند الحفرة، فوجدت الشيخ وقد جمع كومة من حشائش وتبن ووضعها في اللحد، فنظرت إليه بعين الرضا والعرفان. وضعت الجسد هناك وألقيت عليه نظرة الوداع. وقبل أن أهيل التراب فاجأني الشيخ بسؤال أربكني.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ أتعرف يا ولدي أين اتجاه القبلة؟

ـ عذرا يا عمي لا أعرفها.

ـ أين نحن الآن.. في الأراضي الإيرانية أم العراقية؟

ـ نحن في سهل سربيل زهاب الإيراني.

ـ حسناً.. وفي أي اتجاه يقع العراق؟

أشرت له نحو جهة الغرب، وأخبرته أن إيران هي جهة الشرق وتلك جهة الشمال من المكان هذا. عند ذلك طلب مني أن أدير الجسد إلى الجهة الأخرى ليستقبل الرأس جهة الجنوب، وهي جهة القبلة مثلما عرفت. ففعلت ذلك. ثم أهلت عليه التراب بواسطة غطاء القدر. أنجزت العملية، وتوجهت نحو الجمع وأخبرتهم بأن علينا التحرك والابتعاد عن المكان.

الضباب الكثيف يحجب الأفق المترامي، وسحب رمادية كثيفة تمخر السماء مثل كتل من جبال تدفعها الريح واحدة إثر الأخرى. ينبلج في البعيد من بين ثنايا المرتفعات ضياء فضي باهت يعلن عن صباح جديد، مازالت الشمس فيه لم تخلع رداءها بالكامل. شعرت بفيض سعادة ونحن نبتعد عن المكان ونتوغل في السهل الأخضر، وسيقاننا ترتطم بالحشائش العالية الكثيفة المنداة بماء المطر، وضوع عطر فواح يتصاعد من الأرض الرطبة. اللون الأخضر الداكن يمتد أمامنا مثل بساط. ونداوة الصباح المنعشة بعد أن توقف المطر، تبعث في النفس نشوة طرية. ولكن الإحساس بالسعادة يخالطه كدر، الخلاص من الخوف يشوبه الكرب. فالمجهول والسير نحوه يكفي أن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يكـون مبعثـاً للقلـق والتهيـب. لـذا أشـعر بـأن سـعادتي مثلومـة ومشوشة.

هـا هـو أخـدود عـريض عميـق نحتـه السيل، يقطـع الطريـق ويعتـرض مسيرتنا. صـوت الميـاه الهـادر يبعث القشـعريرة فـي الجسد. لـيس لقدرة الشـباب مكْـنة علـى عبـور الأخـدود لسـعته وشدة انـدفاع المـاء فيـه، فمـن أيـن لهذه الأجسـاد الواهنـة القدرة علـى اجتيـازه والوصـول إلـى الجانـب الآخـر. كنـت فـي حيـرة أطالع الوجوه التي راحت بدورها تنظر نحـوي وكأنهـا تناشـدني حلاً. اتجهت جهة اليمين وسرت بمحاذاة هذا العائق المائي بحثاً عن جزء ضـيق يمكننـا عبـوره إلـى الجهـة الأخـرى. سـرت مـا يقـارب الثلاثـين متـراً دون أن أعثـر علـى مـا يسـعف الموقـف، وكانت مجموعة منهم قد لحقت بـيَّ دون أن يسـألني أحـدهم عـن وجهتي. تقدمت فـي مسيري أكثـر وأكثـر دون أن أحصـل علـى مبتغـاي. انحـرف مجـرى المـاء فـي التـواءات متعـددة. مشـيت متتبعـاً انكسـاراته، فوصـلت حيـث تسـقط الميـاه فـي تجويـف أرضـي عميق، ثم تخرج منه نحو نهر صغير أخر، وبـدا لـي أن الحفرة هذه تعمل علـى كبح قوة الميـاه، وأنّ الميـاه تخـرج منهـا أقل صخباً وعنفواناً، هادئة تنساب في سـاقية ليسـت بالعريضـة، وعلى بعد مسافة قريبة تعترض الماء صخرة كبيـرة ترتفـع عـن الأرض كأنهـا رأس جبـل مغمـور. كانـت الصـخرة تـروض صـخب المـاء وتجعلـه ينسـاب هادئـاً ودوداً، وخلـف الصـخرة وجدت ضالتي حيث يضيق النهر بمسافة أقل من نصـف المتـر وهــي مســافة تكفــي المــرء للعبــور. لوّحنــا للبــاقين وطلبنــا حضـورهم. عبـرت الأخـدود الصـغير وتوجهـت عائـداً صـوب الشارع الرئيسي المتجه نحو الجانب الإيراني.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الفجر يتشبث بأذرعه متسلقاً سفوح المرتفعات. الحمرة الشفيفة تخالطها صفرة ينتعش لها الصباح، فجاءت معها نسائم طرية وأصوات طيور ترف بأجنحتها في السماء الواسعة، وتطلق أصواتها التي راحت تتردد حولنا. سرب كثيف من زرازير اخترق الضباب وانبلج من وسطه مثل غمامة سوداء، راح يدور ويدور، ثم حطّ بعيداً، هبط نحو البساط الأخضر وصوت حفيف أجنحته مثل طنين نحل.

لحد الآن ليس هناك قصف لمدافع، ولا يسمع سوى إطلاق رصاص متفرق تأتي أصواته من بعيد مع حفيف الهواء، ولكنه غير ذات أهمية أو مبعثا للقلق. صوت أقدامنا وأحذيتنا المحتكة بالحصى، وخرير المياه المنسابة من المرتفعات وحدهما ما يتردد حولنا. وكانت عيناي ترقبان الأفق الشرقي حيث الجانب الإيراني خوفاً من أن يلتبس عليهم أمرنا، ويبدؤون الرماية اتجاهنا. اتسعت المسافة بيني وبين الآخرين وما كانت عندي تلك اللحظة رغبة في انتظارهم. المسافة التي قطعناها أبعدتنا كثيراً عن سواتر الجيش العراقي وأصبحنا قريباً من الجانب الإيراني. استدرت فوجدت البعض وقد اتجه في سيره نحو أولى القرى الخربة التي صادفناها في طريقنا، واستمر الباقون اللحاق بي. ما أردت أن أصل وحدي إلى هناك ولكن سيرهم المتثاقل كان يقيدني ويجعلني في حيرة من أمري، فأنا دليلهم ورغبت أن يصلوا دون أن يطالهم مكروه، فأرض السهل ممكن أن يخطأ المرء في منحدراتها، ليجد نفسه وسط حقل ألغام. ولكن وصولي قبلهم وإخبار الجانب الإيرانيّ عنهم ربما يساعد في إنقاذهم مما هم عليه الآن. تلك الساعة كان فكري

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

مشوشاً، وشعرت بالحيرة في اتخاذ القرار. ولكن في النهاية حسمت أمري، وبدأت أغذ السير لأصل إلى الساتر الإيراني. حصرت تفكيري في إخبار الجنود الإيرانيين عن وضع هؤلاء المهجرين لعلّهم يجدون وسيلة، ويسرعون في تقديم المساعدة.

بدأ قرص الشمس يرتفع رويداً لتنسكب أشعته الصفراء، وتغطي السهل الأخضر وتبعث حرارتها بعض الدفء. خطواتي الواسعة السريعة صار جسدي معها ينز عرقاً. لم ألتفت ورائي فما عدت بحاجة لمرافقتهم أو حثهم على السير، وأعتقد بأنهم كانوا يشاهدونني جيداً ويسيرون بذات الطريق.

ظهرت لي أولى ملامح السواتر الترابية الإيرانية حيث تبدو فوقها بعض نقاط مراقبة. أخذت أبطأ في مشيي، وفكرت بحاجتي إلى ما يدفع عني ظنونهم ويجعلهم يعزفون عن توجيه إطلاقات بنادقهم نحوي. عجزت عن إيجاد ما أريده، فأنا لا أرتدي فانيلة بيضاء وقميصي ليس كذلك، وعليَّ أن أجد وسيلة تجعلني أصل إليهم بسلام فرحت ألوّح بالكوفية بالرغم من أنها كانت كحلية مائلة للسواد. أيضا رفع اليدين إلى أعلى ممكن أن يعني لهم رغبة بالاستسلام. صعدت المنحدر نحو أعلى التل، ثم اقتربت من الساتر الترابي رافعاً يدي. كانت هناك فتحة في جهته اليمنى اتجهت نحوها. لم يظهر لي أيّ شخص ولم أسمع صوتاً يدعوني للتوقف. اقتربت محاذياً الساتر، ثم وصلت الفتحة فوجدت هناك مجموعة من جنود يصوبون بنادقهم نحوي. تقدم أحدهم ولفّ ذراعيه حولي بقوة، وتقدم آخر يتفحص جسدي ويستخرج ما في الجيوب، ثم انتزع مني قرص

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الهوية. تكلم أحدهم بلغة عربية سليمة سائلاً عن سبب قدومي، فأخبرته رغبتي باللجوء إليهم، وحدثته عن وجود مجموعة كبيرة في السهل قريباً من هنا، هم مهجرون من العراق. أخذوني إلى أحد الملاجئ وقدموا لي الماء وبعض الطعام. شعرت ببعض الدفء والطمأنينة، وكان الحارس الواقف أمام باب الملجأ ينظر نحوي بابتسامة ودودة، ويكلمني بلغة فهمت منها أنه يرحب بي. مضى وقت ليس بالقصير دون أن يستدعيني أو يحدثني أحد. وبين فينة وأخرى كنت أحصل على ابتسامة من الحارس. لم أفكر بالخروج كي لا أخرق أوامرهم وأثير التوجس. سمعت أصوات لغط وصراخ في الساحة أمام الملجأ، تقدمت نحو الباب لمشاهدة ما يحدث فوجدت الجنود يهرولون، وكانت هناك قرب الساتر مجموعة من المهاجرين قد وصلت، فراحت الأيادي تتلقفهم وتقدم لهم العون وتدثرهم بالملابس والأغطية. جيء ببعض الرجال ووضعوهم معي في الملجأ. مظهرهم يوحي بأنهم قد تجاوزوا سنوات الستين من العمر، كنت قد شاهدتهم صباح هذا اليوم حينما كانوا يسيرون جواري، ولكني لم ألحظ وقتها مقدار الهمّ والكدر الذي يوشم وجوههم، وبدو وكأنهم خائفون من وضعهم الجديد. أتوا لهم بوجبة طعام، فراحوا يلتهمونها بشراهة وعجالة. تبادلنا النظرات دون أن ينبس أحدنا بكلمة. كنا جميعاً نحاول إمساك اللحظة، والتيقن من وجودنا في وضع يتوفر لنا فيه شيء من الأمان. بادرني أحدهم بالحديث سائلاً عن سبب مجيئي معهم، فأخبرته السبب بجملة مقتضبة، فلم يعلق بغير كلمة واحده قائلاً: حقك ابني. وكأنه مس في روحي وتراً، شعرت بشيء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

من الراحة والعرفان، وكنت في حاجة ماسة للحصول عليها في مثل وضعي هذا، وتمنيت لحظتها لو أني سمعتها من فم أبي. لم يحدثني الآخرون وإنما راحوا يتحدثون بلغتهم الكردية المليئة بالمفردات العربية. عرفت منها أنهم يتساءلون عن مصير أشخاص تركوهم هناك في العراق بعد أن احتجزتهم السلطة العراقية أو ربما هجرتهم من أماكن أخرى. سهمت متأملاً حالهم المُزري ولم أستطع استيعاب الذي حدث لهم، أو أن مثل هذا لا طاقة لي عليه في ذلك الوقت، ففضلت عدم زج نفسي وإثارة الموضوع والسؤال حوله، بالرغم من معرفتي أن حديث الشجون ربما يفتح بيننا باباً للألفة والتعارف.

لم أحسب مقدار الزمن الذي مضى حين دخل أحدهم ليطلب مني مرافقته. تبعته نحو الخارج. كان الوقت على ما يبدو منتصف النهار، والسماء شاحبة تسمح لبعض أشعة الشمس بالتسلل. هناك بضعة جنود يجلسون متحلقين حول صفيحة أوقدت بها النار، وأسلحتهم طرحت جوارهم. الجميع طالعني حين وصلت وسط الفسحة القريبة منهم. اثنان أو ثلاثة منهم لوحوا لي بأياديهم كمن يحييني، فأجبتهم بذات الحركة. اقتربنا ومرافقي من باب ملجأ محصن لا يظهر منه سوى الباب وكوة صغيرة في جهته اليمنى، وثمة ثلاثة مجسات هوائية قصيرة ترتفع عند جهته الخلفية. أدركت أنه أحد مراكز القيادة لهذه الوحدة العسكرية. فالتحصينات حوله جيدة. تلتف أكياس الرمل لتحيط به بارتفاع يقارب المترين، بالرغم من أن الملجأ قد استوى سطحه مع الأرض، ويختفي خلف ساتر ترابي مرتفع. تقدم مرافقي وتبعته، هبطنا سلماً بعدة درجات ووقفنا أمام باب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

داخلي، طرق مرافقي عليه طرقاً خفيفاً فجاء صوت ضعيف من الداخل، فدفع الباب وانزوى جانباً ليفسح المجال لدخولي. الملجأ واسع ومنظم ومضاء إضاءةً حسنة. كان هناك عسكريان يجلسان قرب منضدة عريضة وضع فوقها جهاز لاسلكي وعدة هواتف وأوراق مبعثرة، وعلى الجدران علّقت عدة خرائط وصورة كبيرة للسيّد الخميني. أحد الرجلان كان ملتحياً يحمل رتبة عسكرية فوق كتفيه لم أشاهد مثلها أو أتعرف عليها سابقاً. كان شاحب الوجه، ذا عينين واسعتين وحاجبين كثين معقودين وكأنهما جناحي غراب محلّق. والآخر كان يرتدي بزة عسكرية بدا عليها الإهمال، ضعيف البنية تبرز عظام وجنتيه بشكل دقيق، وعيناه تغوران في محجريهما تحيطهما دكنة رمادية.

حييتهم رافعاً يدي بما يشبه التحية العسكرية، فلم تلتقط أذناي أي كلمة، ولم ألحظ سوى عيونهم تنظر نحوي بلا مبالاة. وند ما يشبه التأوه من الرجل العسكري الملتحي، ثم راح يتحدث بالفارسية وكان الآخر يصغي له بانتباه شديد. انبعث صوت وشوشة مخنوق من جهاز اللاسلكي، فمد الملتحي يده وأخذ السماعتين ووضعهما فوق أذنيه، وأخذ يتكلم مع الطرف الآخر، ثم بدأ ينظر نحوي ويجيب باختصار بكلمة واحدة مع حركة خفيفة من الرأس. وضع السماعة جانباً وتحدث إلى الرجل الآخر، الذي طلب مني الجلوس على الكرسي القريب، ثم بدأت الأسئلة. فرويت لهم ما حدث وسبب هروبي ومجيئي إليهم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ وما اسمك الحقيقي؟.

ـ زياد عبد الملك عبد الرحمن.

ـ هذا اسمك في قرص الدلالة، ولكن اسمك في الهوية مدون زياد عبد الملك الناصر. ما الذي يعنيه هذا الاختلاف؟

ـ الهوية صادرة عن معهد التكنولوجيا الذي تخرجت منه وهي جهة مدنية، وأنا أحتفظ بها دائماً في ملابسي المدنية التي أرتديها أثناء ذهابي في الإجازات الدورية.

ـ وأسمك في القرص غير هذا.

ـ القرص. قرص دلالة في خدمتي العسكرية.

ـ نحن نعرف جيداً أن خريجي المعاهد والكليات يصبحون ضباطاً حين يساقون إلى الخدمة العسكرية في العراق، وأنت تقول الآن أنك جندي عادي. أليس هذا غريباً؟

ـ رتبتي مثبتة في قرص الدلالة.

ـ أترك قرص الدلالة وأجب على سؤالي.

ـ السبب عيني اليمنى.

ـ ما بها؟

ـ قصر نظر حاد.

ـ لنترك هذا الآن.. أتستطيع أن تخبرنا كم من السنوات عملت في جهاز الاستخبارات العسكرية؟

وقع سؤاله كالصاعقة، وشعرت بأن الدم يصعد نحو راسي،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وبدأ صدري يضيق وأنفاسي تتقطع ومرارة وجفاف يملآن فمي.

ـ ماذا ! لا علاقة لي بمثل هذا العمل. أنا جندي هربت من الجيش واحتميت بكم خوفاً من الموت.

ـ ليست تلك هي الحقيقة، أسمك مبعث للشك وكذلك اختلافه، وكيف تسنى لك أن تكون وسط هؤلاء النسوة والرجال المهجرين؟ وكيف فلت من إجراءات وحدتك العسكرية؟ أيضا ملابسك المدنية.

ـ لقد حدثتكم عن هذا.. وإذا كنتم تظنون سوءا في الأمر، فهل من المعقول لرجل المخابرات أن يأتيكم طواعية؟

ـ المهام تتنوع والواجبات أيضا... وهل تريدنا أن نعقل تلك الرواية التي لا يصدقها إلا الأغبياء؟ حدثنا بصراحة لتكون بمأمن عندنا.

ـ والله لقد رويت لكم الحقيقة ولم ألفق أي حرف فيها.

ـ حسناً.. كم من المعارك شاركت فيها؟

ـ كثيرة..

ـ وكم قتلت من جنودنا.

انعقد لساني فلم أجد جواباً. وبدأ جبيني يتفصد عرقاً ولكني تداركت الأمر، وأخرجت كلمات فزعة كنت ألوكها تحت أسناني.

ـ الله يحكم يوم الحساب.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فقال المترجم وهو يتضاحك بخبث

ـ وهل ننتظر إلى ذلك اليوم؟

أخذ العسكري الآخر يتحسس لحيته ويفركها، وهو يطلق سيل كلمات بالفارسية ويوجه نظرات حادة نحوي وكأنه يتوعدني.

تمنيت لحظتها لو رجعت بي الساعات إلى الوراء، لأكون أكثر يقيناً وترويا في اتخاذ قرار الهروب. فقد تبين لي عند هذه اللحظات أني من النوع الذي لا قدرة له على إكمال الشوط حتى نهايته، وأنّ خياري لم يكن مضموناً.

كان المترجم خلال ذلك يدون في دفتر أمامه بعض الملاحظات، وفي الوقت ذاته يحدث الآخر. وبعد فترة وجيزة نظر نحوي ووجه لي حديثه.

ـ يبدو أنك لا تريد أن تخبرنا بما تعرف، وتراوغ في كلامك.

ـ لا لم أراوغ أو أكذب، أقسم بالله على هذا.

ـ إذن نطلب منك شيئا آخر، مسألة ليست بالعسيرة، ونعتقد أنك لن تخذلنا.

ـ لم لا، إن استطعت ذلك.

استدار إلى الخلف وأصبح وراء المنضدة، ثم أخرج من الجرار غلافاً كبيراً وفتحه فارشاً دفتيه فوق المنضدة، وطلب مني الاقتراب لمحاذاته وأخذ قلماً ناولني إياه قائلاً، مشيراً بإصبعه نحو موقع بارز من الخارطة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ هذه هي فتحة سرتنك بين الجبلين. قلت إنّ وحدتك تقع خلف الفتحة.. حدد لنا على هذه الخارطة أماكن وأعداد القطعات العسكرية ما وراء الجبلين، أعتقد أن المهمة يسيرة عليك، أليس كذلك؟

شعرت برعدة تكتسح جسدي، وراحت أصابعي ترتعش فسقط القلم منها.

ـ لا معرفة لي بمثل هذا الأمر، فأنا جندي بسيط لا أملك خبرة بذلك.

ـ إذن أنت تمتنع عن التعاون، ما عليك غير تحمل النتائج، ها قد كشفت عن مهمتك، لا نريد إضاعة وقتنا معك. أسم كريه وهويتان مختلفتان وملابس مدنية ورواية هروب غريبة متهاوية لا تعقل في مثل أوضاعكم وأوضاعنا وفي جبهة قتال. وفوق كل ذلك تمتنع عن أن تدلنا على مواقع القطعات العسكرية رغم ادعائك طلب الحماية لدينا.

ـ والله الكريم ما تكلمت إلا الصدق ولا معرفة لي بالقطعات العسكرية هناك.

شعرت بعد ذلك بالقلق يكتسحني، ورهبة تسيطر عليَّ، تلمست ذلك في السكون الثقيل الذي خيم على الملجأ، وتلك العينين الحادتين وهما تثقبان صدغي مثل إطلاقات بندقية، وتحفران في دماغي مثل مثقب.

بصوت كنت أشعر به يلوك الضغينة وكأنه صادر عن بوق، صرخ بي العسكري الملتحي بقوة وهدير وبرطانة فارسية ما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كنت أفقه منها حرفاً، ولكنه كان يكرر خلالها إسمي كاملاً، وكان وجهه محتقناً. كنت أدرك أن جمله التي يقذفها بوجهي تعني بغضاً وتهديداً ووعيداً وليس شيئا آخر. ركزت بصري نحوه وشعرت ببلاهة وتحجر يغطياني بالكامل، وما عدت بحاجة لقول كلمة أخرى حتى لو وجه لي سؤالا. قررت أن أصمت على الأقل الآن.

نودي على الحرس في الخارج، فجاء وسحبني من يدي وعاد بي مرة أخرى حيث الملجأ الأول. لم أجد هناك أحداً، كان الملجأ فارغاً. جال نظري بجدرانه الطينية الصماء. أردت أن أحادث أحداً، أن أشكو له حالي، أن أصرخ أو أبكي ولكني ما فعلت غير الصمت. لم تشغلني أصوات القذائف المتساقطة ودويها الذي يهز الأرض. لم أعد أفكر بالحديث وما جرى في التحقيق. ذهب تفكيري بعيداً جداً حيث الشارع المفضي إلى بيتنا. أسمع ضجيج الناس وأصوات الأطفال وهم يتراكضون خلف بعضهم دون دراية بما يجري في جبهات القتال. أخي الصغير مروان يلاحقني بنظراته من بعيد ثم يصرخ ويأتيني مهرولاً. جاء زياد.. جاء زياد، ثم يقفز متشبثاً برقبتي ويروح يقبلني بفمه الصغير الطري ورائحة الطفولة المخلوطة بالتراب تملأ ثيابه، بعدها ينسل من بين يديَّ راكضاً نحو البيت ليخبرهم بقدومي. شجرة الخروع التي أبغضها وأعدها شجرة شؤم، مازالت تقف صامدة وسط باحة الدار، أي جلد تحمله تلك الشجرة العجفاء لتصمد كل هذا الزمن، اصفرت أوراقها وتيبست أغصانها ولكنها بقيت واقفة تحمل ثمارها الشوكية الكريهة. صورة جدي المعلقة في الإيوان البراني تحدقني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بعيون رضية، وتعاتبني على فعلتي، فقد ود أن يراني طياراً وما وجدت بعده من فضاء يضمني لأحلق فيه. تقاربني أمي ببشاشتها وزغرودة خافتة تصدرها حنجرتها المتيبسة. تروح تمسد فوق رأسي بأصابعها المتغضنة وتتشمم رقبتي، واسمي لا يسقط من بين شفتيها. تلهج به وبالدعاء وهي تتملى وجهي وكأنها لم تلتقيني منذ دهور. أسمع صوتها المرتعش يردد: إنها العناية الربانية يا ولدي.. إنها تحرسك وتعيدك لي، سور سليمان بن داوود، سور سليمان أبن داوود.

دجاجاتي كبرن ورحن يسرحن جوار الشجرة، يقتربن مني كأنهن يرحبن بي. أفتت طرف الرغيف وأرميه فيتشاجرن عليه بقربي. وكانت أمي مستمرة في حديثها.. حظك من ذهب، والمصطفى حظك من ذهب.. عندي لك مفاجأة.. لقد أكملت كل شيء، ما عليك غير أن توافق، هداك الله إلى الطريق يا بني، حين يأتي أبوك سنتحدث في ذلك كثيراً، إنها ابنة عمتك نجاة، بنت ولا كل البنات. شاطرة وقوية ومؤدبة، تعرفها جيداً. حسنا قلت وأطرقت رأسي.

شردت بأفكاري وكان رأسي يتضخم ويتضخم وأشعر أن الدم سينطّ من عروق صدغي. كنت أترنح مع أفكاري وتأملاتي. أتوقف هناك وأعود مرة أخرى إلى هنا. لم أشعر بمقدار ما فات من الزمن وأنا جالس في الملجأ وحيداً تنتابني مشاعر سجين عليه أن يقضي فترة سجنه دون تذمر أو شكوى.

فجأة سمعت صوتاً يناديني. أخرجت رأسي فوجدت المترجم يقف أمام الباب بقامته النحيلة، ويمد يده لمساعدتي على الخروج من الملجأ. مشيت خلفه دون أن أفهم شيئاً مما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يريدونـه منـي، ولكنـي شـعرت بثقـل يعتمـر صـدري وعقلـي وخوف مما ينتظرنـي، بعد ما جرى في ذلك التحقيق المقيت. حينـذاك كانـت الشـمس بصـفرتها الباهتـة تختفـي وتظهـر بـين غمامات بيض تسير مسرعة فوق المرتفعات. وفي البعيد بدا سفحا الجبلين مظلمين. طالعت ما حولي حيث أكوام من حجر تتـراص فـوق بعضـها لتغطـي أسـطح الملاجـئ المتنـاثرة فـي السـاحة الواسـعة الممتـدة علـى طـول وجـوار السـاتر الترابـي، وارتفعـت عـن سـطح الأرض فتحـات أبـواب الملاجـئ وكأنهـا شـواهد قبـور. كـان هنـاك ثمـة جنـود يتجولـون قـرب ملاجـئهم وعنـد الربايـا المنتشـرة فـوق السـاتر. توقـف المتـرجم عنـد بـاب الملجـأ حيـث حقـق معـي أول مـرة، ونـادى بصـوت واضـح ومسموع خرج إثره ثلاثـة عسكريين. أحـاطوا بـي وقـام أحـدهم بسحبي من ساعدي بقوة ودفعني أمامه، عند تلك اللحظـة خـرج الضـابط الملتحـي وراح يوجـه كلامـه إلـى هـؤلاء الثلاثـة وفـي ذات الوقت كان ينظر نحوي. اقتادوني ثلاثتهم نحو سيارة تيوتـا خاكيـة اللـون ملطخـة بـالطين أخفيـت بعنايـة وراء سـاتر ترابـي وأكيـاس مليئـة بـالتراب. أجلسـوني فـي الحـوض الخلفـي بـين رجلين منهم، وتقدم المترجم منـاولاً السـائق بعض أوراق، بعده انطلقت السيارة تلهب الأرض بأقصى سرعتها.

لـم أسـأل عمـا يحـدث وكـأن الأمـر لا يعنينـي. ورحـت فـي صمت دون أن أنبس بكلمة ومثلي فعل الآخرون طيلة الطريق.

تلـك كانـت بدايـة رحلتـي مـع عـذاب الأسـر والتـي لا أرغـب الحديث بتفاصيل ما حدث لي خلاله.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

سماوتومو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ما حدث في أراضي مدينة السماوة في الفترة الماضية لفت انتباه وكالات الأنباء وقنوات التلفاز الدولية والعربية. وحسب ما يشاع فإن أجواء مدينة السماوة لا زالت محتقنة وملبدة بما ينذر بالكارثة، بعد محاولات تظاهر لمرتين حصل فيهما إطلاق نار، وذهب خلالهما ضحايا أبرياء. الخبر الوارد لا يثير الحفيظة، فالعراق اعتاد الموت كيقين، ومثله الفوضى. ولكن ما أعقب ذلك من أحداث هو ما لفت انتباه وكالات الأنباء. يقول الخبر:

((علق 16 عضوا في مجلس محافظة المثنّى عملهم في لجان المجلس وقرروا عدم حضور الاجتماعات جراء عدم الاستجابة لمطالب المتظاهرين، وتغليب المصلحة الحزبية وعدم تجانس أعضاء المجلس.

وأكد السيد نائب رئيس المجلس في تصريح لإحدى الصحف أن أعمال العنف التي راح ضحيتها الأبرياء وتسارع تدهور الوضع الأمني، تتطلب الاستجابة لمطالب الجماهير باتخاذ قرار بإقالة السيد المحافظ كونه المسؤول الأول عن الجهاز التنفيذي)).

إثر ورود الخبر أعلاه كُلفت من قبل وكالة الأنباء التي أعمل فيها كمراسل، للذهاب إلى جمهورية العراق، ومن ثم إلى مدينة السماوة لاستطلاع الأمر وتقديم تقرير صحفي تفصيلي عن سبب تكرار تلك الأزمة والأحداث.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

في البداية، انتابني الرعب وراودتني في أحلامي ولعدة مرات، صورة جسدي الممزق ورأسي المبجل منخوراً بعشرات الرصاصات الصماء الباردة. شاهدت بفزع صورة عينيّ الجاحظتين وهما تطالعان السماء ببلاهة الموت المحقق، ورأسي المهشم متدلٍّ عند ساقية ماء آسن في ظهيرة صيف قائظ. فمن يستمع للأخبار الواردة من العراق لا تتملكه غير مشاعر الرعب. وعلى مدى يومين كاملين أرهقت نفسي في جمع الأخبار، كل الأخبار والتعليقات والمقالات والبحوث عن مدينة السماوة. جغرافيتها، سكانها، طبيعة مناخها، الحوادث فيها على العهود السابقة والعهد الجديد، عشائرها، أحزابها، صناعاتها المحلية، الزراعة فيها. ولم أهمل حتى أخبار السياسة والاقتصاد. الرياضة أيضاً كانت من ضمن اهتماماتي وبحثي. وبمثل هذا الهوس بحثت في مدينة بغداد، رغم معرفتي المسبقة بها. فأنا ابنها الذي تركها مهاجراً قبل ما يقارب الثلاثين عاماً. يقال إنها تغيرت كثيراً، ولكني ما زلت أحتفظ لها بمعالم خاصة لا تبتعد عن ذهني أبداً. صور أزقتها ومحلاتها بقيت راسخة في عقلي، وأشعر دائماً أن باستطاعتي استحضارها والتجوال في جميع مناطقها، بالرغم من أني أسكن بعيداً عنها. تلك القدرة على الاستحضار أجدها ميزة خاصة بي.

في البداية واجهت أمر التكليف بحذر وغضب، ولكني، ومع مرور الأيام وسرعة وحرارة الاستعداد وإجراءات السفر الموجبة مع إلحاح وإقناع من قبل رئيس التحرير رافقته مغريات مادية، حشدت في روحي حب الفضول واسترجعت شجاعتي وروح المغامرة التي تتملكني دائماً، والتي يشهد لي بها زملائي في المهنة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لمَ لا؟ فربما سوف أخرج بسبق صحفي وريبورتاج يكون قنبلة مدوية في عالم التحقيقات الصحفية.. أوه، منذ البداية سيطرت على ذهني لغة القنابل والإطلاقات النارية. لم يبخل زملاء العمل بتجهيز جميع ما أحتاجه في رحلتي، طلب الموافقات من مؤسسات حكومية عراقية، الحجز بالطائرة إلى عمان، أيضا السكن في العاصمة الأردنية وتوفير سيارة خاصة للتوجه بها إلى العراق. ولكن كل تلك المساعدات من زملائي وغيرها لم تكن غير إضافات لما بذلته من جهود شخصية لإنجاح مهمتي، عشت معهاً تعبا حقيقياً خلال يومين سبقا سفري.

في البيت لم تنفعني جميع التبريرات التي قدمتها لزوجتي راضية المكدودة دائماً، ولا أدري من الذي سماها راضية، وهي البعيدة جداً عن الرضا والقناعة. تحاشيت بادئ الأمر أن أحدثها عن تكليفي بمهمة السفر إلى العراق. ولكن مع استعداداتي، لاحظت بفضول همتي في تهيئة احتياجاتي، وراحت تلحّ لمعرفة المهمة والجهة التي عليَّ التوجه إليها. ما كنت أستطيع وبسهولة إخفاء ما نويت عليه، فمن الجائز أن لا عودة لي، وكذلك ربما تطول المدة، وقبل كل ذلك فهي زوجتي، شريكتي في هذه الحياة فكيف يتسنى ليَ السفر وأنا أخفي عنها مهّمتي الصحفية. أخيراً قررت أن أخبرها بمهمتي التي كلفت بها. أخبرتها وكنت أتوقع الموقف بالكامل، فهي مثلي كانت تتابع أخبار العراق باهتمام وفزع شديدين، وهي الفلسطينية الأصل الألمانية المولد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لم أكمل شرحي للمهمة. بكت وتشنّجت وصرخت، وكان نحيبها يقطع نياط القلب. حاولت إقناعها دون جدوى. شعرت بالإجهاد، وكنت أحاول الحفاظ قدر الإمكان على تماسك ذهني وعدم تشتّته. ولكن بكاءها كان يهز جوانحي ويثير في نفسي حالة فزع غريبة، شعرت معها وكأنها تنعيني مسبقاً. ومع توسلاتها ودموعها، كنت ألملم ملابسي وأحرص أن لا يفوتني شيء قد أحتاجه في سفرتي، بعد ذلك وجدت أن التعب قد أخذ مني الكثير، فرميت جسدي المنهك فوق الكرسي وسط الغرفة، وأهملت كلياً حديث زوجتي وبكاءها ورحت أفكر بخطّة السفر القادمة وبرنامج عملي لإعداد التقرير، مبعداً نظري عن راضية.

* * *

عند المعبر الحدودي، على الجهة الأردنية من الحدود، واجهت أول عائق مزعج ومتعب في رحلتي، فقد أوقفني الحاجز الأردني لعدة ساعات، وبإهمال ظاهر ووجوه عابسة، ودون أن يخبرني أحدهم عن السبب، تركوني والسائق مركونين جانباً دون أن يوجهوا لي أية أسئلة. بعد أن تملكني الغضب والتذمر بالكامل، وبان على جسدي الإنهاك، جلست القرفصاء جوار باب غرفة الحرس، وجاورني السائق بصمته. شعرت بأني معتقل لديهم وليس غير ذلك. بعد كل تلك الساعات البغيضة تقدم نحوي شاب برتبة نقيب بسلطة الحدود. سلّم بصوت خافت جداً وكأنه لا يريد أن يسمعني كلمة ترحاب. سألني إن كنت ضجراً، فضحكت ولكنه سارع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وبادرني القول: لن تبقى طويلاً... مبلغ قليل للشباب وينفرج الموقف، وهناك أيضاً أصدقاء عليك أن تنقلهم معك بالسيارة. هذا كل ما يراد منك. وافقت بعجالة وأنا أدسّ في يده ورقة المائة دولار وأنفث دخاناً كثيفاً من سيجارتي بدا وكأنه كان حبيساً في رئتي طيلة تلك الساعات.

جلست بجانب سائق سّيارتي الصامت، والذي أُرسلته معي الوكالة، وصعد إلى المقاعد الخلفية برشاقة وخفة ظاهرتين شابان أنيقان. وصلنا نقطة التفتيش في الجانب العراقي فطلب رجال الشرطة جواز سفري وهويتي. عند مشاهدتهم للجواز والهوية وباج الوكالة المعلق فوق صدري وصدر السائق قالوا بصوت واحد: گو مستر گو... گو ورحمة الله وبركاته. لم يطلبوا من الباقين جوازات السفر أو الهويات ولم يطلبوا نقوداً للشباب مثلما فعل على الجانب الأخر. ضحكت في سري وبدأت أدخن سيجارتي بشراهة ولذة فائقتين، وأطالع أفق الصحراء الممتد أمامي والذي بدأ يبتلع في جوفه المفتوح سيارتنا المنطلقة بأقصى سرعتها. بعد ما يقارب البضعة كيلومترات داخل الأراضي العراقية سمعت أحد الركاب، ممّن حملناهم معنا من المعبر الأردني، يهمس بهاتفه النقال بتمتمة لم أستطع فكّ رموزها رغم ما بذلته من جهد. ولكن بعد مضي ما يقارب العشرة كيلومترات توضح لي كل شيء وعرفت مغزى تلك المهاتفة السريعة التي قام بها الراكب الجالس خلف مقعدي.

سيارتان من نوع أوبل، إحداهما بيضاء والأخرى بلون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أزرق وسبعة من الملثمين اعترضوا طريق عجلتنا، وأجبرونا على التوقف تحت تهديد السلاح. رغم محاولاتي تمالك الأعصاب فإن وجه سائقي المصفرّ وجسده الذي كان يختضّ بشكل ظاهر، جعلاني أشعر بخدر يسري في جسدي وبفقدان السيطرة على حركات عضلات وجهي وقدمي وأصابع يدي، وبدأ العرق ينزّ من جسدي. هبط الراكبان من مقعد السيارة الخلفي وحشرا جسديهما بين مجموعة الملثمين وشاركا في طقوس التكبير والضحك والتهليل والقبلات المسموعة.

ـ إنهما صيد سمين...

ـ لا.. دعهما يذهبان فقد قدما لنا اليوم خدمة جيدة.

تسلم سائقي إشارة الانطلاق، فراحت السيارة تلهب الأرض. صمتُّ تماماً دون أن أنبس بحرف واحد فقد كنت في ذروة الذهول من الصدمة، ولم أفق منها إلا عند مشارف مدينة بغداد وبالتحديد عند نقطة سيطرة للشرطة العراقية.

* * *

لم تكن ليلة المبيت في أرقى فنادق بغداد لتسعدني بقدر ما كانت عبارة عن حالة مقلقة ومرعبة لم تغمض لي فيها عين، غير دقائق معدودات. كانت أذناي عبارة عن لاقط راداري لجميع الأصوات المتردّدة في ظلمة ليل العاصمة العراقية، وعشت ساعاته أتنصّت نباح الكلاب وضجيج العربات وانفلات عيارات نارية من مختلف أنواع الأسلحة.

في الصباح الباكر، وفي مطعم الفندق، جلس بالقرب مني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ووضع قدح الشاي أمامه فوق المنضدة، وبدأ الحديث بوجه باشّ وابتسامة عريضة ولغة إنكليزية سلسة واضحة.

ـ صباح الخير سيدي العزيز... أهلاً بكم... إنها المرة الأولى لكم في بغداد.. أليس كذلك... نتمنى لكم طيب الإقامة... وكذلك تحقيق النجاح في المهمة التي جئتم من أجلها... أعتقد أنك بحاجة لمترجم يرافقك في مهمتك الصحفية.

اختصرت إجابتي وأنا أواجه سيل الكلمات الخارجة من هذا الفم الثرثار في هذا الصباح الثقيل والمتعب.

ـ شكراً فأنا أتكلم العربية.

أطلق ضحكة ضاجّة وقحة، وكأنها صرخة مبحوحة صادرة عن ممثل فاشل، لم يكن واثقا من قدرته على إضحاك الجمهور.

ـ توقعت هذا... والله العظيم عرفت هذا... لم يخبرني أحد... قلبي يعلمني... حسناً... ولكني أعتقد أنك توافقني دون تردد بأنك بحاجة لحماية.. أربعة يكفون... إنهم أشدّاء وبسعر بخس، بالرغم من أن ذلك يتعلق بنوع المهمة... إذا كنت في نية السفر إلى المناطق الغربية أو الموصل أو المناطق المحيطة ببغداد، فإنك تحتاج إلى ما لا يقل عن ستة حراس شخصيّين، وهؤلاء أسعار أجرهم اليومي لن يقل عن الألفي دولار... قلت لك إن ذلك يتعلق بنوع المهمة.

ـ ألا تظن أنك طرقت الباب الخطأ.. لست بحاجة لشيء.. فقط أريد أن أكمل فطوري وأذهب إلى الجحيم دون حمايتك ومترجميك.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ لمَ العصبية يا سيّدي.. نحن فقط نعرض خدماتنا.... نحن لا نستحقّ غضبك أيها الصحافي الشاطر.. من أجل سلامتكم ليس إلا.... أشكّ أنك سوف تنجح دون معونتنا... طاب صباحك أيها الصحافي الذي أفزعته الدبكة يوم أمس عند الحدود.

أنتفض جسدي برعشة مكبوتة وشعرت بالقشعريرة وبالعرق البارد ينساب فوق أخدود عمودي الفقري عندما واجهت عينيه، فقد ومضت صورة تلك العينين في خاطري وهما تنظران اتجاهي من خلف اللثام، ظهيرة البارحة عند الحاجز الذي أوقفنا عنده المسلحون.

* * *

قدمت لسيطرة الشرطة عند حدود مدينة السماوة ورقتي وزارة الثقافة والداخلية، وكانتا تحملان تعريفاً بشخصيتي ومهنتي، والصحيفة التي أمثلها، والمهمة المكلف بها، وكذلك فعل سائقي.

مازحني أحدهم قائلاً:

ـ كان يو سبيك أنگلش.

فأجبته بلهجة عراقية

ـ لا والله قليلاً، وبشكل مخربط.

فانطلقت ضحكاتنا جميعاً، وحصل الشرطي السائل على ضربة كف بريئة من صاحبه.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كنت قد تركت بغداد وأنا أبحث عن تسمية مستخلصة من مزج عدة ألوان لأطلقها على لون سماء وبيوت وشوارع المدينة، فأصبت بمزاج سيئ واعتقاد بأن لا لون هناك يناسب بغداد. فالأصفر المغبرّ، أو لون التراب، أو شيء قريب من ذلك، هو ما يلطّخ وجهها. ولكن أي لون يختاره المرء لوجه السماوة المليء بالأخاديد والخرائب وبفقر الدم المزمن. ضحكت في قرارة نفسي وأصابني نوع من الهوس وأنا أتملى بقلب كسير لوحة الفقر الممتدة على سعتها أمامي. لحظتها تذكرت تقريراً متفائلاً أصدرته الأمم المتحدة، يتحدث عن مهامّ ونوع المساعدة المرتقبة التي ستقدمها القوات اليابانية غير القتالية عند قدومها المدينة. التبس عليَّ الأمر، فقد شاهدت وجوهاً لأهل السماوة بسحنات يابانية، ولكنها ترتدي الزيّ العربي، العقال والكوفية المرقطة بالأسود، وأيضاً نساء بعيون لوزية وفم صغير دقيق مثل اليابانيات، يجمعن روث الحيوانات ويغسلن القدور عند مسناية الشط.

من الجائز أن تكون قلة النوم والسفر الطويل والتعب الشديد وأيضا حادثة البارحة، قد سبّبت لي بعض الهلوسة والالتباس في الصور والمشاهد. دعكت وجهي بقليل من ماء. شعرت بالفزع والقلق من تلك المشاعر التي انتابتني. مشاعر غريبة طرأت فجأة على بالي وغيرت وقع الأحداث. احتدمت في خاطري صورتان أخذتا تنزعانني عنوة من صحوتي وترمياني في تهويمة طويلة، مقارنة بين واقع جادّ صارم ووضع غير معقول أو فنتازيا مرعبة. أنظر للدمار أمامي فأحسه مثل شفرة زجاج حادة تسحبها يد خشنة وتمررها بثقل وبطء شديدين فوق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شغاف القلب، وهناك عيون تترقب الوجوه العابرة المبتسمة بسخاء، وتلويحة لأطفال يثيرون غبار الشوارع، وهم يلوحون بفرح عفوي ضاجّ لوجهي الأبله الشارد الذهن. و كان هناك في البعيد صراخ فزع وضجيج موت وخراب، ولكنه مكتوم أو الأحرى خائف ومخنوق ولكنه حقيقي... حقيقي وواضح يتناوب على مسمعي مع كركرات أطفال وضحكات صبايا. هذا ما كنت أخشاه، أن أصاب بفنتازيا لوثة الخراب.

أيكون التحقيق الصحفي الذي سوف أنجزه عن السماوة، بمثل تلك الغرابة والمفارقة التي تتمتع بها المدينة بعد أن مر عليها ما يقارب العامين وهي بعهدة جيش الإمبراطورية اليابانية. خرائب يديرها جيش أتى من أكثر بلدان العالم حضارة ومدنية، وأعلاها شأواً في عالم التقنيات. كان ذلك السؤال الملحاح ملهماً لهلوستي أو لأسمِّها بالتحديد لوثتي التي تملكتني بالكامل.

لم ادع الوقت يمر، فقد أجريت حديثاً صحفياً جاداً مع بعض الجنود اليابانيين الذين كانوا يتسوقون داخل السوق المسقف وسط المدينة. باغتّهم وحاصرتهم بأسئلتي. كانت أسئلتي محددة تتعلق بفترة بقائهم ومشاريعهم، وعلاقتهم مع المواطن السماوي. إجاباتهم كانت مختصرة ومراوغة بعض الشيء وكأنما يتعمدون فيها التهرب عن الإفصاح بأكثر مما هو مصرح لهم. ومع هذا فقد كانت ردودهم ودودة تنم عن حميمية وأدب جمّين، ولكنها ابتعدت عما أردت الحصول عليه. فاجأني أحدهم عندما تكلم العربية مع بائع الفاكهة، ولكنه رفض أن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

يتحدث معي بالعربية حين طلبت منه ذلك. أخبرني الجنود عن مشاريع كثيرة في نيتهم تقديمها لأهالي السماوة، وحسب خطط موضوعة تنتظر مصادقة البرلمان الياباني. منها محطة كهرباء وجسر جديد ومعمل إسمنت ومعامل يدوية لصناعة الأثاث المنزلي ومشاريع زراعية كبيرة، وكذلك بناء ساحة كرة قدم تستوعب أكبر عدد من المتفرجين، ومحطة تلفزيون خاصة بالمحافظة. وأسرّوني أيضاً بما تنوي دائرة التطوير الذاتي للأعمار والتنمية في قيادة الجيش الياباني من بناء معملين ضخمين، الأول لتعليب التمور والثاني يحوي عدة أقسام لتطوير الصناعات الشعبية، وسوف يعملون على استغلال الخزين النفطي الكبير الذي حددته كشوفات خبرائهم. ومن خلال هذه المشاريع، سوف تكون السماوة واحدة من أهم مدن العالم على قوائم اقتصاديات الصادرات والاكتفاء الذاتي. قال أحدهم بحماس إنهم وضعوا تلك الخطط قبل أن يقرروا القدوم إلى العراق، وأن الحكومة اليابانية أعدت برنامجاً على مراحل لتوأمة مدينة السماوة مع مدينة هيروشيما لتشابههما في الكثير من الأوضاع، خاصة في وضع مدينة السماوة الحالي بما يشبه منظر هيروشيما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية إثر قصفها بالقنبلة الذرية. قالوا إن السماوة ستكون في المستقبل العاجل في عداد المدن اليابانية، وتنال ما تناله المدن اليابانية من عناية واهتمام، ولن نخفي عليك، هذا ما همس به الجندي ذو العيون اللوزية الزرقاء الغريبة، وأضاف، لقد أُطلق على مدينة السماوة في الوثائق الرسمية اليابانية تسمية (سماوتومو) والتسمية ذاتها متداولة اليوم في الشارع الياباني، ويلذّ للكثيرين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

من مواطني اليابان التحدث عن الإخوة أبناء وطننا القاطنين في البعيد في مدينة (ريح الشمس الصفراء) وهي الترجمة الحرفية لكلمة (سماوتومو). وقال أيضاً بفخر ظاهر، إن الطلاب في مدارسنا، وعند رفع العلم في اليوم الدراسي الأول من كل شهر، وكذلك في الأعياد الوطنية، ينشدون الأغاني التي تمجّد مدينة ريح الشمس الصفراء (سماوتومو) وحين أكمل جملته تلك لمعت عيناه اللوزيتان، وسالت على خديه دمعة ساخنة، فدسّ وجهه بين يديه وأجهش بالبكاء ليفرّج الكرب عن قلبه الصغير الأبيض الذي يشبه لون أسنانه البراقة. لكن أحد الجنود لم يكتم هواجسه وأفصح عن قلق فعلي من أن هناك محاولات من بعض دعاة الأقاليم والفدرالية لسحب محافظة السماوة من عهدة اليابان وعزلها عن الحضارة، ووضعها في المجهول، وحين سألته عما يقصده بالمجهول امتنع وأشاح بوجهه بعيداً، ولوّح بيده بحركة دائرية فوق رأسه لم أفقه كنهها.

لاحظت، وأنا أدير الحديث مع الجنود اليابانيين، أن هناك من جلساء المقهى القريب من كان ينظر إلينا بريبة، وعيون يتطاير منها الشرر، وهناك علامات ضجر واضحة يبديها بعض المارة تقابلها أيضاً ابتسامات من آخرين يقتربون منا محاولين الاستماع للحديث، أو يطلقون كلمات المداعبة وأحياناً التحية بالإنكليزية أو اليابانية، فيرد عليهم الجنود بالتحية اليابانية التقليدية حين يطبقون باطن الكفين وينحنون مطأطئي الرؤوس، ويرددون بصوت خافت يشبه الهمس (ماتاسو كوتمازا كاتسو تيو) والتي تترجم إلى العربية (والسلام عليكم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ورحمة الله وبركاته) مثلما أخبرني الجنود بذلك، عند نهاية اللقاء الصحفي. ودعتهم وقد استغرق الوداع فترة ليست بالقصيرة، فكلما انحنيت فعل الجنود اليابانيون الشيء ذاته، وعلى هذا المنوال ضاع مني ما يقارب الخمس دقائق، ولم ينقذني من تلك الورطة غير يد سائقي حين سحبتني بقوة ودفعتني نحو باب السيارة، بعد أن أدرك الحرج الذي وقعت فيه.

* * *

بمزاج سيئ ومعنويات هشّة، قررت التوجه للقاء محافظ المدينة الذي يتهمه البعض هذه الأيام، بإصدار أوامر بإطلاق النار على المتظاهرين، في كلا المرتين اللتين خرج بهما بعض الأهالي احتجاجاً على الأوضاع، وخاصة شح الماء وانقطاع الكهرباء، والذي قرر مجلس المحافظة إثرها إقالته من منصبه، وبقيت هذه المسألة معلقة، تثار بين فترة وأخرى. كنت على عجالة من أمري فقررت أن يكون لقائي بالمحافظ هو آخر عمل أقوم به اليوم، بعدها سوف أتناول بعض الطعام واخلد للراحة.

عند الباب وقف عشرة حراس يحملون السلاح ويراقبون حركة الناس بحذر ظاهر، ولكنهم كانوا ودودين معي حين عرفوا مهمتي. فوق الحافّة العلوية لباب الدار الأمامية تدّلت مجموعة متشابكة من أسلاك بألوان مختلفة، تنحدر بعشوائية من جذع نخلة ترتفع عند جهة الباب اليمنى، ثم تتشابك

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأسلاك لتمتد نحو نافذة إحدى الغرف. وسط حديقة مهملة بأرض سبخة عطشى تنفرد هناك شجرة صغيرة عجفاء منزوعة الأوراق تتوسط الجهة المجاورة للنافذة المطلة على الحديقة. بادئ الأمر، ظننتها شجرة ياس ولكن حين اقتربت منها عرفت أنها عوسجة بّرية جُلبت إلى هنا بالخطأ، أو أن الدار شيدت جوارها دون استئذان منها. ولم تسقَ تلك العوسجة إلا أيام المطر الممتنع دائماً عن أرض محافظة المثنى.

حظيت باستقبال جيد، ودُعيت للجلوس في غرفة الضيوف. ترّبعت فوق بساط بعرض متر وبألوان زاهية يلتف بموازاة جدران الغرفة التي تتوسطها سجادة من القاشان الإيراني بألوان مبهرة. فوق رأسي عُلقت صورة ملونة دون إطار لأحد الأئمة، يجلس القرفصاء وأمامه يرقد أسد هصور. صنوان للشجاعة، ذاك ما فسره لي المحافظ بعد أن قرر أن يفتح لي قلبه حسب قوله.

أنكر المحافظ أن تكون المشاكل والتظاهرات التي وقعت في المدينة سببها الخلافات العشائرية، مثلما تقول بعض الأوساط المغرضة، ولم يكن السبب نزاعاً بين منظمة العروة الإسلامية التي ينتمي إليها وخصومها. وأيضاً على عكس ما يشاع، وبقناعة تامة قال إن اليابانيين دائماً يفضّلونه على الجميع، لأسباب لا يجد الوقت مناسبا لإعلانها. أفاض في شرح سبب محاولات إقصائه من منصبه، حيث أكد أن الأمر يعود إلى نهاية العام الفائت أي 2004 حين شجع وساند إنشاء فرقة للإنشاد الوطني، وحاول استباق الزمن والتهيئة لفعاليات شبابية، وقد شارك شخصياً أعضاء تلك الفرقة في اختيار

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأغاني والأناشيد التي قدمتها في الاحتفالات الرسمية والدينية. وقد لاقت الفرقة التشجيع والاستحسان بين أوساط الجماهير الشعبية في المحافظة، وقُدمت لها عروض من باقي المحافظات، ومنحتها شركة يابانية أجهزة حديثة. ولكن الحسّ الوطني والالتزام الديني جعل الفرقة تفضل التفاعل مع المحيط المحلي، وقبلت فقط تقديم الأناشيد الدينية، دون أن تتعرض لضغوط منّي حسب ما يشاع. وكان عدم موافقة فرقة الإنشاد السماوية على قبول عرض مجلس المحافظة، للاحتفال وتقديم الأناشيد الوطنية في عيد ما يسمى بالتحرير، واحداً من أسباب التحريض ضدّي، وأنت يا سيدي تعرف دور من يرتبط بقوى الاحتلال، ولذا رفضت الاحتفال بهذا اليوم، قال ذلك وهو يطلق حسرة طويلة. عندها طرق سمعي نواح لمجموعة من النسوة كن يبكين في الغرفة المجاورة. وقال أيضاً لقد حشدوا ضدي الشباب المراهق، وهم مجاميع منفلتة من البريكية والحواسم والمكبسلين، وقال أيضا إنها والله لمؤامرة خبيثة لوقف التقدم والتحديث الذي عملنا بجهود جبارة من أجل أن يعم محافظة المثنى ومدينة السماوة بالذات. فأنا أول من شجع الممارسات الديمقراطية، حين طلبت من جميع العشائر أن تختار راياتها الخاصة، وقدمت تبرعاً خاصاً منّي، كعربون صداقة وحسن نية لشراء راياتهم. إنني وسط أبنائي وأحبّتي وشعبي، ولن يستطيع كائن من كان إزاحتي من منصبي. كانت تلك آخر جملة سمعتها من المحافظ، بعدها تركني لأستريح وقد كان رجلاً مضيافاً وسخياً جداً.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

استفقت وعلى ضوء شحيح لفانوس صدئ ربما بيع في عهود غابرة، وكان معلقا في الزاوية البعيدة من الغرفة. تحسست جسدي فوجدتني ممدداً فوق البساط ذاته، يغطي جسدي دثار ثقيل وبجانبي رقد السائق الذي بدا في رقدته وكأنه يمتّ بصلة لمن سماهم القرآن بأهل الكهف. جلست أدخن بانتظار الفجر. أنهيت تدخين سيجارتين ثم تملكني النعاس مرة أخرى، فوضعت الغطاء فوق جسدي ومددت قامتي تحته مطمئناً لنوم مريح حصلت عليه في بيت المحافظ تحت الحراسة المشددة.

ضجيج وقرقعة صحون وبكاء جوقة أطفال وأصوات نساء، هذا ما أيقضني وبقيت أتنقل بعينيّ بين صورة الإمام وأسده الهصور، وبين صور أخرى لخيام تحترق ورأس مقطوع بعيون جاحظة، ولكن تلك العيون كانت جميلة مكحولة ومشعّة بابتسامة حيوية، بالرغم من الدم العبيط الذي يقطر من العنق المحزوز، والجسد المطروح المليء بأنصال السهام والرماح التي لم تترك فيه منطقة فارغة.

رغم ما حوته مائدة الإفطار من طعام، فقد تناولت الشاي وقضمت بأسناني قطعة صغيرة من رغيف ابتلعتها بصعوبة. شكرت مضيفي وقبّلته كعادة أهل السماوة في الوداع، وقام المحافظ بإمساك كفّي والاحتفاظ بها لفترة وهو يحثني بلغة متوددة أن أذكر ما قاله لي بأمانة، وأن أوصل صوته للعالم، فوعدته خيراً وأنا أهّم بصعود السيارة.

توجهت نحو وسط المدينة لأستطلع آراء الشباب حول

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأحداث الأخيرة، فوجدت جمهرة تربو على عشرين شاباً تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين. كانوا يتحلقون بعضهم حول البعض الآخر، ويتداولون بحديث ضاجّ، القبيح من الكلمات. تدافعوا وهم يشاهدون السيارة تقترب منهم فسارع البعض ودسوا أياديهم المرتبكة في جيوب ثيابهم الكالحة، ودفعوا بعض التراب بأقدامهم ليثيروا الغبار الذي صنع غمامة عتّمت ملامح المكان. حين باغتّهم برغبتي لمعرفة المزيد عما جرى في المدينة من أحداث، وقد عرضت عليهم سؤالي بمقدمة أشرت فيها لحديث الجنود اليابانين والوعود حول مستقبل المدينة المشرق.

كان عرضي ومقدمّة السؤال كأنه قنبلة موقوتة انفجرت وسطنا. فقد تقافز الشباب وأخذوا بالدوران حول بعضهم وهم يرددون الهتافات والهوسات النارية ضد الاستعمار والإمبريالية، وشتموا أهل اليابان وروسيا وإيطاليا وأيضاً المحافظ ومجلس المحافظة وكذلك النيجر. أصابتني الحيرة وأنا أسمع كل ذلك الخليط من الأسماء. تساءلت باستغراب وبصوت عالٍ لماذا؟... لماذا كل هؤلاء؟... ما علاقتهم بالموضوع؟ رجاء الهدوء... لطفاً لنتحدث... يمكنكم قول ما تريدون، فأنا قادم من إحدى أهم وكالات الأنباء في العالم... تستطيعون إسماع أصواتكم ونقل آرائكم.. بحّ صوتي واستغرق مني ذلك فترة زمنية ليست بالقصيرة حتى استطعت إقناعهم بالهدوء وتداول الحديث. سألتهم باستغراب عن موضوعة النيجر، فأجابوني بشكل جماعي يخالطه ضجيج وضحك وصراخ، ولكني وفي النهاية فهمت من كل ذلك اللغط، أن النيجر كانت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قد امتنعت في عهد صدام عن تزويد العراق باليورانيوم، ولولا ذلك لكانت الأمور غير ما هي عليه الآن، ولكانت أمريكا تقبّل أيادينا وتتوّسلنا لمصالحتها والتصدق عليها وعلى أعوانها. قالها ذلك الشاب كريم العين بحرقة صاحبتها هزة عنيفة للرأس وضربات متتالية على الأرض المتربة من قدمه التي كانت تنتعل خفاً بالياً كالح اللون. ثم وبسرعة خاطفة تنّحى جانباً، وتناول شيئاً ما وضعه في فمه وارتشف جرعة من علبة بيبسي كان يمسك بها. أغريته بورقة العشر دولارات حين طلبت منه أن ندخل السيارة لنتحدث على انفراد، وبشيء من الهدوء، بعيداً عن ضجيج الشباب، لكي لا نقاطع لهوهم البريء فوافق دون تردّد، داسّاً الدولارات بعجالة في جيب سروال كان يرتديه تحت ثوبه.

أعدت عليه مقدمة سؤالي وأخبرته بالوعود التي حدثني بها الجنود اليابانيون وتصوراتهم عن القادم من الأيام لوضع السماوة ومواطنيها. هرش فروة رأسه العكشة وكان يطالع أصدقاءه الذين عادوا لحالهم يلتفون حول بعضهم البعض ويصدرون أصواتا تضج بالصراخ والهرج. قال بنبرة حازمة، ضاماً قبضته وملوحاً بها في وجهي. مثل هذه المعامل وغيرها وكرات القدم وقمصان للفرق الرياضية وملابس للسباحة وعيدان للأكل بدل الملاعق، وغير ذلك من الوعود لا تكفي لإخماد حماس وثورة وغضب الشباب السماوي ورثة الثوار، وفي أراضي السماوة الطاهرة، لا نريد معملاً نُستعبد فيه ويُسجن شبابنا طيلة الوقت، دون أن يتمكنوا من إجراء فروض الشريعة. وفي الوقت الذي يتجه العالم للاستغناء عن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الملاعق وملابس السباحة، يريد اليابانيون وضعنا في أسفل قائمة الشعوب المتخلّفة. الجميع هنا يقولون ذلك بصوت واحد، يحمل حرارة وحيوية الشباب، يا سيدي أخبر العالم، اذكر ما أقوله لك بأمانة، فقضيتنا مغيّبة، وهناك من يحاول التعتيم عليها.. إنهم يعدوننا فقط.. سوف يتركون مدينتنا على عجل لو قرر برلمانهم الانسحاب، وهذا ما يترقبه جنود الحملة اليابانية هذه الأيام... حين رفع شباب السماوة لافتتهم الكبيرة لا لليابان أو أخرج أخرج يا ياباني، وقدموا الضحايا من الشهداء، فالسبب المباشر والخطر الذي استدعى خروج تلك التظاهرات، لم يكن مشكلة سياسية أو تعاون بعض شخصيات مجلس المحافظة مع المحتل، وتغليس الآخر عن السرقات أو المشاركة فيها. الموضوعة ليست كذلك، وليس مثلما صورتها وسائل الإعلام بأنها خلاف عشائري، أو رفض لسيطرة حزب ما، إنما السبب الرئيسي يتعلق بإقدام الحكومة اليابانية على عمل جبان وغادر، أساء لتاريخ محافظة السماوة ووجه لها طعنة نجلاء، وتم ذلك في ليلة مظلمة. لقد كانت هناك مؤامرة بكامل الخسّة والجبن. إنه الحقد الحضاري... تصوّر.. ونريد أن تنقل هذا الكلام عبر وكالة الأنباء التي تعمل لديها ومن خلالها إلى جميع شعوب العالم المضطهدة، ليطلعوا على ما فعله أهل اليابان من إثم وتعدّ بحق مواطني السماوة. تصور أنهم انفردوا بجريمتهم دون علم أحد، ودون الرجوع إلى الحكومة السماوية وأخذ موافقتها، للقيام بمثل هذا العمل الخسيس. وبالاتفاق مع المحافظ فقط، أقدم اليابانيون على وضع تخطيط جديد لمدينة أخرى تسمى أيضا السماوة، وتقع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شمال مدينتنا الحالية وجوارها. بدؤوا مشروعهم ونحن نرفض هذا اعتزازاً بمدينتنا الأصيلة.. إن ذلك يعدّ طعنة غدر، واستخفافاً بتاريخ وتراث وأهل هذه المدينة النبيلة، لدى شباب السماوة أدلة دامغة وشريط مصور وخرائط لذلك العمل الغادر، ولذا فنحن نقول بحماس وبصوت واحد لا لليابان شعباً وجيشاً وحكومة... والذي لا يصدّق ما ندعيه فليشاهد الفيلم والخرائط التي لدينا، ونحن مستعدون لتزويدك بها، مقابل مبلغ بسيط ليس أكثر من مائتي دولار، والغريب والذي استفز وخرّب أعصابنا أكثر وأكثر وهي الخربانة أصلاً، مشاركة رفاقنا وشركائنا وأبناء عمومتنا في المحافظات المجاورة، وبتحريض من محافظ السماوة نفسه، في تلك المؤامرة القذرة.

فجأة تغيرت سحنة الشابّ وظهر على وجهه فزع شديد، ثم أدار جسده بسرعة فائقة وفتح باب السيارة وهرب نحو مجموعته. عندها سمعت طرقاً ثقيلاً فوق زجاج النافذة التي كنت أسند ظهري إليها. استدرت فرأيت ثلاثة شبّان يرتدون ملابس الشرطة. فتحت زجاج النافذة ورحّبت بهم فتلقيت الصمت، ووجوه متجهمة تطالعني بشراسة.

ـ لقد تماديت بما فيه الكفاية دون أن تحصل على رخصة. نشكّ أنك سوف تنجح دون معونتنا... يجب أن تدرك أنك بحاجة إلينا دائماً.... أيها الصحافي الذي أفزعته الدبكة قبل أيام عند الحدود.

كانت تلك لحظة رعب حقيقية بالنسبة لي عندما حّدثني ذلك الشرطي من أهالي السماوة. ردّة فعلي كانت مرتبكة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وهستيرية، انتفض جسدي بتشنّجات متوالية ومتسارعة، رعبي الشديد دفعني للصراخ. وجهت صرختي نحو سائقي مباشرة... اخرج بسرعة من هذه المدينة.. اخرج من هنا... اتجه مباشرة إلى الحدود دون توقف.. هذه المرة اتخذ طريقاً آخر ليس الطريق الذي جئنا منه. رحت أرتجف وأدفع كتف السائق لأحثه الإسراع.. تعّجل، إنهم في كل مكان.. لا تتوقف، إنهم يحيطون بنا، صرخت بملء حنجرتي:

أسرع... أسرع... أسرع.. انتفض جسدي وتشنّج وأنا أصرخ.

شعرت بكف دافئة تمرر أصابعها فوق جبيني وخّدي وأخرى تهزني هزاً خفيفاً متسارعاً.

ـ انهض ما الذي حدث لك؟.. إنك تحلم يا حبيبي..

طوّقتني راضية بيديها وضّمتني بقوة إلى صدرها.. صوت لهاثي ما زال يخرج من صدري مكبوتاً ولكن بوضوح شديد، والعرق البارد يغطّي جبهتي ويسيل فوق وجهي.

ـ حتما، أنت لن تسافر يا حبيبي.

طالعت وجهها الجميل وعينيها الوديعتين وكأنهما تقبلاني. صمتُّ، فلم أكن قد أفقت بالكامل من ذلك الكابوس الثقيل لأقرر ما أريد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أرواح للشجر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الفقرات الأخيرة من الرسالة مطوّلة جداً ومتعبة، لا بل جافة وقاسية. رّبما ظنّوها تفي بالغرض كمقدمة لإنهاء الأمر الذي رأوا فيه، وحسب ما حوته الرسالة، مشكلة كبيرة بالنسبة لهم. ومن جانبي أعدّه مسألة مصير، ولا يمكنني التخلي عنه بسهولة مثلما يظنّون. رسالتهم احتلت وجه الورقة بالكامل ولم تترك فراغاً منها. تتزاحم في سطورها مبّررات وجدوها مهمة ومقنعة بالنسبة لهم، وتلك الجمل الباردة من الجائز أن تضغط على المرء لتضعه عند حافة الهاوية وتدفعه لحالة من اليأس والقنوط، حيث يكون في أقصى حالات التشويش والإرباك، فيستسلم لرأيهم ويقرّ لهم بما يريدون. لا شكّ أن بينهم أطباء خبراء بعضهم نفسانيين، من الذين يعرفون المسالك المؤدية لتهشيم عناد البعض من أمثالي، وكيف يوقعون بهم. ويعرفون أيضاً كيف يكسبون الجولات التي يكون الخاسر فيها دائماً خصومهم. ولكن هيهات فأنا أكثر منهم تماسكاً، ولن أخضع لرغباتهم. هذا الشعور هو ذاته الذي انتابني في المرات السابقة حين تسلمت رسالتهم الأولى، ومثله يراودني اليوم. ولكني لا أنكر حالات أجد فيها القنوط والغثيان وصداعا شديدا ينتابني، وتكرر ذلك معي منذ الساعات الأول التي اطلعت فيها على رسائل مصلحة الضرائب واستمر معي منذ أكثر من الأسبوعين ولحد الآن.

كان رأسي معبأً بأفكار مشّوشة، وعندما ألقيت نظرة عبر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

زجاج النافذة لم أجد ما يبعد عني الكدر، وكالمعتاد وكما في كل صباح، هدوءٌ يلف بحيرة نورفيكن المجاورة للحديقة الخلفية لدار العجزة الذي أسكن فيه منذ بضعة شهور، البحيرة تقع مباشرة أسفل نافذة غرفتي. ثمة زوارق تصطف عند الشاطئ الأخر للبحيرة، وريح الخريف تهزّ بعنف أغصان الشجر في الغابة الكثيفة الصاعدة بخضرتها الداكنة نحو أعلى الجبل المقابل. كان رأسي ثقيلاً يعجّ بالأفكار، ولكن هناك، في روحي، يقين بأني سوف أحصل على ما أريد. عليَّ العناد والإلحاح وهذا ما فعلته وسوف أفعله. لن أدع فحوى الرسالة يقلل من عزيمتي أو يدفعني للاستسلام. وها هي الأيام تفلت سراعاً، وسوف أجدهم يلبّون طلبي صاغرين.

سرقني منظر طائر النورس وهو يصارع الريح الخريفية العاتية، لذا لم أسمع بادئ الأمر الطرق الخفيف المتكرر على باب الغرفة، وكان جهاز التنبيه جوار السرير يبعث رنيناً خافتاً لم أنتبه له أيضاً. وأنا، وفي كل مرة، كنت أضغط على الزر ليفتح الباب أو أطلب من الطارق الدخول. ضغطت على الزرّ ففُتحَ الباب بصرير مكتوم ليدخل الممرّض رياض، وهو شابّ في مقتبل العمر، حنطي البشرة عراقي الأصل من أهالي البصرة مسيحي الديانة، ودود ضخم الجسد، دون إفراط بالسمنة، وجبهته عريضة، رأسه محلوق بالموسى. حيوي وذكي، ويتمتع بروح النكتة وله اهتمامات ثقافية. كان يمشي دائماً مطرقاً بوجهه نحو الأرض، والسبب في ذلك محاولته إخفاء جرح غائر تحت حنكه من الجهة اليسرى وهو جرح واضح يمتد نحو الرقبة. ومثلما أخبرني فالجرح كان أثر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إصابة تعرض لها أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وكان يرفض الحديث بالتفصيل عن أحداثها، ودائماً يسمي تلك الحرب، الجريمة التي لا تغتفر. وحين أردت منه أن يروي لي بعض وقائعها، سألني بدماثة أن لا أنكأ جراحه، فقد فقدَ فيها من الأحبة الكثير، وهو موجوع بقدر الألم الذي يحتضنه قلبي من فقداني حبيبي أولف. ورغم الحزن البادي في نظراته فرياض مستمع جيّد وإنسان مدهش في حكاياته، لا بل مسلّ جداً يجعلني أتمتع بأوقات من السعادة الغامرة، وبالذات حين يبدأ رواياته المشوقة عن بلاد ما بين النهرين. يجعل عقلي يطوف هناك في تلك الشعاب والوديان والسهوب التي يصفها لي بدقة عجيبة، وكأنه يشمّ ضوعها حين يصفها لي، لينقلني أحياناً عبر عصور غابرة، شارحاً لي تأريخ وطنه منذ ما قبل التأريخ. أحياناً يدغدغ رياض الجانب العاطفي في شخصيتي حين يحدثني عن شعراء بلاده، ويترجم لي بعض المقاطع من قصائدهم التي يعشق قراءتها. إن لكل منا، رياض وأنا شخصيا، آراء مختلفة تماماً عن الكثير من مجريات التأريخ ووقائعه، والاختلاف هذا، حسب اعتقادي، يأتي نتيجة إفراط رياض في نزعته العاطفية إزاء ماضي بلاده. وأخاله يعيش دائماً في نشوة حين يبدأ بتضخيم الأحداث والاستغراق في سرد سيرة أبطاله التاريخيين، وتأكيده على أن التأريخ بدأ من أرض العراق وليس من غيرها.

ـ إنه موعد تناول الدواء يا سّيدتي العزيزة.

ـ لقد نسيت هذا.. ما أكرم الرب حين أرسلك الساعة! أنا في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لجّة من أفكار لا أستطيع طردها بعيداً، تعبت معها كثيراً.

ـ ما الذي يجعلك تضعين نفسك في مثل هذه الدوامة المتعبة..

ـ ليس أنا من يريد هذا.. الأمر يتعلق بزوجي أولف بيورن والرسالة التي وصلتني من مصلحة الضرائب، أعتقد أنك اطلعت عليها سابقاً، هي التي وضعتني في هذه الحالة النفسية المتعبة.. كذلك طلبي الذي قدمته إلى تلك الدائرة.. تذكره أنت جيداً.. أليس كذلك؟... ها قد مضى وقت طويل دون أن يردني من مصلحة الضرائب جواب شافٍ على طلبي.

ـ نعم أذكر كل تلك التفاصيل يا سيدتي الجميلة، وأنا على يقين بأنهم سوف يردّون على طلبك. أعتقد أن إجابتهم سوف تأتي بعد أيام قليلة، فرسالتهم كانت إخطاراً يسبق الرد النهائي.

ـ لا أدري ما أفعله بالضبط... لو أنهم أجابوا طلبي؟ إني أفكر بنقل جسد حبيبي أولف إلى مكان آخر، ربما يكون لي بعد ذلك شأن، لحين إقرار قانون الدفن البيئي من قبل البرلمان.

ـ ولكنّ القانون واحد يا سيدتي، سواء في يونشوبينغ أو في أي مدينة سويدية أخرى.. وهي ذاتها أيضاً مصلحة الضرائب السويدية التي بعثت لك رسالة الإخطار عن قرب موعد انتهاء حالة الاحتفاظ بجسد زوجك في الثلاّجة.

ـ إذن ما الذي أفعله؟ فها هو الوقت يمضي دون أن تحسم مصلحة الضرائب رأيها وتوافق على طلبي بإبقاء جسد حبيبي أولف لفترة أخرى. ما أتعس تلك القوانين وما أخبثها!... تثلم أحلام الناس وأمانيهم بقسوة وبرودة وحشيّتين.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شعرت برغبة في البكاء، ووجدت نفسي مدفوعة للعودة جوار النافذة والنظر إلى لون الشمس الخريفي الغارب، الساقط فوق مياه البحيرة الرجراج. لا أعتقد أن رياض يفهم ما أعانيه، ولم أجد منه اللحظة ما يساعدني على استعادة الهدوء لروحي.

الأماني، الرغبات، مشاعر خاصة وغريزية.. أحاسيس لا يمكن ترجمتها أو شرحها للآخرين، وليس بمقدورهم إدراكها بسهولة. أعتقد أن من الصعب على العقل الآخر الوصول إلى خصوصيتها عند المقابل. تلك مشكلة رياض ومثله الآخرون، ومنهم مصلحة الضرائب، وحتى أعضاء البرلمان الذين يغلقون الباب بوجه إقرار لائحة المشروع الجديد الخاص بالدفن البيئي، ويبقى الوضع مسمّراً على حاله لتكون جميع أجساد الناس نهشاً للديدان.

ـ لقد أخبرني أولف بأمنيته قبل الحادث بفترة طويلة. وأعددنا كل شيء.. ودفعنا مبلغ التأمين كاملاً.

ـ أعرف هذا سيدتي، فقد تحدثنا عنه سابقاً.. تناولي حبّات الدواء وسوف تشعرين بالراحة. سوف أعاودك في الصباح. نوبتي اليوم مليئة بأعمال كثيرة. مساء سعيد سيّدتي الجميلة. أترغبين بمشاهدة التلفزيون؟

ـ لا.. لا.. اعتقدت أنك ستبقى جواري لبعض الوقت.. هناك تفاصيل لم أحدثك عنها سابقاً...

ـ آسف سيدتي.. اعذريني، وددت هذا ولكن ما باليد حيلة، فاليوم يوم عمل شاقّ وكثير.. ليس فقط مع السيدات والسادة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الـرائعين مـن أمثالـك، وإنمـا هنـاك عمـل فـي مخـازن الـدار والمطبخ. مع السلامة سيّدتي وتصبحين على خير.

ـ مع السلامة.. تمنيّت أن تصغي لي كما في كل مرة.. لا أعتقد أن هناك شيئاً يستحقّ التفكير والجهد مثل حالة جسد حبيبي أولف.

همست بذلك حين كان رياض يدفع دفـّة الباب بهدوء، ويمنحني ابتسامته الهادئة الودودة. تناولت حبّات الدواء. وعلى الرغم من أن الساعة لم تبلغ بعد السادسة مساء، فقد فـّضلت إلقاء جسدي فوق السرير في محاولة للحصول على إغفاءة، وبالأحرى تمنيت ألاّ أظل يقظة ومشغولة التفكير في أمر هذه الرسالة لوقت طويل، ولكن وجدتني لم أنل من محاولاتي شيئاً يذكر. واليوم أجلس وحيدة ولم يعد أولف الحبيب جواري، يا لتعاستي.

* * *

كان ذلك في زمان صعب كاد يطيح بكل شيء. ففي ذاك اليوم الشتائي البارد جاءني أولف وابتسامة كبيرة تعلو محّياه. كان يحمل بيده جريدة داكنز نهيتر التي كنا على خلاف دائم حول اقتنائها وقراءتها، فأولف يعشق مواضيعها، وبالذات مقالات وتحليلات السيدة ليندا أليكسون، تلك المرأة المتصابية بصورتها الموحية باللؤم، وكنت بدوري لا أسيطر على مشاعري حين يحاول أولف الإشادة بما تكتبه.

حين دفع الجريدة نحوي أردت أن أسحبها من يده وأرميها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بعيداً، فقد اعتقدت أن أولف بعد كل تلك المشاحنات حول الموقف من السيدة ليندا، يتجاسر ليعرض عليَّ قراءة مقال صاحبته ليندا أليكسون، نعم صاحبته؛ فقد سمعته يحادثها بالهاتف. صحيح أن الحديث كان يدور حول مقالاتها وشؤون السياسة التي يود أولف دائماً الحديث حولها، ولكن ذلك قد يكون بداية لتطور العلاقة وتصبح في النهاية شكلاً أخر، هكذا فكرت وقتذاك. وكنت حينها أظن بالكامل بأن الرجال دائماً هم أصحاب مزاج متقلب، وسرعان ما يصيبهم العطب أمام الغنج والعواطف النسائية. في ذلك الوقت لم أكن أعرف، لا بل لم أرغب، أن أكتشف كون أولف يخونني أم لا، ولكني فوجئت ذات يوم وأنا أبحث عن ورق للرسائل، حين عثرت في أحد دواليب مكتبه على حزمة صغيرة من قصاصات جريدة داكنز نهيتر، تلك القصاصات كانت جميعها لمواضيع السيدة ليندا. انتابني تأثير مؤلم اعتصر قلبي، وشعرت بالوحشة تملآ جوانحي. كان مجرد الإحساس بأن أولف يخفي عنّي تلك القصاصات يوحي لي تماماً بوجود علاقة من نوع خاص بينه وبين تلك الليندا، وكنت خائفة أشد الخوف من معرفة مدى ما وصلت إليه تلك العلاقة، وكان ذلك بذات القدر من الشعور بالعذاب والألم، اللذين استحوذا على كياني بالكامل. كنت خائفة وممزقة المشاعر والتفكير. أنكر أولف كل ما تحدثت عنه، وبابتسامة رضية كان يرد على كلماتي المتوترة المتسارعة، وبرر عملية جمع بحوث ومقالات السيدة أليكسون لأهميتها السياسية والاجتماعية وطرحها الجريء، وأنه أراد الاحتفاظ بها للمراجعة ليس إلا.

كانت أياماً صعبة وعصيبة ثقيلة على حياة كلّ منّا، فكلما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

نظرت نحو أولف شعرت بالخذلان والخيبة فلم يكن يخطر على بالي أن يمارس حبيبي أولف الخيانة، أية خيانة كانت، وهو الذي اعتاد أن يكون معي، كما هو معروف عن الأطباء، أكثر صراحة ومباشرة، وهذا ما عوّدني عليه طيلة حياتي معه. بعد مضي أقل من شهر على حادث اكتشافي القصاصات الورقية فاجأني أولف بالقول إن علينا تلبية دعوة عشاء في نهاية الأسبوع. حينذاك كان مزاجي عكراً والنار تتقد في أحشائي، ولا أستطيع أن أركز نظري نحو وجهه، مثلما كنت أفعل دائماً. أعتقد أنه كان يشعر بذلك، فقد اعتاد طيلة حياتنا الزوجية أن يراني أدع عينيّ تغوران وسط عينيه الزرقاوين، وأتملى وجهه الطفولي الحبيب وشفتيه وهما تتحركان وتنفرجان بين الحين والآخر عن ابتسامة ودودة صافية. بعد ثلاثة أيام سألني أولف بصورة مفاجئة إن كنت بعد لم أصدق ما قاله لي حول موضوع السيدة ليندا أليكسون، أجبته بنعم قوية ودون تردد، فقال أعرف هذا، فأنا لم أعد أرى عينيك بذلك الصفاء الذي يجعلني أفرح وأتلذّذ بحديثي، أتعذب وأنا أراك تشيحين وجهك عني، ثقي أنك تسيئين الظن، ولكن دعيني أقول إنّ علينا تلبية دعوة العشاء مساء السبت، فربما نكتشف هناك بعضنا البعض مرة أخرى ، امنحي حياتنا فرصة التجديد.. أرجوك. ما زالت تلك الكلمات تتردد في خاطري وكأني أسمعها الآن، وبقيت حية مشعة في ذهني. لقد منحتني حفلة العشاء تلك فرصة ذهبية لأستعيد بها جمال حياتي الطبيعي مع حبيبي أولف.

كانت دعوة العشاء في بيت السيدة ليندا أليكسون ذاتها التي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مــلأت بمقالاتهــا التــي تعلوهــا صــورها المتعــددة الوجــوه والابتسـامات، مكتـب زوجـي. اسـتقبلنا عنـد البـاب رجـل بوجـه باسم متورّد وجسد نحيل وشعر أشيب كثيف. كـان أنيقاً معطـراً يرتـدي سـترة كحليـة وبنطـالاً أبـيض مـائلاً للصـفرة. رحّـب بنـا بحـرارة وسـحب يـدي وقبّلهـا. وقبـل أن يأخـذ مـن أولـف باقـة الزهور سحبه من يده بعجالـة وضمّه نحو صدره وقبلـه علـى وجنتيـه، استغربت فعلتـه تلـك، فالرجـل السـويدي قطعـاً لا يفعـل مثل هذا مع ضيوفه، والرجل لا يبـدو أنـه شـرقي أو مـن أمريكـا الجنوبية، فكل شيء فيه يوحي بسويديته. بعد لحظـات أسرّ لـي زوجــي أولــف بعــد أن لاحــظ حيرتــي، بــأن الســيد إدغــار سـرفاتكس، وهـو السـيد الـذي اسـتقبلنا قبـل لحظـات، مـن أصـل يونـاني. ولجنـا الـرواق الواسـع المفضـي إلـى الصـالة. وضـعت على جانبي الباب من الـداخل آنيتـان زجاجيتـان كبيرتـان بـألوان ونقـوش شـرقية، وعنـد الجـدار الأيمـن وُضـعت لوحـة لمـلاك بجنــاحين يمــدّ يــده عبــر الغيــوم. وردت فــي خــاطري رســوم دافنشي، ولولا ألوان اللوحة الباردة وحركة جسد الملاك الهادئة الرخـوة لرسـخ فـي بـالي ذلـك الاعتقـاد. عرفـت بعـد ذلـك أنهـا واحدة من لوحات السيد إدغار نفسه. توقفت للحظات أنظـر إلـى طاولـة صـغيرة وضـعت عنـد نهايـة الممـر، فوقهـا جهـاز هـاتف ودفتر بغلاف جلدي يبدو أنه سجلّ لأرقام الهواتف كما بـدا لـي. كانـت زخرفـة المنضـدة ذات شـكل خـلاّب يـوحي بأنهـا صـناعة صـينية، فالعـاج المحـاط بخـيط ذهبـي يشـكل جسـداً لتنّـين يلتـف حول محيط الطاولـة. كم من مّـرة تمنّيت أن أحصـل علـى مثـل تلك التحف الجميلة التي شاهدت مثلها سـابقا فـي الحـي الصـيني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فـي لنـدن، ولكـن لـم أقتنِهـا وقتـذاك بعـد أن وعـدني أولـف أن يصحبني معه في سفرته القادمة إلى اليابان، لأشتري من هنـاك ما يعجبني، ولكّن تلك الأمنية بقيت عالقة في خـاطري دون أن تتحقق.

حـين انعطفنـا نحـو غرفـة الضـيوف الفارهـة، كانـت هنـاك مجموعتـان مـن النسـاء والرجـال. وقـف الرجـال لتحيّتنـا والترحـاب بنـا، ومـن ثـم جلسـوا ليتـابعوا أحـاديثهم التـي كـانوا يتداولونها قبل قدومنا. جلست قرب امرأة بدت وكأنها جاوزت الخمسين، ولكنها كانت تحافظ على بشرة نضرة وألق ظاهر فـي عينيهـا الخضـراوين، تبادلنـا الابتسـامات لا غيـر. وكانـت هناك مجموعة من أربعة أشخاص تتحلق حول طاولة صغيرة وُضعت فوقها كؤوس النبيذ، وفي الجانب الأيسر جلست ثلاث نسوة يتهامسن ويطلقن ضحكات خافتة خجولة. جلس أولف بجانبي وأحاط كتفي بساعده وراح يجول بنظره وجوه الباقين مبتسماً لهم ويحيّيهم بحركة انحناء خفيفة من رأسه شعرت معها أنها المرة الأولى التي يلتقيهم بها. ثم ركّز نظره نحو الباب الذي ولج منه السيد إدغار نحو الداخل.

لوحـة كبيـرة الحجـم عُلـّقت علـى الجـدار خلـف مجموعـة النسوة، وكانت ألوانها دهنية فاقعة يطغى فيها اللون الأخضر الميال للزرقة، ويظهر بشكل واضح أنها مستوحاة من طبيعة الحيـاة فـي أحـراش أفريقيـا. دققت النظـر جيـداً وقـرأت الاسـم الموجود أسفل اللوحة، كان اسم السيد إدغار سرفاتكس أيضـاً. مـع دقـة وتناسـق الخطـوط مـع مسـاقط الضـوء وتوافـق الأبعـاد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وتمازج الألوان، تيقنت أن السيد سرفاتكس كان رساماً محترفاً. فأنا كنت هاوية رسم، وفي بداية حياتي مارست تلك الهواية خلال الدراسة المتوسطة والثانوية، وتلقيت الكثير من الثناء والإطراء على أعمالي، ولكن لم أكن راغبة في إكمال الشوط، لذا عفت الألوان والرسم بالرغم من إلحاح أولف عليَّ للعودة وممارسته.

فجأة ظهرت السيدة ليندا أليكسون من فتحة الباب حيث كان ينظر أولف. كانت تسحب بيدها اليسرى كفّ السيد إدغار الذي دفع يده اليمنى ليحيط خصرها. وقفت عند الباب وسط الصالة فأصبح السيد إدغار لصقها محتضناً إياها. حينذاك قالت السيدة ليندا: أيها الأصدقاء حفلتنا الصغيرة هذه مناسبة لها طعم خاص، لا بل معنىً آخر غير الذي تعودنا عليه.. حفلتنا اليوم نستقبل فيها للمرة الأولى صديقنا العزيز الدكتور أولف بيورن وزوجته الطيبة، وكان بودنا أن يكونا ضمن مجموعتنا منذ وقت بعيد، ولكن ظروف عمل الدكتور أولف وعملنا أيضاً لم يتوافقا أبداً، مثلما كنا نتوافق معه في الكثير من الآراء التي كنا نتحاور حولها. على أية حال، إنها فرصة سعيدة أن نراهما بيننا اليوم، ولأقدم شكري الخاص للدكتور بيورن على ملاحظاته السديدة القيمة التي أفادتنا دائماً في ما نطرحه من أفكار في الصحف والمؤتمرات. استدارت الوجوه نحونا وحّيتنا ببشاشة وتودّد. ثم أكملت السيدة أليكسون قائلة، المناسبة لدعوتنا اليوم هي أخباركم أيضا بقرارنا المصيري، ولكن قبل هذا أجد من المناسب القول، إنكم اليوم ستتذوقون وجبة عشاء يونانية خالصة من ألفها إلى يائها، وأنا لا دخل لي فيها سوى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تحضير الصحون ووضعها فوق المائدة. وعذراً منكم إن لم نستطع جلب ماء الشرب من اليونان، زوجي الحبيب آدو هو من هيأ وأعد كل شيء. وأردنا من كل ذلك أن نجعلكم تتذكروننا كلما اشتقتم للطعام اليوناني، فقد قررنا أنا ليندا أليكسون وزوجي إدغار سرفاتكس أن نقضي بقية العمر في جزيرة إيدرا اليونانية، حيث مسقط رأس آدو الحبيب، هناك حيث تعيش بقية من أسرته، وربما لا يعرف البعض منكم بأن من هذه الجزيرة البديعة التي يجب أن تزورونا فيها، انطلقت حرب التحرير ضد الدولة العثمانية، وهناك سوف نطلق لحبّنا العنان ولنجوب البراري والوديان. ثم التفتت ليندا نحو زوجها وضمّته إلى صدرها، وراحت معه بقبلة طويلة استقبلناها نحن الضيوف بالتصفيق والبعض بالصفير.

في طريق عودتنا إلى البيت، لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة رغم مداعبات وقفشات أولف، ولم ألتفت نحوه غير مرة واحدة، شعرت فيها بالخجل يغطيني بالكامل، وكان وضعي النفسي سيئاً رغم مشاعر الفرح والطمأنينة التي تجتاح كياني، خليط من وجل، من سعادة، من توتر، وجدت نفسي في موقف حرج، ولكني كنت في الوقت ذاته راضية أقصى الرضا عن هذا الذي حدث، وتيقنت أنّه لولا أناة وحكمة أولف، لكان الأمر قد تطور وصار أكثر إيلاماً وتعاسة لكلينا. ما رأيته وسمعته في حفل العشاء جعلني أشعر بفيض من سعادة كان يغمرني بالكامل، شيء يستحقّ تسميته بالإحساس المفرط بالراحة والبهجة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عند باب بيتنا، همست باسمه فالتفت نحوي، لم استطع السيطرة على مشاعري فرحت أجهش بالبكاء وبدوره ضمني إلى صدره، فشعرت وكأنها المرة الأولى التي أحسّ فيها مقدار الدفء والطيبة والطمأنينة التي يغمرني بها أولف. قد يكون أولف قد فعل ما يعيب، ولكني على يقين بأن ذلك لا يثلم من حبه لي شيئا، حتى وإن حدث مثل هذا فإني لم أعد أهتم بغير قدرتي على التعلق به، وبسيرة تلك السنوات المريحة الجميلة التي عشتها وحققت فيها أمنيات كثيرة، وإني لأشعر اليوم بقدرتي وجاهزيتي للحاق به وبأقرب وقت.

* * *

لا رغبة عندي لمشاهدة التلفزيون، وكان النعاس قد بعد كلياً عن عيوني وشعرت أن السرير غير مريح على الإطلاق. أدرت جسدي نحو الجانب الآخر، وطالعت الجدار الموشّى باللون الزهري وثمة خطوط لظلال ورود صفراء صغيرة تطرزه طولاً وعرضاً. كانت هناك جوار الحائط سندانة صغيرة وُضعت فوق منضدة تهدّل منها بإهمال الغطاء الحريري. وسط السندانة غرس عود دقيق تتسلقه أوراق شجرة شبيهة بأوراق شجر السرخس الإسفنجية، وظهرت من بين ثنيّات الأغصان بضع ورود بيض فاتنة.

تلك السندانة أتى بها رياض في اليوم الأول من دخولي الدار، وقد شكرته على هديته، وتلك كانت مقدمة لتعارفنا الذي أعتقد أنه بات مجلبة لرضاي وبقائي صامدة في مثل هذه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

العزلة المضجرة والموحشة. لم أكن لأرغب البقاء وحدي، ولم أعتد ذلك منذ زواجي من أولف. وكنت لا أمقت في الدنيا شيئاً بقدر كرهي لساعات يقضيها أولف بعيداً عنّي.

في تلك الأمسيات الشتوية الطويلة، حين يهطل الثلج ثقيلاً في الخارج، كنت أجلس قرب المدفأة بانتظار أولف، فقد اعتاد أن يهاتفني ليخبرني أنه مضطر للبقاء في عمله إلى وقت متأخر. ولكن لم يكن ذلك الهاتف ليطمئنني عليه، فأنا كنت أحمل هواجس غريبة ومتعبة، وثمة إحساس بالخوف يراودني كلما أخبرني أولف بتأخره في المجيء. أشعر بالخوف يسربل روحي وأنا أستمع لصوت الريح وأشجار الصنوبر السامقة تهتز تحت ضربات الريح العاتية، وتتهدل أغصانها جرّاء ثقل الثلوج المتساقطة بكثافة. كنت أظل طوال الوقت ساهمة متوترة الأعصاب حتى قدوم أولف. أسمع صوت محرك سيارته وهو يدخلها المرآب، ثم طرق حذائه وهو ينفضه عند الباب الخارجي. هذا الأمر كان يتكرر بشكل متعب وقاسٍ خاصة أيام العواصف الثلجية. كنت أفسر الأمر وأسميه عصاب الخوف من المجهول، وحين أخبر أولف بذلك يروح ضاحكاً ويضمني إليه.

- حبيبتي ما زلت تنتظرين...

ثم قبلة وكالعادة وردة براقة، كان يطلق عليها دائماً وردة الصفح والغفران، أي أن عليَّ أن أغفر له فعلته وتأخره كل هذا الوقت. ولكني كنت أحس بأن تلك الورود، وفي كل مرة، مبعث لشعور دافق بالحب وإبعاد لما يتلبّسني من مشاعر خوف وقلق.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شعرت بثقل الوقت وهو يسير ببطء مرير وممل. سحبت رسالة مصلحة الضرائب مرة أخرى ورحت أجول بنظري بين سطورها دون أن اقرأ جملة كاملة منها، فأنا حفظت محتوياتها عن ظهر قلب، وهي معي تشاطرني مضجعي منذ ذلك اليوم المشؤوم. أستطيع أن أعدّ كلماتها الجافة الخشنة الباعثة على الأسى والفزع. كيف يتسنى لهم فعل ذلك. مضى الكثير من الأشهر وهم يماطلون في اتخاذ القرار في البرلمان. يا ترى ما دوافعهم من هذا الأمر، رغم الوعود التي يطلقونها عن قرب اتخاذ القرار. فحتى الآن، وحسب ما أخبرتني به السيدة سوزان ماساك، هناك أكثر من مائة من الجثامين محشورة في الثلاجات منذ أكثر من خمسة أشهر، تنتظر موافقة الدولة على مشروع الدفن الجديد. وقبل هؤلاء أصابت الخيبة الكثيرين من أهالي الموتى الذين ذهبت جثثهم بعد حين طعماً للديدان. كل تلك الجثث في الثلاجات المنتشرة في أماكن مختلفة من السويد، ومعها أحبتهم من العوائل المسكينة، تنتظر القرار دون جدوى. والأدهى من ذلك أن حفظ تلك الجثث في الثلاجات لا يتم مجاناً بل مقابل ثمن، خمسون كرونا لليلة الواحدة. وإن لم يتوفر لأهل الميت مبرر مقنع لبقاء الجثة في الثلاجة، فمصلحة الضرائب سوف تجبر أهله على دفنه بعد مضي ستة أشهر في أقصى احتمال، أو تأخذ مصلحة الضرائب على عاتقها أمر الدفن، وتحميل أهل الميت مصاريف ذلك. ولكني لم أدع الموضوع يمرّ دون البحث عمن ينقذ جسد حبيبي. ففي حالات استثنائية يمكن تمديد مدة بقاء الجسد لفترة أطول، ربما تتعدى حدود الأربعة أشهر أخرى. لقد قدمت طلباً بذلك، وعرضت فيه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مبررات كثيرة لأجل الحصول على التمديد. عرضت عليهم ضرورة تلبية رغباتنا أنا وزوجي، وهي تمثل أهمية قصوى له ولي شخصياً. أخبرتهم بأننا دفعنا بدل الاشتراك كاملاً، ولكلينا ونحن سوية ننتظر أن ندفن على طريقة الدفن البيئي، وأن حبيبي أولف باتت روحه ترفرف الآن عند شجرة التفاح التي اختارها، تلك الشجرة التي حددها واختارها بعناية وكان وفي كل مرة نمّر من أمامها يحيّيها مبتسماً، ويطالعها بشغف ومحبّة وقد أخبرني بأنه يشعر بأن كيانه وروحه امتزجا مع نسغ تلك الشجرة. كنت أحسده على ولعه ومحبته لهذه الشجرة، لأني وبالعكس منه لم أنتقِ شجرة بعينها بل حددت في ورقة الطلب، أن يكون جسدي جزءًا من شجرة ورد دون تعيين، واكتفيت بذلك. أمنيتي أن تمتزج روحي وبقايا جسدي وتنمو في برعم ينتظر الربيع ليفجّر طاقته، ثم تندفع روحي منسابة هادئة تنفرج عنها زهرة شذا عطرها يفوح في المكان.

أذكر ذلك جيداً الآن، وروحي تتمزق ألماً لفقد حبيبي. كانت لحظات غضب لم يدعها أولف تسيطر عليَّ أو تعكر صفو تلك الأمسية. فحين دفع الجريدة نحوي، تلك التي أردت أن آخذها وأرميها بعيداً، والتي اعتقدت وقتها أن أولف يتجاسر ليعرض عليَّ مقال السيدة ليندا أليكسون، ضحك أولف وضمّني إلى صدره وهدّأ من روعي، عارضاً ما يريد أن يطلعني عليه.

كان التقرير الذي حوته الجريدة يحتل صفحة كاملة. جلسنا وتناولنا عصير الفواكه، وناقشنا بحرارة تقرير السيدة سوزان ماساك أخصائية أبحاث البيئة، والتي تنشر مواضيعها الصحية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

والعلمية في جريدة الداكنز نهيتر أيضاً. كان أولف وهو يناقش أمر الطريقة الجديدة بالدفن، يشعر بغبطة فائقة وفرح يغمر روحه، وراح يصور الموضوع وكأنه اكتشاف لعملية إنقاذ تاريخية من معضلة كانت تؤرق البشرية. فجأة، وبنشوة غامرة قال أولف: لم يعجبني طيلة حياتي غير منظر شجرة التفاح حين تتفتح زهورها بذلك اللون الزهري الخلاب، كنت أجلس تحتها أفكر بتفاؤل وأنا أشاهد الزهور وهي تتساقط فوقي ومن حولي، أعتقد أن أمنيتي سوف تتحقق بعد ما عرضته السيدة ماساك، أريد أن أكون جزءًا من شجرة تفاح مثمرة فوافقته على فكرته.

كان تقرير السيدة سوزان ماساك في الجريدة، والذي قمنا أنا وأولف إثره بطلب لائحة الشروط وملء أوراق الطلب والحصول على الموافقات، وإتمام عملية دفع مبلغ التأمين الأولي وباقي الإجراءات، كان يتحدث عن عملية دفن حديثة للجسد، سمّته السيدة سوزان بالدفن البيئي. وقد شرحت بالكامل العملية والكيفية التي يتم فيها تحلل الجسد وما هي المكونات التي سوف تستقبلها تربة الأشجار، وتمتزج عناصره العضوية بعد تحللها بالنسغ، ومع مرور الوقت تكون جزء لا يتجزأ من جسد الشجرة وروحها. وقد قُدمّ المقترح إلى البرلمان للموافقة عليه.

عملية الدفن البيئي تختلف كلياً في الكثير من الإجراءات عن عمليات الدفن العادي أو الحرق التي يذهب الجسد بعدها ليكون إما طعاماً للديدان، أو رماداً يوضع في قنينة تركن مهملة في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إحدى زوايا البيت، إن لم تركن في قبو المهملات، ومع مرور الوقت تُهمل وتُنسى ويعلوها التراب، أو بعد أن يوضع اسم الميت فيها، ترمى القنينة في أقرب بحيرة أو بحر، أو حتى جدول ماء. السيدة سوزان شرحت العملية بالكامل. فهي ومجموعة أخصّائيّين توصلوا إلى طريقة بيئية للتعامل مع الجسد بعد الوفاة، ليكون الناتج بعد تحلله مجموعة عناصر كيميائية بخواص ومواصفات محددة. الطريقة تعتمد على العناصر الكيميائية في الجسد وفيزياء الحركة وغاز النيتروجين. يوضع الجسد داخل صندوق خشبي ثم يدخل في صندوق صنع من معادن فائقة المقاومة حيث يحاط التابوت بوسط كثيف من غاز النيتروجين وتحت درجة حرارة تبلغ 196 تحت الصفر بالتحديد، ليتم تجميد الجسد، وتكون هذه الدرجة ذات تأثيرات تحدثها تفاعلات الفلزات التي يحتويها الجسد، بعد هذا يتم رجّ الجسد داخل التابوت بقوة وسرعة تقارب سرعة الصوت، عندها تتم عملية تفتت الجسد ليصبح على شكل مسحوق ناعم لمّاع رطب، يخلط بنترات الرصاص وبعض الزئبق، بعدها يمكن تطويع المادة الناتجة إلى ما يشبه سائلاً ثقيلاً بعض الشيء، تحقن به جذور الأشجار وتوضع بقية منه بين الشقوق واللحاء والتربة المحيطة بالشجرة، ليكون تأثيره فعالاً في ارتفاع خصوبة التربة وزيادة في طبيعة نمو النبتة وليختلط جسد الشخص بروحها.

تلك الليلة سهرنا أنا وأولف حتى ساعة متأخرة من الليل، ناقشنا ما طرحته السيدة ماساك في جريدة الداكنز نهيتر بسعادة وغبطة. حاولنا أن نكون عمليّين. كان أولف عند الشهر الأول

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

من العام الثالث لتقاعده عن العمل، وكنت قد لحقته بسنة واحدة حين أكملت الخدمة وطلبت الإحالة على التقاعد. لقد جهد أولف أن يعمل قدر المستطاع وبشكل كفوء وبنكران ذات لأجل صيانة سمعته كطبيب، وبروح شفّافة وواعية من أجل مرضاه. لقد كانت مشاريعه دائماً طموحة مثلما يطرح في بحوثه. عمل أكثر سني وظيفته في مستشفى مدينة يونشوبينغ، ولكنه في نفس الوقت كان كثير السفر ليشارك في المؤتمرات العلمية أو إلقاء المحاضرات ومناقشة بحوث في مختلف دول العالم. في جميع تلك السفرات كنت أجد نفسي، وفي كل مرة، أقترب كثيراً شيئاً فشيئاً من أولف، فكانت سعادتي برفقته لا توصف وكان طيلة الوقت يغمرني بالمحبة ودفء العواطف، ويقدّمني لزملائه وأصدقائه وحتى لتلامذته بكلمات وإيحاءات فخر وتشجيع لا يمكنها أن تغيب عن بالي، أو أفقدها بقدر ما يعني ذكرها نوعاً من السلوى التي تنعش حواسّي، وتثلج قلبي الذي أشعر به، وبعد أن هرب الوقت منا، قد كلّ وتعب وباتت الآلام والوحدة المضنية تثقل عليه، فأصبح يضيق بكل شيء مع اختفاء أولف الحبيب من أمام ناظري. لقد عشت أجمل سني حياتي مع أولف، أو إني لم أعش قطّ دون أولف. لست نادمة على أي شيء في حياتي معه، لقد شبعت من الحياة نفسها، لأني عشتها بين أحضان أولف، وهو لم يعد جواري الآن، أريد أن أذهب إليه فلم يعد لجسدي قيمة بعده، ولا يوجد ما أحتفظ به غير ذكرياتي معه.

أتذكر ذلك اليوم جيداً. كان يوماً خريفياً غائماً وأوراق الشجر غطت الشارع الواقع جوار مركز المحافظة. اليوم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

السابع والعشرون من أيلول عام 1945 كنا سبعة عشر شخصا نرفع لافتتنا الحمراء، ونقف أمام مركز المحافظة استنكاراً لجريمة الولايات المتحدة الأمريكية المتمثلة بإلقاء قنبلتيها النوويتين على اليابان. لفت انتباهي شابّ بشعر ذهبي يرتدي قميصاً شذري اللون تحت بلوزة بنفسجية خفيفة بأزرار مزدوجة. دخل وسط جوقنا وراح يردد معنا الأناشيد الثورية. سحب صورة صغيرة من تحت بلوزته وعلّقها فوق صدره. لفتني فضول لمعرفة صاحب الصورة دون أن يستحوذ الشابّ على اهتمامي الكامل بادئ الأمر. نهاية تظاهرة الاستنكار اقتربت منه لأسأله عن صاحب الصورة فزاد جوابه من جهلي وحيرتي حين سماه لي: تروتسكي، ولكن من هو تروتسكي هذا، هكذا قلت.

كانت تلك بداية تعارفنا، ومن بعدها استمرّت لقاءاتنا. لقد كنت في سنّ المراهقة، لم أكمل بعد السابعة عشرة، وكان هو يكبرني بثلاثة أعوام. تزوجنا بعد أربعة أعوام من لقائنا الأول ولم ننجب أطفالاً. فبقينا دائماً وحيدين نعيش لبعضنا البعض، يحبني مثلما أحبه، لم أجد يوماً ما ما يدفعني للندم على شيء عشته مع أولف.

كانت آخر وصية تركها لي حين لفني بين ذراعيه قائلاً: لا تدعيهم يحرقون جسدي أو يطمرونه تحت الأرض. أريد أن أدفن وفق طريقة الدفن البيئي الجديدة. لقد دفعنا التأمينات ونحن نقف في الدور ولا أريدك أن تسبقيني، فإما أنا قبلك أو نكون سوّية.

أشعر بالذنب وهذا يؤرقني بشكل لا يطاق. فقد ذهب وربما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كان يتملكه الغضب مني، لأني تركته وحيداً مسجّى في عربة الإسعاف. وجهه المنقبض لا يفارق مخيلتي، وتلك العينان الزرقاوان تطالعانني، بل كانتا تودعانني فأشعر برعدة في جسدي. تخشّب لساني وقدماي تيبستا. ما كان ينبغي أن أتركه، ولكن حالي المشوشة وارتعاش جسدي ووهنه، كل ذلك جعلهم يمنعونني من مرافقته. لا يهم فأنا أتبعه حتى الآن، وسوف ينتظرني كالعادة. أعرف أنه لا يطيق العيش دوني. سوف ينتظرني ونكون سوية مثل عبق الورود في صيف بليل. ينتظرني بوردة الصفح والغفران. وسوف أضعها في آنية وأسقيها كي لا تذبل. ما زلت مقتنعة بأنه كان على صواب حين اختار لنا طريقة الدفن البيئي، فهي العملية الوحيدة التي تمكننا من الالتقاء معاً وإبعاد الخوف عن روحينا. إنه يقبع الآن مجمداً في ثلاّجة جافة موحشة، ولكني أظن أن روحه تتطلع للقائي. لا تستوحش البرد فأنا قريبة منك، ولن أدعهم يفعلون بك ما يريدونه.

عليَ أن لا أدع الأمر يفلت من يدي، فالرد الذي أترقبه ربّما أصل به مع مصلحة الضرائب إلى نتيجة تضمن الحفاظ على جسد حبيبي أولف، لحين موافقة البرلمان على مقترح الدفن البيئي، عندها يتحقق حلمنا لتنمو روحانا مرّة أخرى في الطبيعة ونبعد عن جسدينا دود الأرض. وإن أصرت مصلحة الضرائب والدوائر الأخرى، على دفن جسد حبيبي وفق ما يريدونه، فسوف أقوم بنقل الجسد إلى بلد آخر يقبل أن يحتفظ به لحين حصول موافقة البرلمان على مشروع الدفن البيئي. أجد أن ذلك مخرجاً حسناً بالرغم من أنه يتطلب جهداً ومالاً.. المال لا يعني شيئاً، ولكن من يتكفل بأعمال النقل، ذلك الشيء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الـذي يتطلـب الكثيـر مـن المعـاملات الخاصـة، وأيضـاً ربّمـا تعترضه الكثير من المعوقات.. ليس لي بعد الآن غير صديقي ريـاض، فهو شـابّ خـدوم قـوي الجسد والعزيمـة. ولكـن أتـراه يوافق على مثل هذه المهمة. سوف أعجّل بـالأمر وأطلب منـه ذلك في الصباح الباكر.

* * *

نقر طير دقيق المنقار فوق حاشية النافذة الخشبية محـاولاً الوصـول إلـى حشـرة اختبـأت بين طيّاتهـا، كـان يحـاول التشبث بطـرف النافـذة الأملـس. جناحـاه الصـغيران يرّفـان بعجالـة مرتبكة. يدسّ منقاره في الشق الرفيع ومخالبـه تتشبث للإمسـاك بحافـة النافذة، وبعنـاد ومثـابرة كـان منقـاره فـي دأب يغـوص ثـم يغـوص فـي البحـث. كانـت الشـمس الكسـيرة تشـق بضـوئها الشاحب سحابات رمادية جللت السماء. كـان الجو مكفهراً ذلك الصباح. ثمة أوراق شجر صفراء تذروها ريح الخريف قرب النافذة، ترتفع ثم تهبط نحو الأرض مثل فراشات متأرجحة ، أو تندفع لتصل حافّة البحيرة. كان رنين جهاز التنبيه يبعث صوته المكتـوم بتكـرار رتيـب يتسـاوق مـع دقـات منقـار الطـائر المتسـارعة. التاسـعة صـباحاً ثمـة بعض الأصـوات تصـدر مـن المصعد المجاور لباب الغرفة، وعاد الطرق ليتكرر فوق البـاب ولكن وسط الغرفة لم تكن هناك من حركة توحي بالحياة. كانـت السـيدة أولـف متيبّسـة الجسـد تطـالع السـقف بعينـين زجـاجيتين مفتـوحتين علـى سـعتهما، حـين دخـل ريـاض وسـحب المـلاءة البيضاء وغطى كامل جسدها الضامر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ورقة اليانصيب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

سئمت من تدوين ما يصادفني من حوادث يومية، اعتدت تسطيرها، بترهاتها و جدّيتها، في دفتري ذي الغلاف البني الداكن المرقط بندب كثيرة سببتها أعقاب السجائر التي أسهو أحياناً فأضعها فوقه، ولقد وجدت أن تغير شكل غلاف الدفتر، جعله يبدو مناسباً جداً لذوقي. اليوم اتخذت قراراً بالتوقف عن التدوين، والقرار له أسباب عديدة، ولكن واحداً من أهم دوافعه، هو نظرة الفضول السخيفة السمجة التي يرمقني بها مرافقي البولوني الشرير. اليوم زادت نظراته وقاحة وتطفلاً، فهو يرنو نحوي بعينيه بين لحظة وأخرى، ويبتسم ابتسامة شاحبة أشعر أنها تخفي لؤماً مبيتاً، ومع هذا كنت أحاول إهمال ذلك قدر المستطاع، لذا رحت أقلب قنوات التلفزيون بسرعة ودون عناية، محاولاً إبعاد اهتمامي عنه، ولكني أعرف جيداً نظراته المتلصصة الخبيثة وما يخفي وراءها أو ما يريد بها تحديداً. إنه يحاول استفزازي ويعاند في ذلك، لذا طويت الدفتر ولم أعد أعطي له مجالاً لتلقف ما سطرته من كلمات. أُدرك أنه لا يعرف اللغة التي أكتب بها، ولكنه يفعل هذا من باب المناكدة التي أبغضها وأمقتها، إنه يحاول إثارتي ليس إلا.

فضوله يثير شفقتي، ولكنني أمقت ذلك، بقدر ما أحمل له من كره كشخص أشعر أنه فُرض علي فرضاً من قبل مسؤولة البلدية في منطقة السكن، العجوز كاترينا. لم أستطع حينها رفضه فثمة موانع كثيرة كانت تقف في مواجهة هذا الأمر،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ليس أقلها أني وللمرة الثالثة أتشاجر مع المرافق الذي خصصته البلدية لمرافقتي. المرة الأخيرة كان المرافق هو من طلب إعفاءه من مهمة مرافقتي بحجة تكرار عراكي وخصوماتي غير المبررة. والأكثر من هذا إنه ادعى أنني حاولت شتمه والطعن بشرفه دون وجود مبرر معقول لذلك، وتمادى في نهاية الأمر، وقال وعلى مسمع مني بأنه لا يحتمل بعد الآن التعامل مع معتوه مجنون ووحش مثلي، فردت عليه المسؤولة بشيء من الغضب، وطلبت منه أن يترك مفتاح الشقة وبطاقة المرافقة، ففعل ذلك بسرعة وكأنه يحاول التخلص من حمل ثقيل.

لم أغضب حينها وشعرت بشيء من الراحة، ولم أحاول إنكار الأمر أمام كاترينا العجوز المسؤولة عن ملفّي الشخصي في سلطة البلدية. ولم تكن لي حينها رغبة للرد على اتهاماته، أو الأحرى وبالوصف الدقيق، كنت منتشياً، وانتابتني حالة من السعادة وأنا أراه يتحدث بصوت مهشم ومتعب وبوجه شاحب، شارحاً علاقته المتوترة معي وأسلوبي الفظ وغير العقلاني بالتعامل، وامتناعي المستمر ولساعات عن الحديث معه.

في ذاك اليوم واجهتني كاترينا، وللمرة الأولى، بشيء من الحنق والغضب والنظرات غير المريحة، وبنوع من الاشمئزاز وكأنها تعني ما تقول بشكل جازم لا لبس فيه.

ـ هذا ثالث مرافق يشتكيك ويهرب منك، إذا أستمر هذا الحال سوف نضطر لإرجاعك إلى دار العناية بكبار السن. هل ترغب بذلك.. لماذا لا تريد أن تكون طبيعياً.. ؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

انتابتني قشعريرة وشعرت بمرارة تتصاعد في أحشائي ونطق لساني بصوت خافت أقرب للهمس.

ـ لا، أرجوك.. لا أريد الرجوع إلى دار العجزة.. أرجوك، سيكون حالي أفضل.. سأغير من وضعي.. أعدك بذلك... سوف أجعل حالي أفضل بكل تأكيد.. ليس دار العجزة أرجوك.. سوف يتحسن الحال...

أملك مشاعر متضاربة حول هذه السيدة العجوز. ففي بعض الأحيان أشعر بميل مناسب نحوها، وأغبط نفسي كونها تعتني بي وتراقب وضعي وتعطيني الحلول لبعض مشاكلي، لا بل تساعدني في الكثير مما أنشده من مساعدة، وهي تشرف على علاقتي بالمرافق ونوعية الخدمات التي يقدمها لي. ولكني في ذات الوقت أكره فيها صرامتها ومزاجها المتقلب وتأنيبها المستمر لي.

في ذلك الوقت شعرت بمقدار الحزن الكثيف الذي سيطر عليّ، وانتابتني حالة من الفزع وأنا أتذكر دار العناية بالكبار الذي هددتني بإرجاعي إليه. ذلك المشفى الذي يبعث في الروح قتامة وسوداوية مفزعتين. برائحة ممراته العطنة وبهوائه المشبع بروائح الموت، وعجائزه من النساء والرجال حين يروحون ويغدون في ممراته مثل أشباح متهالكة تنتظر أن تغلق عليها التوابيت، وليله الطويل المعتم وأصوات التأوهات المكتومة. لقد قضيت هناك ما يقارب السنة رغم كوني بعمر الأربعين، كنت أظن أن لا مخرج لي بعدها لحياة سوية. نقلوني إلى تلك الدار بعد أن رقدت في المستشفى لفترة ثلاثة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أشهر إثر سقوطي من شرفة الشقة التي كنت أسكنها لوحدي في منطقة تنستا في العاصمة ستوكهولم. سُجل الحادث عند الشرطة كحالة انتحار، وفسرت اللجنة الطبية في سلطة البلدية الحادث بالمعنى ذاته، الذي استقر عليه تقرير الشرطة، بالرغم من أني أخبرتهم بأني قفزت من الشرفة بدواعي محاولتي إنقاذ صديقي فؤاد المضرج بالدم، والذي كان يلوح لي بيده، وصوته يذوي ويختفي مع التأوه والتوجع. لقد مزقته الشظايا، والثقوب ظاهرة فوق بذلته الخاكية وكان الدم ينز منها بقوة. وأردت أيضاً منع أمي من تمزيق صورة كانت تلوح بها في الهواء وتهددني بتمزيقها، وما كنت لأعرف صاحب الصورة، ولكنه بدا بشكله الخارجي قريب الشبه مني. وكان طفلا صغيرا يشبهني أيضاً يسحب ثوبها ويتوسلها أن تعطيه الصورة، بينما كان يغرق في مياه البحيرة. أردت الاقتراب منهم، حاولت الوصول إليهم، لم يكونوا بعيدين عني. لقد حزمت أمري فلم أكن مستعداً لمنع نفسي من إنقاذ صديقي، والحصول على رضا أمي وإيقاف الغضب التي سيطر عليها دون مبرر. استطعت أن أمسك بيديَّ وبقوة سياج الشرفة وأترك جسدي يتدلى نحوهم. كان صوت فؤاد يختلط بصراخ الطفل، وهواء كثيف يندفع ليرفعني نحو الأعلى. لامست أصابع الطفل، سحبتها ولكنها تمطّت، وبقي الطفل عالقاً وسط الماء. كنت أنا أتمدد أيضاً وأجرجر قدميّ بتثاقل لكي أصل إلى ما بعد الساتر حيث يرقد فؤاد. شاهدت دموعه وشعرت مقدار الوهن الذي كان عليه جسده. لقد كان هناك صوت عميق ثقيل يندفع صداه في أذنيّ. أصغيت له جيداً. شعرت ببرد قارس وثمة ألوان

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كثيفة تتجمع في عينيّ. كان جسدي ينسحب خفيفاً مثل ريشة يلاعبها الهواء، والسماء تقترب مني شديدة الزرقة، تشع من خلالها ألوان تومض مثل البرق. انزلق جسدي وهويت، اقتربت منهم أكثر وأكثر. لم أفق بعد تلك اللحظة، وأظن أني بقيت مغشياً عليَّ لفترة طويلة. وحين أفقت من غيبوبتي وجدت نفسي أرقد في مستشفى داندريد غرب العاصمة ستوكهولم، مسجّى فوق سرير قريب من النافذة. تحسست جسدي فوجدتني لا أستطيع تحريك يديّ وقدميّ من الجانب الأيسر، وأن رأسي تغطيّه لفافة ثقيلة. قال لي الطبيب إن غيبوبتي استمرت لأكثر من أسبوعين، وراودهم اعتقاد بأن المدة سوف تطول بسبب إصابة الرأس، ولكن يبدو أن جسدي يمتلك القوة الكافية للتماثل على الشفاء. هذا ما قاله وهو يسلط ضوء الكشاف داخل عيني.

دوّن في تقرير الشرطة أن ليس هناك شخص باسم فؤاد يسكن بالقرب من شقتي، أو يمت لي بصلة في مدينة ستوكهولم أو خارجها، وأن البحيرة ليست جوار شقتي بالضبط، وأن أمي ما زالت تسكن العراق. وأكدّ التقرير على أن الحادثة كانت محاولة انتحار، ربما سبقها تناول بعض حبوب الهلوسة أو بعض الحبوب المهدئة التي وجدوها قرب سريري. اعترضت على تقرير الشرطة وحاولت أن أفهمهم بأن ما حدث كان صحيحاً كل الصحة، وأني لست مختل العقل، ولم أتناول طيلة حياتي أي نوع من الممنوعات أو الشراب المسكر. وكنت بكامل وعيي حين شاهدت ولمست ما حدث، ولم يكن حلماً أو خدعة أو هلوسة. لم يصغ لي أحد ولم يرغبوا الاستماع للوقائع التي عشتها وشاهدتها لا بل لمستها. لم يصدق قصتي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

سوى الممرضة السمراء الهندية الأصل راشما. كانت تواسيني وتضمد جرحي كأم رؤوم، وتجلس في الكثير من الوقت جوار سريري تحكي لي حكايات عن عالم السحر والأرواح، وكانت تعتني بجراحي التي سببت لي بالنتيجة إعاقة في أطرافي اليسرى وشلتني عن الحركة.

أتأمل وجه راشما وهي تناولني الدواء، وتحاول مساعدتي على ابتلاع أقراصه العديدة الكريهة الطعم والرائحة، وكنت أنظر يديها الناعمتين وهما تجددان لفافة الرأس الذي شُجّ بجرح غائر مثلما أخبرتني، وكانت تقول كل مرة وهي تداعبني بابتسامتها الرقيقة الخجولة إن الإله كرشنا حماني كثيراً، وهي في كل يوم تصلي له ليكون حارسي الأمين.

قضيت الأشهر الثلاثة في المستشفى وأنا أتقلب بشكل يومي بين يدي الأطباء. قضيت معظم وقتي أراقب مرآب السيارات وحركة الناس أمام نافذتي، وأتناول الطعام في السرير وأشاهد برامج التلفزيون المعلق في زاوية الغرفة التي يشاركني فيها رجل مسن يئنّ طوال الليل، وقد اختفى بعد فترة زمنية دون أن أعرف إلى أين ذهبوا به، ولم أرغب في السؤال عنه. وبعد يومين حل محله شيخ آخر أكثر توجعاً وأنيناً. كنت طيلة الوقت أحاول تذكر الحادث وإعادة تصويره في ذهني المرتبك والمشوش. كنت على يقين تام بأن ما حدث معي لم يكن هذياناً أو أضغاث أحلام أو حتى تهويمة. صحيح أني مرتبك في نومي، وأعاني من قلق وفزع وكوابيس دائمة، وأتناول عند الحاجة بعض الحبوب دفعاً للأرق، ولكني كنت أنظر للأمر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بوضوح شديد ويقينية. ولكني كنت دائماً، حين أتذكر كل تلك الأشياء، أجد نفسي بين حالتي الغضب الذي يخالطه الحزن فتسيطر عليَّ مشاعر من كآبة شديدة، شخّصها الأطباء بكآبة مرضية متواترة ورهاب، ولم أفهم لحد الآن معنى الكآبة المتواترة ولا حتى الرهاب.

في أيامي الأخيرة في المستشفى، حققت معي شرطية جميلة كانت تفغر فمها بسذاجة مفرطة وبمسحة أسف ظاهرة، تنصت لحديثي وكأنها مسحورة وتدون في دفترها بعض الملاحظات، وقد خرجت وهي تودعني بابتسامة باهته شعرت بأنها كانت تجبر نفسها على افتعالها بكياسة شديدة، ولم أرها بعد هذه المرة. كانت أيامي تمر ببطء شديد، وتكتسي بملل ممض، وبين فترة وأخرى أستدعى للفحص من قبل مجموعة أطباء وتلتقط لرأسي صور بالأشعة. وقد تحسن وضعي الصحي بشكل سريع بعد أن تقدمت بالعلاج الطبيعي وبدأت السير ببطء وتحريك يدي اليسرى بعض الشيء. في أسبوعي الأخير في مستشفى داندريد، كنت كمن مسّه الجنون، فطيلة الوقت أشعر بأن الجميع يسيئون معاملتي وسيطرت عليَّ رغبة بالهروب، ولكني كنت أشعر بأني لم أسترد بعد عافيتي، وقوتي الحقيقية التي تمكنني من العيش دون اعتماد على الآخرين. كنت أعرف مقدار عجزي، فتنتابني مشاعر خوف وفزع لا أعرف كيف أسيطر عليهما. كنت أحس بين فترة وأخرى بالاختناق، وأحاول أن أسبر وجوه من أواجههم كي أكتشف ما يخبئونه لي. ربما هي مشاعر مريض واهن القوى، ولكنه كان إحساساً يرقد في قلبي بشكل ثقيل دون فكاك. حين ذهبت إلى الطبيب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

النفساني قادتني راشما إليه. عند باب الطبيب ركنت مقعدي المتحرك، وتوسلتها بنظراتي أن لا تتركني وحدي، كنت أشعر بضعفي، وأن ما يتملكني من مشاعر مهزوزة لم تكن لتساعدني للإجابة على جميع الأسئلة التي سوف يطرحها هذا المخبول الذي مللت من بحثه المضني، عن سلوك غير سوي ينتاب تصرفاتي جراء إصابة الرأس، مثلما كاشفني هو بذلك. لكن راشما تركتني وودعتني بابتسامة لذيذة بعثت في روحي بعضاً من الطمأنينة.

بداية، لم يلتفت لي، بل كانت نظراته تتسقط ما هو مدون على ورقة في يده، وبعد لحظات وقف وسط الغرفة ومد لي يده مصافحا وذكر كالعادة اسمه ثم طلب مني الجلوس.

وككلّ المرات السابقة، كررّ علي الأسئلة ذاتها، عدد الإخوة والأخوات، الحالة الاجتماعية، هل أجيد السباحة أو أية رياضة أخرى، علاقاتي بجيراني، نوعية الأفلام التي أرغب مشاهدتها، هل لي علاقات جنسية، نوع المشروبات الروحية التي أفضلها. أجبته عن كل ذلك، ثم طلب مني أن أوضح العلاقة التي تربطني بفؤاد الذي ذُكر في التقرير، فشرحت له تلك العلاقة وصداقتنا التي صنعتها ظروف المعارك في جبهات القتال. وسألني عن صلة القرابة التي تربطني بفؤاد، فأخبرته بأن لا علاقة قرابة تربطنا، ولكنه كان أقرب لي من الجميع في تلك المحنة. لقد أصيب أثناء الهجوم في منطقة الشوش الإيرانية، كان ينزف دماً قرب الساتر، كان القصف كثيفاً، وكان فؤاد يناديني، ولكني لم أستطع التقدم نحوه، لقد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تركته ينزف هناك وهربت، نعم هربت. عندما تحدثت بذلك كانت عواطفي تنفجر انفجاراً عنيفاً، فوجدت جسدي يرتعش، ورحت في نوبة حادة من البكاء. لم يحرك الطبيب ساكناً، وتركني على حالي وراح يطالع ما مدون على جهاز الكومبيوتر الذي أمامه. عندما هدأت بعض الشيء، اختلس الطبيب النظر نحوي ومد يده نحو ساقي مربتاً دون أن يبدي عاطفة محددة. شعرت في تلك اللحظات بمقدار حاجتي لمواساة، مواساة تمحضني شيئاً من عاطفة تواسيني بقدر الألم الذي يعتصر صدري، ربما راشما هي من كنت أرغب أن تكون جواري هذه اللحظة.

في تلك اللحظات دخلت فتاة بثياب الممرضات، وسلمت الطبيب ورقة وحدثته في أمر لم أنتبه له. كنت حينها أمسح دموعي وأشعر بتكسر الحسرات في صدري. كانت هناك مشاعر لا أعرف كنهها تنتابني بحدة، تختلط مع عجزي الذي شعرته كاملاً. تلك المشاعر التي سببت لي تشنجات وألماً رهيباً وكأن شيئاً ما يريد الإفلات من رأسي. لم يكن وجه الطبيب ذي السحنة البيضاء الباردة بنظرته الجامدة ليساعدني على احتمال كل ذلك الألم، أو إبعاد ما يساورني من أحاسيس مضطربة. تأكدت بأنه لن يكون أكثر من شخص فظّ بارد العواطف، يريد أن يصل إلى نتيجة ترضي أنانيته. بعد هذا طلب منّي مثل المرات السابقة أن أروي له قصة هروبي من الخدمة العسكرية، ثم كيف تسنى لي الوصول إلى السويد. أعدت عليه القصة كاملة، ولكنه أوقفني عن الحديث عند جملة بعينها. وبعد أن وصلت في وصف رحلتي عند دخولي مدينة موسكو،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

سألني عن معالم المدينة وإن كنت زرت قبر لينين في العاصمة فقلت له بأني عشت في مدينة بطرسبورغ وليس في موسكو. ثم سألني هل سبق أن انتميت لحزب سياسي أيام دراستي الجامعية، وما هي عدد سنوات عملي الحزبي وهل تعرضت للاعتقال أو التعذيب في العراق.

صَمتُّ ولم أستطع التعبير عن غضبي، ولكن دارت في رأسي جملة من شتائم، عبارات ماجنة قبيحة، شعرت بأن هذا الطبيب يستحقها. فبعد أن كنت أحاول السيطرة على نفسي والتصالح مع عالمي الذي أعيشه، أشعر الآن بأن هذا الطبيب يحاول رميي خارج ذلك العالم. أنا المريض الخائر القوى المشتت البال عليَّ الآن أن أحزر ما يخبئه لي هذا الدكتور الجاسوس، ما يريد أن يصل إليه. هذا الأمر أغاظني أيما إغاظة، وبدأ يجرح مشاعري، وتذكرت حكاية صاحبي الذي أخبرني عن فضيحة تناولتها الصحف السويدية في يوم ما حول علاقة مدير شرطة العاصمة السويدية بالسفارة العراقية، وكيف كان يزودها بأسماء طالبي اللجوء والتحقيقات التي تجريها السلطات السويدية معهم.

بعد أن جاش في صدري الضيق والضجر والفزع، شعرت بعواصف تلف رأسي لم أعد أحتملها، وأيقنت بشكل كامل بأنه يبغضني بشكل واضح، ويريد أن يستدرجني ليوقع بي، وهذا ما يبدو من هيئته المتعجرفة وأسئلته المباغتة الحقودة. انفجرت أخيراً على حين بغتة وصرخت بأعلى صوتي.

ـ لا لم تكن لي علاقة بأي حزب، والموت وحده من دفعني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

للهروب من العراق. وإن أردت أن تدون ما ترغب في إيصاله إلى السفارة العراقية فسجل عندك بأني أكره الحكومة وأمقتها كل المقت.

كان جوابي المباغت من الوضوح والحدة بحيث رفع جسده سريعاً عن المقعد ليقترب مني ويربّت بيده على كتفي، وبتهذيب شديد طلب مني أن أطمئنّ وأريح نفسي، وأن لا أفكر الآن بالإجابة. ولكني لم أنتظر فدفعت يده جانباً ورفعت قامتي بصعوبة بالغة، وفتحت الباب وحملت قدميّ على المسير في الممر الطويل ناسياً استخدام مقعدي المتحرك الراقد جوار الباب.

في اليوم الثاني كنت أجلس مهموماً ساهماً حين سألتني الممرضة راشما عن رأيي بالإله كرشنا وهل حلمت به أو رأيته في وقت ما يجلس جواري، فضحكت وقلت لها مازحا: أكيد، ولكنه لم يكن لوحده فقد جلس معه إمامان من آل البيت، فدهشت أيما دهشة وتساءلت عمن يكون آل البيت، وطلبت مني أن أحدثها عنهم فوعدتها، ولكني، ولحد الآن، لم أف بوعدي، فقد غادرت المستشفى حيث تم نقلي إلى دار العجزة في منطقة سولنتونا في شمال العاصمة ستوكهولم.

ـ أين أنت يا راشما؟... أين أنت؟

في ذلك الوقت طالعتني العجوز كاترينا باستغراب ودهشة وهي تسألني عمن تكون هذه الراشما.

ـ لا شيء، تذكرت ممرضتي اللطيفة التي ساعدتني في المستشفى.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ لا شيء جديداً إذن.. سوف نجد لك مرافقاً آخر يساعدك في قضاء بعض حاجاتك، ولكن عدني بأن تكون لطيفا كيسا معه، وتترك عاداتك السيئة.

ـ أعدك سيدتي.. ولكن..

ـ ليس هناك لكن بعد الذي حدث.

شكرتها وخرجت تحيطني غمامة من ضجر، وشيء من خوف يغلّ في صدري. أعرف أني لم أكن أملك الكياسة التي يترقبها مني الناس، ولكن على شدة ما عانيته في مجمل حياتي أشعر بأن شفائي من جروح النفس لا يمكن أن يكون سهلاً وطبيعياً أو ما يعادل شفائي من علة الجسد. فمشاعر الخوف والتوجس باتت تهد طاقتي، وأصبحت اندفاعاتي مقلقة لي بالذات، فمثل الهذيان تفلت مني تصرفات لا أجد لها تفسيراً، وأسرف في سلوكي الخائف والمشكك ولا أستطيع السيطرة على مشاعر الغضب من غير أن أحبس نفسي داخل قوقعتها، وأترك العالم الخارجي يدور حولي مثل غمامة لا علاقة لها بما يجري في روحي، وما يعتمل في ذهني. وبتّ أشعر بأن الأماكن مسكونة بأرواح لا هم لها سوى مراقبتي وإثارتي.

* * *

هذا المرافق البولوني بزغ أمامي فجأة. وجدته بعد أقل من يوم، ممّا جرى مع المرافق الثالث، يطرق بابي ليلقي عليّ تحية الصباح بابتسامة عريضة ويقدم لي نفسه شارحاً مهمته التي كُلّف بها من قبل دائرة البلدية، مظهراً لي ورقة قرار

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المرافقة الممهور بتوقيع السيدة كاترينا. كانت رائحة دخان السجائر الكريهة العالقة بثيابه تبعث على الغثيان. سمحت له بالدخول ولكن لم يفتني أن ألقي عليه نصيحتي التي أكررها مع الجميع. على المرء أن يحذر من أن تعلق به رائحة السجائر، ولذا عليه أن يقوم بغسل فمه واستعمال الفرشاة أو العلكة لتنظيف أسنانه بعد كل مرة يتناول بها سيجارة، وإلا علق الدخان بملابسه وفمه، فكره الناس صحبته والتقرب منه.

ابتسم وولج نحو الداخل عبر الباب المفتوح، وهو يكيل المديح لنصيحتي هذه، وقال إنه سوف يفعل ذلك في المرات القادمة، لا بل سوف يفكر بخاتمة قريبة لعلاقته بالتدخين. ولكنه حين جلس على الكرسي المجاور لمقعدي نظر نحو الصفيحة التي كنت أستعملها لإطفاء السجائر اكتسى وجهه بملامح دهشة ظاهرة وقال وهو يزم شفتيه، وابتسامة صفراء علقت عليهما، بأني أعفر الشقة بالدخان، ويظهر أني مفرط بالتدخين، وهذا ما يبدو من كثرة أعقاب السجائر المرمية داخل علبة الصفيح الصغيرة. وزاد على ذلك بقوله إن دخان السجائر يعلق حتماً بجدران الشقة والأثاث والملابس، فلم لا ألاحظ ذلك وما دوافع نصيحتي التي قدمتها له إن كنت أهملها من جانبي. تلك اللحظة شعرت أن هذا الشيطان البولوني بدأ المعركة دون مقدمات، وهو يستفزني، لا بل يحتقر فكرتي عن موضوعة دخان السجائر، ويريد إحراجي ووضعي في الموقف الضعيف و اتهامي بالرياء والكذب. جلب انتباهي حذاؤه العالي الكعب، المدبب، وبمقدمة دقيقة طويلة تبدو كمنقار طائر. دهشت وكتمت ضحكتي. كنت أعرف أن هذا النوع من الأحذية لا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ينتعله غير الصبيان وبالذات الوقحون منهم، وهو يدل على شخصية مستهترة قليلة التهذيب، عندها نبهته إلى أن حذاءه ربما يسبب نوعاً من الإيذاء لأرضية الشقة، فعليه أن يخلعه دائماً جوار الباب الخارجي. وأنبأته بأني تسلمت هذه الشقة قبل سنة مضت وحافظت عليها، ولا أسمح لأي كان تخريبها. ابتسم وهمّ بالوقوف وهو يسألني إن كنت أرغب قهوة أم شاياً. لم ينتظر مني الجواب فقد أعطاني قفاه متوجهاً نحو المطبخ فصرخت: أتعرف أين توجد القهوة... لم تسألني حتى.. فما كان منه إلا أن التفت نحوي ونظر لي شزراً وصرخ بوجهي: ما الذي يجعلك تصرخ هكذا... أيستحق الأمر ذلك.

كإحساس عارم لا يغالَب، سيطر عليَّ خوف غريب وشعرت بمدى ما أنا عليه من عجز أمام هذه النظرة القاسية الوقحة. يؤلمني دائماً أن أتذكر تلك اللحظة. لحظتها كان يتصاعد غضب عارم في أعماقي، ولكني كنت كمن تملكه رعب شديد فأطرقت نحو الأرض ملتزماً الصمت واستغرق الأمر كله بعض الوقت. ولكنه حين عاد ربّت على كتفي وهو يضع كوب القهوة أمامي وكانت شبه ابتسامة عالقة على طرف شفتيه فبادلته الابتسام على مضض.

حاولت أن أسبر ما تضمره ملامح وجهه لأكتشف ما ينوي عمله بعد لحظة المخاشنة التي صبغت لقاءنا الأول. كانت عيناه صغيرتين مثل عيني عصفور، تحيط بهما هالة رمادية داكنة بعض الشيء. كان من الصعب أن أكتشف ما تنويه تلك العينان المتلصصتان وهما تجوبان دون توقف في محاولة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

للإحاطة سريعاً بتفاصيل الشقة وهيئتي التي بدت في أقصى حالات رثاثتها.

كان مجرد تفكيري باللقاء الأول مع هذا الأخرق يجرح مشاعري ويؤذيني أيما إيذاء، وهذه المشاعر بدأت تتحول إلى كره بعد مضي الشهر الأول من مرافقته لي، وبدأت أشعر بأني اتخذت قراراً حاسماً بالوقوف في الضفة الأخرى، وهي ضفة أسميتها أخرى لأضع هذا الشيطان بعيداً عنّي بمسافة تعطيني القدرة على رؤية ما أريده بشكل مناسب. وضعته بعيداً عني رغم حضوره اليومي ووجوده جواري وقد قررت مقاطعته واخترت أن أكون وحدي حتى بوجوده. كنت أريد أن أثبت له قوتي وقدرتي على الخصومة. ربما شعر بهذا الشيء وحاول أن يكسر هذا الطوق ليعبر إلى ضفتي، ولكني قررت أن لا أسمح له، لا بل أمنعه بكل ما أوتيت من سبل. بدأت أشاكسه وأناكده. وبدوره لم يكن يعاملني برقة ولطف، ولم أشعر ولو للحظة بغير ذلك، لذا وضعته في خانة الأعداء. فإن كان يحاول إثارتي بفضوله وتلصصه على أشيائي الخاصة فهو أيضاً يستفزني دائماً بعبارات مباغتة خشنة أحسبها أكثر ابتذالاً من وجهه العبوس وضحكته الشيطانية الساخرة.

الساعات الثماني التي يقضيها في مرافقتي بدت ثقيلة عليَّ مثلما هي ثقيلة عليه، وبدأت أحاديثنا شبيهة بألغاز. نزر من حديث متقطع حول أمور ليست بذات بال. كنت في أغلبها التزم الصمت طيلة الوقت، وكانت أسئلته وجمله الفجائية تغيظني، فأحاول عدم الرد، وأروح أطالع التلفزيون متنقلاً بين قنواته

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بسرعة دون توقف. ما كان يتذمر من ذلك أو يبدي أي استياء، بل يجلس ويروح يراقب حركاتي مبتسماً بتشفّ. الساعة العاشرة صباحاً يعطيني المجموعة الأولى من أقراص الدواء، ويذهب لغسل ملابسي ومن ثم ينظف ما اتسخ في الشقة، ويحضر لي بعض الأحيان شيئاً من طعام. وقبل نهاية دوامه يعطيني الوجبة الثانية من الدواء ويضع أمامي قرصاً أخر على الطاولة عليّ تناوله في المساء.

كانت أحاديثه تكتسي دائماً طابعاً غريباً يستحيل معه أن أكون فكرة متكاملة عما يريد أن يوصله لي. أعتقد أن لكنته البولونية واللغة السويدية التي يملكها كلانا، لا تنفع في التواصل بشكل ناجز. نحن نمتلك المزايا ذاتها في هذا الجانب، ولذا لا يمكن أن نخوض بشكل معمق في حديث متواصل. وأنا كنت، في أغلب الأحيان، أفضل الصمت وأترك له ما يشاء التحدث فيه. الحديث بهذر واصطناع المرح والخفة كانت أكثر مزاياه ظهوراً، لا بل لا يملك ميزة غيرها. جلّ حديثه عن حياته يدور حول إحدى القرى القريبة من وارشو، وكيف هي الحياة اليومية للفلاح هناك. كان يقلد ثغاء الأغنام وخوار البقر ونقيق الضفادع وزقزقة العصافير، وأصوات الحيوانات الأخرى، ليضفي على وصفه طبيعة الواقع، وكان يفعل هذا بصوت طافح بالفرح، ووجهه يكتسي حمرة وشغفاً باللحظة. كنت أبتسم في داخلي مستهزئاً بمحاولاته التي لا أدري كيف أفسرها. أحياناً، ومن خلال ثرثرته، أستشف وبشكل أكيد أنه يعتقد أني قدمت إلى السويد من عالم آخر يختلف كلياً عن عالمهم الأوربي. عالمنا لا يحوي غير صحراء جرداء يهيم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فيها البشر، بحثاً عمّا يسد الرمق، ولذا لم تسنح لي الفرصة لمشاهدة الريف وسماع أصوات حيواناته، وكان في بعض الأحيان يفصح وبجدّ عن فكرته هذه. وفي أحيان أخرى يراودني ظن بأن ذلك الأمر جزء من الخفة التي تتلبسه دون مقدمات، ولا يمكن له كتمانها. وهذا ما توحيه بعض جمله أثناء الحديث. وحين يريد استفزازي وإثارتي، يروح في وصف الشرق، والعراق منه، بالبلدان الفقيرة غير المتحضرة، فيجدني قد استشطت غضباً، فيبدأ بإسباغ الفكاهة على حديثه ليبعد الجو الملبد بالشر. كان ترددي والحزن والكآبة الحادة التي تتملكني في أغلب الأحيان تجعلني في قلق وشك دائمين ينغصان عليَّ حياتي. حتى الترهات التي يفتعلها مرافقي تتحول في روحي إلى وساوس وأحاسيس غريبة من الخوف والانفعال يمنعانني من أن أستكين وأهدأ، فأشعر بالانقباض لساعات طوال، لا بل تأخذ مني تلك المشاعر أياماً طولاً دون أن أستطيع إبعادها.

كان يخرج معي لساعة أو ساعتين، نتسوق ونقضي بعض الوقت في مسيرة تمتد جوار حافة البحيرة الواسعة التي تقع غير بعيد عن شقتي والطريق المفضي إلى مركز التسوق. إنه لشيء ممتع أن يصمت المرء وهو يطالع فضاءً من الزرقة يمتد بعيداً دون حوافّ أو حدود في فراغ أزرق رجراج، ويسير دون أن يطلب منه أحد ما، شخص ما، مزعج ما إيضاحاً عن شيء محدد. فسحة الوقت تلك والمسير نصحني بهما طبيبي الخاص قائلا إنهما أفضل من الدواء لاسترجاع عافيتي وقدرة ساقي اليسرى على الحركة. ومع تكرار المسير اليومي، بدأت أشعر بنوع من التحسن، أخذت معه أنقل قدمي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بحركة رغم بطئها، فقد كانت تعينني على إنجاز تنقلاتي بشيء من الراحة، وبدأت حاجتي للكرسي المتحرك غير ما كانت عليه سابقاً. وكان ذلك فارقاً كبيراً عن السنة الماضية التي كنت فيها عاجزاً كلياً عن السير لأكثر من عشرين متراً.

في كل مرة أنبهه بأن يبتعد عني بعض الشيء حين نسير جوار البحيرة، وكنت ألقي عليه طلبي ذاك بإيجاز ووضوح تامين، رغبةً مني أن أسير بطمأنينة ووثوق من قدرتي على المشي دون عون، فكان يدعني أقطع شوطاً طويلاً مبتعداً عنه. أما هذا اليوم فقد وافق رغبتي، ولكني كنت أشعر بأنه لم يكن بعيداً عني بما فيه الكفاية، وأحياناً يحاول كسر صمتي بدندنة سخيفة سمجة أو استعمال الهاتف والحديث بصوت مرتفع مع الشخص على الطرف الآخر، أو رمي الحجارة في الماء أمامي أو تحذيري دون مبرر من السير بسرعة أو التقرب من الماء.

ـ لماذا تلطخ ملابسك دائماً عندما تتناول الطعام؟

كانت جملته هذه مثل صاعقة هطلت على رأسي، ولكني لم أحفل بها بادئ الأمر وبما تستحقه من غضب، وضبطت إيقاع مشيتي مثلما أعصابي التي توترت إلى أقصى حدود التوتر. التزمت الصمت ولكنه اقترب مني وكررها بشيء من الحدة، فالتفتّ نحوه وأنا أغلي غضباً وأجبته وأنا أصرّ على أسناني.

ـ لا شك أني أتصالح مع الجميع في هذا الكون عداك.

وببرود مفتعل وضحكة ضاجة أجابني:

ـ ولكنا لم نكن متخاصمين مطلقاً. وسؤالي يتعلق بوضعك مع كثرة الملابس التي تتسخ دون مبرر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أجبته وأنا أشيح وجهي عنه.

ـ هذا شأني، وإن كنت تجد نفسك متعباً من تنظيفها فدعني أغسلها لوحدي.

احتواني بيديه الثقيلتين وهو يطلق ضحكة مجلجلة، وحاول أن يهزني مقرباً جسدي نحو حافة البحيرة. كان واضحاً أنه يهم بدفعي نحوها، فارتجّ جسدي وشعرت ببرد وخوف شديدين. تشبثت برقبته بكامل ما أملك من قوة، وبدأت أصرخ طالباً النجدة. ظهر بعض الأشخاص من بين الأشجار القريبة وكان واضحاً أنهم يستطلعون الأمر ليس إلا، فلم يحاول أحد منهم التقرب منا. شاء حسن الحظ أن يظهر هؤلاء في تلك اللحظة، على حين غرة، ولولا ظهورهم لما عرفت كيف يمكن أن ينتهي عليه الأمر مع هذا الوحش البولوني المستهتر. كان مرافقي يطلق ضحكات متقطعة، ويدفعني نحو الأمام وكأنه يمازحني، ولكني كنت على يقين بأنه حاول دفعي عنوة نحو البحيرة. تنحيت جانباً وأنا أنظر بتوسل نحو هؤلاء الناس، شاهدت ابتساماتهم ونظراتهم المتطامنة، والتي تعني في كل الأحوال أنهم غير معنيين بما يحدث. ولكني كنت وقتذاك مضطرباً أشد الاضطراب، فعقدت المفاجأة لساني فكتمت صرختي التي أطلقتها بادئ الأمر.

سجّلت كل ذلك في دفتر ملاحظاتي اليومية. سجلته واصفاً الواقعة بدقة متناهية لم أغفل حتى وصف تلكم الوجوه التي لم تكترث لطلبي النجدة منها. دوّنت ملاحظاتي، بالرغم من أني أهملت عن عمد، ومنذ زمن طويل، أن أسجل فيها أية ملاحظة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عن هذا المخلوق البولوني، اعتقاداً مني بأن ذلك يمثل احتقاراً حقيقياً له، وأنه لا يستحق أن يدخل في ملاحظاتي كشخص له أهمية ما، وتلك رغبة سكنتني بالكامل لفترة طويلة.

لقد دوّنت الواقعة بالكامل، دوّنت حركته، وسجّلت حتى عدد صرخاتي حين طلبت النجدة بادئ الأمر، ووضعت وصفاً دقيقاً لوجوه الناس الذين شاهدوا الحادثة، بهيئاتهم وأنواع وألوان ما يرتدون من ملابس. رسمت خارطة لموقع الحدث وساعته. مضى على الحادث أكثر من شهرين، ولكنه وضعني في حالة حذر واستنفار شديدين، ولم أستطع إهماله بالرغم من جميع محاولات البولوني التي أراد فيها أن يوحي لي بأن الأمر ما كان ليعدو غير مزحة أراد منها إخراجي من حالة الكآبة التي تنتابني. رحت، وبحذر شديد، أراقب حركاته وسكناته وهو لا يفعل شيئاً سوى تكرار ابتساماته البلهاء واجترار الحديث عن مغامراته وطبيعة الحياة في قريته البولونية جوار العاصمة وارشو.

في المسير الاعتيادي جوار البحيرة، رحت أبتعد مسافة ليست بالقليلة عن حافة الماء وأتلصص بنظري نحو مرافقي. وبدأت رغبتي في التنزه تقل يوماً بعد آخر، خوفاً من أن يكرر فعلته.

كالأيام السابقة، ولجنا داخل السوق واتجهت إلى الكشك في طرفه الأيسر حيث طلبت علبة سجائر وبطاقة يانصيب تسمى (تريس) كنت ومنذ قدومي إلى السويد أشتريها مرة كل أسبوع، ولم يفتني ذلك الأمر حتى حين رقدت في المستشفى، حيث

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كنت أطلب من الممرضة راشما أن تشتريها لي. كنت أستخدم مع تلك البطاقة طقساً خاصاً. أختلي فيه مع الورقة، أتناول الشاي وأنا أقشط ببطء وتلذذ طلاء الأرقام والصور من على الورقة، وأمنّي النفس بجائزة دسمة. لم يخطر على بالي أن أحسب عدد المرات التي اشتريت فيها ورقة اليانصيب، فالسنوات الثماني مضت سراعاً ولم أكسب من تلك اللعبة غير مرتين فقط، الأولى كانت مائة كرون والثانية خمسة وعشرين، ولو أردت جمع ما أنفقته في شرائها لكان الحال أفضل من دون هذه الورقة الساحرة.

مشيت جوار البحيرة مسافة طويلة، فشعرت ببعض الإعياء وكأني سرت على قدمي نهاراً كاملاً. كان قرص الشمس يهبط رويداً خلف المياه التي بدت تتلون بلون الغسق الأحمر. شعرت بشيء من البرد رغم أن الصيف لم يخبُ بعد. عبر الشارع جوار البحيرة، هناك غابة صغيرة كثيفة الأشجار تفضي مداخلها إلى ساحة صغيرة بالقرب من شقتي، أما جانب البحيرة الشمالي فهناك غابة أخرى كثيفة تفصح عن كامل وحشتها وربما أسرارها حين يهبط المساء. لم أرغب قط الدخول في جوفها بالرغم من الإغراءات والتطمينات التي كانت تقدم لي من قبل أغلب الذين عملوا معي كمرافقين. كنت أشاهد الناس يدخلون إليها ويخرجون منها. ومسيراتهم تلك خطّت العديد من الطرق الميسمية الظاهرة كمخارج ومداخل لتلك الغابة. كنت أتهيب حتى التفكير بالوصول إلى مسافة قريبة منها أو تصور ما يحتويه جوفها من غرائب. أحياناً يشط ذهني فأجدني أفكر بتلك الغابة وكأنها تبدو مثل مصيدة للبشر تسكنها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

السعالي التي تصنع من رؤوسهم المسلوخة تعاويذ تعلقها فوق أعالي الأشجار. راودني هذا الإحساس طيلة المرات التي اقتربت فيها من تلك الغابة اللعينة. حدسي هذا قارب الحقيقة لمرات عديدة حين لمحت عيوناً تتلصص من بين كثافة الأغصان، وسمعت أيضاً أصواتاً لحشرجات كائن يذبح أو يعذب. لذا كنت أتحاشى أن أكمل المسير وأختصر الطريق مبتعداً عنها. فالرعب الذي يسيطر عليَّ لا يوازيه خوف سوى رعب أيامي القاسية الموحشة التي قضيتها عند السواتر في معركة الشوش.

استدرت متوجهاً نحو الشقة، فتبعني مرافقي الذي كان يثرثر مع أحدهم عبر الهاتف النقال. فتحت باب الشقة وقلت له: لم يبق من الوقت غير نصف ساعة، تستطيع الذهاب، فأجابني إنه سوف يضع الأغراض في مكانها وينصرف. فعل ذلك بعجالة وأغلق الباب خلفه. شعرت بالارتياح، فتحت جهاز التلفزيون وأخذت أبحث في القنوات العربية. لا أذكر بالتحديد المدة التي انقضت على شرائي لجهاز اللاقط للقنوات الفضائية العربية، ولكن التأريخ ذلك ليس ببعيد، فجاري المصري الطيب صاحب الوجه القريب الشبه بوجه فأرة، والذي يحمل قلبا طيباً محباً ويتودد للآخرين بفرح ومسكنة، تصل أحياناً حد الإزعاج والضجر، هو من نبهني لأهمية حصولي على لاقط القنوات. وقال بلهجته المحببة، إن القنوات العربية سوف تذهب عني وحشة الشعور بالوحدة، وإن الإنسان يحتاج التواصل مع خلفيته حسب التعبير السويدي، لكي يعيد أواصر روابطه بشعبه وبلغته. عندها اقتنعت بفكرته وتكفل هو ومرافقي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نصب الجهاز اللاقط كاملاً. ولكن فكرة الإمتاع تبددت تدريجياً وبدأت أسأم تلك البرامج التي أغلبها سياسية أو تتحدث عن كوارث ومصائب وخيبات، أو أخبار مؤذية لا بل سخيفة جداً. حتى برامج المنوعات ما عادت تستهويني، فأصبحت مهووساً بالتنقل بعجالة دون التوقف لفترات طويلة عند قناة تلفزيونية بعينها، ولكن ما كان يهمني هو أن أستمع لأصوات عربية تتردد في داخل شقتي، دون أن أعير اهتماماً بالموضوعة التي يدور الحديث حولها. أصبح ذلك عادة مألوفة عندي. لم تكن نصيحة جاري المصري بالذات ما رست عليه قناعتي أو فضّله خياري، بالقدر الذي عنيته من وجود رطانة قريبة مني. هذه الرطانة العربية، بالرغم من إحساسي بسخافتها وعدم اهتمامي بمواضيعها، فأنها كانت تبعد عني بعض الشيء مشاعر الوحدة وتضفي على محتوى غرفتي المتجهم الرتيب شيئاً من حياة. ما أكثر ما تستطيع فعله تلك الأصوات في النفس، بالرغم من أني ميال للعزلة، ولكني أدرك أيضاً مقدار ما تكتنزه روحي من الفضول، وهذا لوحده صار المبرر المقنع لكسر وحدتي ووجود لاقط الفضائيات.

* * *

وقفت أطالع الشارع المتعرج الممتد أمام نافذة الشقة. كان لون الزهور البرية الصفراء يغطي جوانبه ، وثمة عجوز ترعى كلبها الذي راح يقفز مرحاً ويلتف حولها بدورات مشاكسة. تذكرت كوب القهوة الذي وضعته فوق المنضدة منذ حين، وانتبهت إلى أني نسيت أن أغلق جهاز القهوة. جلست

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أرتشف القهوة بتلذذ. سحبت علبة السجائر فسقطت ورقة اليانصيب أمامي، شعرت ببعض الراحة فتناولتها بهدوء ووضعتها فوق المنضدة، طالعتها وأنا أسحب نفساً عميقاً من سيجارتي. تناولت الملعقة وبدأت أقشط بنهايتها العريضة مواقع الأرقام فوق وجه الورقة.

سرت في جسدي رجفة، وتوقف ذهني كلياً وأنا أشاهد العلامات الثلاث للديناري تظهر على الورقة. لقد جاء الحظ أخيراً. لم أهيئ نفسي لمثل هذا الموقف، وسعادتي عند تلك اللحظة كانت أكبر من أن أحتملها. نفسي أشرقت أيما إشراق، فرحت أصرخ وأضحك وأبكي، أهذي وأنا أحلق فرحاً مثل فراشة، لم تلامس قدماي الأرض. لا لم تلامساها. تأكدت أن العالم يحتجزني في رقعة صغيرة منه، يغلق منافذ الهواء ويسد في وجهي نظّارة النور. كان جسدي يلتهب حماساً وهياج أعصابي دون حدود. تدحرجت على الأرض ورحت أضربها وأبكي. تبعثرت قواي وشعرت بالإنهاك الشديد وبألم موجع يحرق يدي المتيبسة العليلة. سحبت ورقة وقلماً وحاولت احتساب ما سوف احصل عليه من مبالغ. ذهني المشتت المرتبك لم يستطع السيطرة على الأرقام، وعجزت كلياً حتى عن إدراج ما عرفته من أرقام بسيطة. كانت إشراقة قلبي لا يحتملها صدري وروحي فكانت لحظة تتقافز فيها شرارات من نار وحديد مصهور تحاصر ذهني وتعصره عصراً، فسقطت وجسدي ينتفض مثل عصفور تتقاذفه الريح دون رحمة. اضطجعت على ظهري ورحت أصفق بيدي. غنيت معها أغنية تذكرتها ولكن وجدتني لم أكملها فصرخت بقوة، لقد أصبحت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الآن غنياً، نعم سأكون غنياً مفرط الغنى، سوف أختار مرافقاً أخر وحسب رغبتي وبالمواصفات التي أريدها. سوف أطلب من رشما أن تساعدني وربما أناشدها لتكون بجانبي كمرافقة، سوف أدفع لها ما تريد. أشتري سيارة فارهة، لا.. لا أحب ذلك ولا أحبذه.. سوف أنجز الكثير من رغباتي دون تقتير. عليَّ الآن أن أدوّن ما أريد بوضوح ودقة. لقد تغير الحال فجأة وعليَّ أن أستعد لذلك. كانت الحياة تحوم حولي مثل ذبابة، تستفزني بأزيزها وطنينها الذي يذكرني دائماً بفقر أهلي وعوزهم.

كانت تتراءى لي صور البيوت المؤثثة ولذة الطعام الفاخر المتنوع كحلم طري، أحلم بساحة فسيحة لبيت فاره يتراقص في باحته إخوتي الصغار وصيحاتهم ترددها جدرانه الرخامية السامقة وأبوابه بزخرفتها المغربية. لم تكن تلك سوى أحلام فتى أرهقه الفقر وبات مقتنعاً بأن اللامحال هو سيرته اليومية، كان ولن يكون حاله غير ما هو عليه. أنا ذلك المسلوب من متع الدنيا والمبهور بمنظر أبناء المترفين لا بل الحاسد لهم، كنت كالمضيّع الذي يبحث عن طريق للهداية. حتى تطوعي في الجيش كان ضرباً من غواية استدرجتني نحو معسكرات البؤس والشقاء، وسارت شؤوني في تلك المعسكرات المهملة المجدبة لا بل القاتلة دون هداية أو قرار. كنا جميعاً مزروعين في متاهة لا حدود لها، مجهول لا متناهٍ. نعلف كالبهائم ونجتر حديث السفاسف المبتورة ونترقب أملاً يقال إنه قادم. جميعنا متشابهون متشابكون بسحنات مصفرة وأرواح كابية. بدأ لغز الحياة ومجونها يتوضحان لي منذ الأيام الأول بالرغم من أننا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كنا في وهدة موحشة وكانت هناك جملة واحدة توصفنا دون عناية، عبيد.. عبيد، نهرب من الجحيم والخوف والابتذال إلى الجحيم والخوف والاحتقار. مع كل ذلك فلم أجلب معي حين هروبي وقدومي إلى السويد ندوباً وجروحاً من معارك دفعت إليها عنوة ولم أكن فيها مغواراً، ولم أكن لأسميها معارك، فهي عندي رنين لابتذال يتكرر صداه يومياً وكنت أسمعه بقدر ما بلغته جروح روحي التي كانت تلوكه وتتلمسه أشد وطئاً وأبعد وأقسى وقعا. ولكن ها هي اللحظة قد جاءت.

ولكن الآن ما عساي أن أفعل مع مرافقي البولوني الغدار. إن أخبرته بأمر ورقة اليانصيب فسوف يحاول سرقتها دون شك، أو ربما يسارع لقتلي غدراً. ألم يحاول رميي في البحيرة، أما كان ولازال يتلصص على أشيائي. لو عرف بأمر ورقة سعادتي هذه فالظن كل الظن أنه سيسارع ويدس لي السم أو يقذفني من الشرفة ويدّعي بأني انتحرت. سوف تكون شهادته مقبولة عند الشرطة فقد لفقت لي سابقاً تلك السماجة، وحذرني من تكرارها جميع من قابلتهم عند السلطات المحلية. سوف تكون عملية قتلي سهلة جداً عند مرافقي البولوني وليس هناك من بد منها. لا داعي لإضاعة الوقت، فعليَّ أن أعيد ترتيب الأوراق التي دونت بها حادث البحيرة وكيف أراد مرافقي قتلي عنوة وأمام الناس. ليس هناك من مفرّ للخلاص منه غير تقديم شكواي إلى مجلس البلدية، حيث أثبت لهم بالدليل القاطع أن مرافقي يريد قتلي وهو يسرق الكثير من أشيائي، ويتلصص على حاجياتي وأوراقي. سوف تتعاطف معي السيدة كاترينا. حتماً تتعاطف معي بعد أن أضع بين يديها الدليل الوافي على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أساليب مرافقي الخسيسة. بعد أن تطلع وتشاهد صدق ما أقوله، لن تبخل بمساعدتها. حتما سيكون ردها ودوداً مفرحاً، وستقول يا له من بولوني خبيث، لقد أسأنا التقدير، وما حاول فعله جريمة لا تغتفر يستحق عليها العقاب الشديد. وحين أظفر برضاها وتعاطفها سوف أخبرها عن ورقة اليانصيب. كلا ليس في ذلك الوقت. ففي البداية عليَّ أن أتأكد من مسألة الاستغناء عن خدمات المرافق بشكل كامل، عندها أخبر السيدة كاترينا بالأمر وأطلب منها مساعدتي على تهيئة أمر الحصول على المبالغ التي سوف أنالها من ورقتي الذهبية. ولكن العجوز كاترينا كانت عدائية وحادة الطبع في المرة الأخيرة، وقابلتني بجفاء وغلظة، واعتقدت أن خيالي، وحسب ما قالته، قد شطّ كثيراً وصنع معارك وهمية وتحديات وحقداً وسماجات مع جميع من عمل معي كمرافقين، وأني أرى بخيالي ما لا حقيقة لوجوده، وأني غضوب فزع، تصوراتي شكوك وأوهام غير واقعية لا طائل منها، لا بل ثرثرات ليس إلا. إنها تبغضني خاصة حين تأخذ بإلقاء مواعظها الغاضبة كنمرة مكشرة عن أنيابها تريد افتراسي. كيف أضمن أنها لن تثور بوجهي إن طالبتها بالاستغناء عن خدمة مرافقي البولوني. إنها عجوز، ولكنها صلبة العود مكفهرة الوجه عابسة، تتملق الناس بضحكة شاحبة ملساء مجردة من الطراوة والعاطفة. أفسد بشرتها العمل الطويل بين الملفات والأوراق، وربما دارت بين أروقة مصالح حكومية سويدية عديدة واستقرت أخيراً كمساعدة للمهاجرين في سلطة بلدية منطقة سولونتونا التي أنا واحد من سكانها، وهي الآن في سنواتها الوظيفية الأخيرة، وقد أورثها العمل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الطويل تلك السحنة العجفاء واللسان الذرب وعيوناً لا تتكلم دون أن تتحدى ما يقابلها من عيون كسيرة. نعم منذ البداية شعرت بأنها تكرهني، بالرغم من أنها وفي كل مرة تودّعني بابتسامة وتهز يدي بحرارة. وفي رأس السنة الماضية ضمّتني إلى صدرها، وتمنّت لي سنة جديدة جميلة. لكنها كانت، وفي أغلب المرات، تزجرني على أبسط الأمور وأتفهها، وتحسبني شخصاً مهملاً قلقاً ومقلقاً. لا أشك في كرهها لي وأنا بدوري ما كنت لأستلطفها. وفي أكثر المرات كنت أخرج من عندها مهموماً غاضباً مشتّت العقل لا أدري أو أعرف ما أريده.

استيقظت فزعاً وأنا أسمع صوت باب الشقة يوارب بقوة. وصوت مرافقي يلقي تحية الصباح بالرغم من أنه لم يشاهدني، فقد كان جسدي ممدداً فوق الأرض بموازاة السرير من الجهة القريبة للنافذة. كنت منهكاً لذا غفوت مكاني. شعرت بتقلصات شديدة في قدمي ويدي المعاقتين وكأن أشهر العلاج الطبيعي وتناول الدواء قد ذهبت أدراج الرياح. حاولت أن أنهض فوجدتني أعجز عن هذا وكانت يدي تضغط بشدة على ورقة اليانصيب فخفت من أن يكون قد أصابها ضرر أو تمزقت فأخسر كل شيء. أمسكتها ومسحت عليها ثم وضعتها بسرعة في حافظة النقود وحاولت أن أخفف عن قدمي رعشة انتابتها وهذا يحدث لي للمرة الأولى وبهذا الشكل.

كرر مرافقي نداءه دون أن أفكر بالإجابة عليه، ورغبت أن أستمر في رقدتي دون أن أدلّه على مكاني، ولكني وجدته يقف فوق رأسي بابتسامة بلهاء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ ما الذي تفعله تحت السرير يا صديقي؟

ـ لا شيء... لا شيء. فقط أردت أن أستريح.. لا علاقة لك بشؤوني هذه. دعني لوحدي لا حاجة لي بمساعدة اليوم. تستطيع أن تنصرف، فلا وجود لغسيل وعندي من الطعام ما يكفي.

ـ ولكن واجبي يحتّم أن..

ـ أعرف ذلك ولكني أشعر اليوم بتحسن شديد وقد استيقظت مبكراً وتناولت الدواء، وسوف أتناول الفطور والشاي بعد حين.

ـ أي دواء تناولته؟

ـ لقد حضرت راشما وعملت كل شيء.

ـ أي راشما ومتى جاءت؟

ـ لقد كانت هنا مع أمي، وسوف تعودان بعد قليل لتأخذاني معهما في رحلة خارج ستوكهولم. هذا قد تقرر قبل عدة أيام مضت. ربما تعتقد أن هذه الرحلة سوف تفقدك وظيفتك، ولكني أعدك بالعودة السريعة وسوف أكلم السيدة كاترينا لتبحث لك عن عمل جديد. لا تفكر كثيرا. لا تهتم، أنا وحدي من يستطيع إيجاد مخرج لمشكلتك. ولكن دعني أقول، إنك تستطيع أن تجد أفضل من هذا العمل. أقصد أنك قادر على العمل في أماكن أخرى مثل شركات ومصانع، وليس من المناسب أن تعمل مثل هذه الأعمال التي تبخس قوتك الجسدية وروحك الفضولية. فالجسد القوي صنع للعمل الجبار، وأنت تبدو مزارعاً قوي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

البنية، تحب الحديث مع الحيوانات والطيور، وتستطيع أيضاً البحث عن حبيبات في وارشو تقضي معهن وقتاً سعيداً، وربما استطعن إقناعك بالمكوث في وطنك بولونيا، دون الحاجة لوجودك في السويد. وراشما، لا بل حتى أمي، قالت إني لم أعد بحاجة لمساعدتك، وهما ستتكفّلان العناية بي وتسيير أموري. وإن جسدي لم يعد منهكا مثل قبل. تعرف أن راشما تقدر مثل هذا الأمر أكثر من غيرها وقد كانت في المستشفى خير مرافق لي.. ليكن السّر بيني وبينك ولو أني لم أفاتحها بعد، ولكني نويت الزواج منها. قبل ساعة من الآن لمّحت لي، ولو بشكل بسيط، عن إعجابها. والأكثر من هذا كانت تتهامس مع أمي وتتبسمان وهما تطالعانني، وحين سألت أمي عن الأمر قالت إن راشما تودني كثيراً وهي معجبة بشخصيتي. لقد غسلت ملابسي وطوتها ورتبتها بعناية. آه لو أنك شاهدت وجه أمي، كان يطفح بابتسامة الرضا والمودّة. أعرف رغباتها وأعرفها حين تكون ضجرة وكدرة، ولكنها كانت اليوم شديدة الفرح مبتهجة مسرورة. ومع كل ذلك كنت أود لو تتركني لبعض الوقت أنفرد براشما لأبثها شجوني وتفصح هي عن رغباتها. قل لي أواجهت مثل هذا الموقف مع إحداهن. لا أعتقد ذلك، فعلاقتي براشما تختلف كلياً عن علاقات الآخرين. سوف نسافر اليوم سوية وأفاجئها بالأمر، سوف تصعق من الفرح وربما ترتبك، ولكن أمي تستطيع أن تكون خير معين. إن أمي تتحدث أحياناً كلاما يثير الإعجاب والقناعة في نفوس الآخرين. أنت واحد من البائسين إذا لم تتعرف على أمي ولم تسمع حديثها. لقد نبهتني لأمرك عدة مرات، وأبدت عدم رضاها عن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

رفقتك لي، وقالت إني أتعس الناس حظاً لأني قبلت وجودك واستمرارك معي. أعتقد أن أمي على صواب وهذا رأي راشما أيضاً. تستطيع الذهاب الآن فأنا لست بحاجة لك اليوم. وأيضاً فإن عودتهما بعد قليل سوف تثير مشاكل لا أجدني أحتملها. أعترف لك أن أمي وراشما لهما المكانة الأولى في نفسي، وسوف أقف معهما بالضد منك، ويحدث ما لا أريد أن يزعج حبيبتي وأمي، ويعكر صفو فرحي بلقائهما. اذهب وأعتنِ بدجاجاتك في القرية أو سافر إلى وارشو وابحث عمّا يسلي قلبك. لا تدع الوقت يمر.. أرجوك لا تحرجني فأنا لا أحتمل غضب أمي وبكاءها. وإن غضبها وبكاءها سوف يجعلانني أقوم برد فعل لن يرضيك وربما يؤلمك جداً، وهذا ما يجعلني أقول، إنه يجب علينا أن لا ندع هذا الأمر يحدث. لقد تناولت الدواء وراشما من ساعدني على ذلك، في حين كانت أمي تجلس عند حافة السرير تطالعني بفرح وروح منتشية، وهي من قالت إن رقودي بجانب السرير على الأرض سوف يقوي عظامي، فوافقتها الرأي وجلست راشما جواري تمسد شعري فغفوت. اذهب الآن قبل قدومهما. إذهب ولا تظن أني بحاجة إليك بعد الآن.

ـ أعرف ذلك جيداً، لقد أخبرت به.. رغم كل هذا، ما عليك الآن غير النهوض والذهاب إلى الحمام ثم تناول الدواء. يبدو أنك سهرت البارحة لوقت متأخر؟

قال ذلك وتقدم نحوي يحاول إنهاضي. أمسك بيدي ورفعني عن الأرض. ما كنت أستطيع تحريك جسدي، وشعرت بثقله

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مثلما شعر البولوني بذلك. كنت منهكاً وجسدي متيبس، ولكني طاوعت يديه ورفعت جسدي، وفي الوقت ذاته كنت أحاول جاهداً أن لا يمد يده نحو جيبي، فقد أمسكت جيب بنطالي بشدة. فعليَّ أن آخذ الحذر، وأن لا أترك له فرصة لخطف الورقة مني. لا أحد يعرف ما يدور في ذهن الآخر، وأنا على يقين بأن هذا الشيطان لن يترك الأمر يمر بسلام. آه لو أن راشما وأمي تصلان الآن وتمنعانه من الاستيلاء على ورقتي الحبيبة. لقد تأخرتا كثيراً، وأنا أتهيب اقتراب لحظة اعتدائه عليّ وسلبي ورقتي. إنه قوي بجسد ضخم وعضلات مفتولة، وهو قادر على خنقي ورميي من الشرفة. عليَّ أن أكون لطيفاً مهذباً معه كي أجعله يبعد عن باله فكرة قتلي، أو على الأقل أسايره لحين قدومهما وإبعاد أمر الجريمة بما يكفي من الزمن. ولكن يا ترى ما سبب تأخرهما كل هذا الوقت. لقد أخبرتني راشما أنها تتحرق شوقاً لرؤيتي والعناية بي، وأمي أيضاً كانت كثيرة الدعاء وتطلب من ربها أن يتفضل ويمنحها العمر الطويل كي تعتني بي وترعى أطفالي. أعرف ذلك، فهي سوف تجلس ابني في حضنها وتداعبه. إنها تتشوق لهذا وأنا وعدتها بذلك وأخبرتها بموافقة راشما.

بادرني مرافقي البولوني قائلاً بأني لست في حاجة إلى الإلحاح في الحكاية، واستهلاك نفسي المتعبة بسرد كل تلك التفاصيل، علينا الخروج للتنزه جوار البحيرة لاستنشاق الهواء، والتخلص من الكوابيس المزعجة، وناولني كأس الماء ومسح على رأسي بيده الثقيلة، ثم جلس جواري مطالعاً وجهي بعينيه العصفوريتين. لم تكن لدي رغبة في تلبية طلبه، ولكن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

خطر في رأسي خاطر، أن أذهب إلى السوق فهناك أستطيع أن أبعد عن نفسي الخطر، وأقضي الوقت لحين قدومهما وفي الوقت ذاته أتأكد من قيمة الجائزة.

حدقت في المرآة، وطالعت وجهي الشاحب ولحيتي التي نمت بإهمال. كان رأسي يرهقه صداع ثقيل وعيناي كانتا كابيتين ناعستين. شعرت بالقرف والاشمئزاز وأنا أشاهد شعر رأسي المشعث. فكرت جيداً، ووجدت أن من الخطر أن لا أرى في نفسي غير المرض، وأن أمحض روحي كل هذا الإهمال بعد أن نلت تلك الورقة الذهبية، مصدر سعادتي القادمة. ولكن يا ويلي فإن ما ترسب في نفسي يبدو أكثر ثقلاً من أن يتركني طليقاً. ولكن ما دام الحال هكذا ولا منفذ للخلاص منه، فليكن ما يكون وسيان إن فرحت أو حزنت؛ فأنا أشعر دائماً بأني لست بقادر على تغيير الأشياء. حتى هذا البولوني أصبح جزءً من كياني، فهو الذي يداري عوقي وعيونه تغلّ فضولها الخبيث في روحي دون توقف، وأنا من الضعف بحيث لا أستطيع أن أبعد أذاه عني. لا أدري ما مبعث كل هذا التشويش. كنت فرحاً طوال ليلة أمس، ولكني الآن أشعر وكأنها امتدت مثل كابوس مقيت. تغير كل شيء بعجالة وبتّ أسير في لحظة قاتمة لا بل شديدة السواد.

بكل تمهّل، ارتديت ملابسي. وحين أراد البولوني مساعدتي على ارتداء القميص دفعت يده بقوة. نوبة من كراهية حادة شعرتها تسيطر على مشاعري، ليس فقط اتجاهه وإنما تجاه كل ما يحيط بي. واجه خشونتي تلك بابتسامة بلهاء قائلا:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ سوف يكون الحال على ما يرام حين نكون وسط الناس.. أنت تحتاج إلى هواء منشّط... ربما نلتقي بعض المعارف فيتغير المزاج.

كانت جملته مبطنة ومقلقة بعثت في روحي الكثير من التوجس، ولكني لم أشأ الرد عليه، ورحت أطالع هندامي في المرآة الكبيرة المجاورة لباب الشقة الخارجي، وانتبهت إلى صورته ورائي وكيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة زادت من رعبي.

دفع الباب بهدوء، ووقف ينتظر خروجي. مشيت بتثاقل أخط بقدمي المعلولة فوق بلاط الممر الطويل المؤدي إلى كابينة المصعد. امتدت أمامي فسحة الحديقة الواسعة التي تتوسط العمارات السكنية الثلاث والمغلقة من الجانب الأيسر بأشجار الصنوبر العالية التي تشكل وجه الغابة الأمامي. نظرت نحو نهاية طرف الحديقة عند امتداد الغابة، حيث ينفرج من وسط الأشجار الكثيفة طريق ترابي ضيق. كانت أمي واقفة هناك عند بدايته تنظر نحوي بعينين جاحظتين، وتمسك بيدها طفلاً صغيراً. ناديت عليها ولكنها سحبت الطفل وولجت بين الأشجار عند الطريق الترابي. صرخت بأعلى صوتي، لوّحت بيدي.. ناديتها إن تأخرتِ.. إلى أين تذهبين... انتظريني... انتظري... ولكنها اختفت.. أردت اللحاق بها. كان جسدي مضطرباً يهتز دون أن أستطيع التماسك.. رأيتها تظهر بالقرب من أشجار الصنوبر. كانت ابتسامتها شاحبة وشفتاها متيبستان، وثمة لوم تريد الإفصاح عنه. نعم شاهدتها. لا تريد المجيء

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

اليوم. ربما تركتها راشما وضاع عليها الطريق. ولكنها كانت قريبة وشاهدتني، فما الذي جعلها تبتعد.

هبطت سلم العمارة دون استعمال المصعد الكهربائي، وتوجهت نحو باب العمارة الخلفي المفضي إلى الحديقة، وأسرعت نحو حافة الغابة حيث اختفت أمي والطفل الذي لم أدقق في ملامحه، وما عرفت من يكون. كان الممشى طويلاً يتلوى مثل ثعبان ويختصر الغابة ليتجه مباشرة إلى البحيرة، وهناك يتفرع إلى طريق قصير يوصل إلى مركز التسوق. كل ما في المكان هادئ ساكن سوى خشخشات بين الحشائش لحيوان صغير، ربما هو فأر أو طير يبحث عن حشرات يلتهمها. تقدمت في الشارع الترابي وسط الأشجار العالية الكثيفة الفروع التي تمنع نور الشمس، وتضفي على المكان دكنة شديدة وجواً رطباً خانقاً. شعرت بالقشعريرة وأنا أتحاشى أن تطأ قدماي فوق حلزون أو دودة الأرض التي خرجت من جحورها متمتعة بحرارة الجو ورطوبته. تتبعت الطريق محاولاً اللحاق بأمي. كان هناك رنين يدوّي في رأسي مثل رنة جرس طويلة رتيبة. أسرعت في مشيي، وعند المنعطف رأيت ظلها. كانت ممسكة بيد الطفل تسحبه وهي تتلفت، ثم توقفت ودلفت جهة اليسار عند مجموعة من الشجيرات الصغيرة. وصلت المكان وكنت أتهيأ لمعاتبتها على ما سببته لي من إرهاق. لم أجدها. لم تكن هي، وإنما كان هناك شيخ كبير السنّ بوجه مستطيل شاحب ترتسم فوقه ابتسامة خافتة، وعيناه تفصحان عن ودّ خائف. كان يمسك طرف الحبل المشدود إلى كلب أسود كبير. كان العجوز يسحبه نحو صدره بقوة، محاولاً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أن يمنع انفلات الكلب الذي بدا متحفزاً للوثوب. بادرته بالتحية فردّها بصوت متهدج وبقي ساكناً في مكانه يشد بقوة حبل الكلب.

ربما تحركت أمي نحو الناحية الأخرى، اعتقدت هذا فتركت المكان، وعندها لاحظت أن مرافقي يتبعني رغم انشغاله بهاتفه، وكان صوته يعلو وكأنه في شجار مع الآخر على الطرف الثاني. اقتربت من المخرج المفضي نحو البحيرة، ثم استدرت باتجاه الشارع المؤدي إلى مركز التسوق. بدت الساحة الفسيحة أمامه ضاجّة بالبشر، أطفال يلهون مع بالوناتهم بملابسهم الملونة وعجائز وشيوخ يفترشون المقاعد المحيطة بالمكان، وثمة من يعرض بضاعة فوق مناضد صُفّت قرب موقف العجلات، وسيارة شرطة تقف عند الجهة اليسرى لمركز التسوق.

ـ يبدو أن اليوم يوم احتفال... أين تنوي الذهاب. بادرني البولوني وهو يقترب ليجاورني.

ـ ليس في نيتي شيء محدد.. دعني أريحك مني اليوم.. لا تهتم... سوف أشتري كالعادة علبة سجائر وورقة يانصيب ثم أعود... دعني لحالي ولو لدقائق..

ابتسم وسألني أن لا أبتعد كثيراً، وإن احتجت إليه فسيكون قرب المدخل الرئيسي. ولجت داخل السوق وتفرست في الملصقات على واجهة محل بيع أوراق اليانصيب. في اليومين القادمين سيكون الجوكر في لعبة اللوتري الأسبوعي أكثر من سبعين مليون كرون.. واووو.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

يا ربي.. أية قدرة على الاحتمال يملكها ذلك القلب وهو يتسلم مثل هذا المبلغ بعد أن دفع نقوداً قليلة لشراء تلك الجائزة.

* * *

كانت عضلاته المفتولة موشومة بمجموعة صور لثعابين تلتف على بعضها، وتتسلل نحو رقبته منحدرة فوق ظهره. ووجهه المنمش قاني الحمرة، بعينين ذئبيتين راحتا تتفحصان زبائن المحل. ابتسامة رضية باشّة وكف ملوحة، هكذا استقبلني صاحب المحل بيتر بتومكين وهو سويدي من أصل فنلندي، يرحب بالمهاجرين ويقربهم له، ويسميهم بأقاربه الذين تعرف عليهم في السويد. لم يكن بيتر هذا قبل عشر سنوات غير مدمن مخدرات، زار السجون لمرات عديدة وبأزمان متفاوتة، بسبب قضايا عراك واعتداء. فجأة تغير الحال معه، وهو يعزو ذلك لصاحبته المغربية التي يتحدث عنها كالمسحور، ويقول إنها أنقذت حياته وسحبته من الحطام. كان يحكي قصته لجميع المهاجرين دون إهمال الجوانب الثانوية فيها، ويختمها في النهاية بالقول إنكم أهلي وليس هؤلاء السويديون الأجلاف.

حين دخلت متجره رحّب بي بابتسامة عريضة وناداني باسمي:

ـ ها يا صاحبي ما الذي أتى بك اليوم؟ أراك شاحب الوجه.. هل عاودك المرض.. أكرر نصيحتي لك. تزوج من موراكو.. ثم أطلق ضحكة مجلجلة كان يتلذذ دائماً في إطلاقها بشكلها الهستيري وكأنما يتحدى بها الآخرين.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ كيف الحال؟

ـ شكراً، عساك تكون بخير... كالمعتاد علبة سجائر وورقة تريس أليس كذلك.

ـ نعم كالعادة.. ولكني اليوم أريد شيئاً أخر.. سؤال بسيط؟

ـ تفضل، هاك أولاً ما أردت.. وسل ما شئت.

ـ إن حصل المرء على الثلاث صور لشاشة التلفزيون في ورقة اليانصيب التريس هذه ما عساه يفعل.

زمّ شفتيه أولاً، ثم أطلق ضحكته المعهودة وتلفت حوله وأمسك بيدي بقوة وصرخ:

ـ أراك ربحت يا صاحبي. وجبة غداء دسمة لا تكلفك كثيراً هي حقي الشرعي.. أليس كذلك.

أجبت وأنا أفتعل المرح كي لا ينكشف أمري.

ـ كلا أيها العزيز، فقط سؤال أردت منه معرفة أسرار اللعبة.. وإذا حصل المرء على ثلاث صور للديناري؟

ـ آه يا صاحبي عساك لا تراوغ.. ولكن على أية حال أتمنى لك الحظ السعيد فجميع أبناء عمومتي يستحقون الخير. ألم يمنحوني جليلة التي أنقذتني من موت محقق، وهي جائزتي التي حصلت عليها منهم.. انظر أيها الطيب... في الحالتين عليك الذهاب والاستفسار من قناة التلفزيون الرابعة السويدية في مدينة يوتوبوري. هناك سوف يخبروك عن اللعبة وشروطها.. صورة شاشة التلفزيون تعني أنك ربحت خمسين ألف كرون بشكل أولي. وصورة الديناري تعني أنك ربحت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عشرة آلاف كرون سويدي شهرياً لمدة عشر سنوات. ولكن، هناك في البرنامج الصباحي للقناة الرابعة سوف يمنحونك حظاً جديداً، تزداد معه المبالغ حيث تسحب عندهم ورقة يانصيب جديدة، ربما تصل الأرباح فيها مع صورة الشاشة التلفزيونية إلى آلاف أخرى، أو تتضاعف إلى ملايين والشيء نفسه مع صورة الديناري حيث يتضاعف المبلغ إلى خمسة عشر أو خمسة وعشرين ألفا كرون تقدم لك كل شهر وتتضاعف المدة إلى خمس وعشرين سنة أيضاً.

صرخت بهستيريا وقفزت ولكني تداركت وضعي فصمتّ، وبادرته بالسؤال.

ـ هل أستطيع أن أحصل على المبلغ دفعة واحدة بدلاً من منحي إياه كل شهر. أريد أن أحصل عليه فمسألة توزيعه على أقساط شهرية أمر متعب.

ـ أيها اللعين، أراك ربحت وتحاول أن تخفي ذلك عني. ها قد أفشيت سرك.

ـ لا... لا ولكن فقط اسأل لا غير.

ـ أتمنى لك الحظ السعيد، ربحت أم لم تربح، فأنتم أقاربي وسعادتكم تهمني.. يا صاحبي إنهم سوف ينتظرون موتك. وهو بدوره يأتي بعجالة غريبة.

ـ موتي !!!.

ـ أي نعم موتك وليس شيئاً آخر.. هؤلاء الشياطين يحسبونها بدقة.. فالرابح كم عليه أن يعيش من السنوات.. فقط العجائز والمرضى من يربحون اليانصيب في هذه الدنيا. الأقساط

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شهرية.. لا يعطون المبلغ جمعاً بكسر. وسوف ينتظرون موت الشخص لتقطع عنه تلك الجائزة. حل بسيط جداً... لم أسمع عن شخص أكمل السنوات العشر وهو يتلقى قسط الجائزة الشهري.. هُبّ.. فجأة تنتقل روحه إلى السماء ويسقط اسمه من قائمة الأحياء، عندها تحجب الجائزة لعدم وجود من يتسلمها، فيربح الميت سعة الجنة بدلاً عنها، أو يُشوى بنار جهنم متذكراً أنه كان، يوما ما، غنياً مترفاً.

ـ إذن إنه الموت.. الموت.. الموت يا له من قدر سخيف يسحق الفرح ومعه الجائزة.

تركني ليقدم خدمته لزبون آخر، ثم أدار وجهه نحوي وابتسم قائلاً:

ـ حظا سعيدا مع جائزة كبرى... لا تقلق فالقلق لا يجلب الحظ السعيد.

ـ شكراً.. حظا سعيدا لك أيضاً.

عند مخرج مركز التسوق، ظهر من طرف موقف السيارات المجاور جوق كبير من رجال ونساء يرتدون ملابس مزركشة بألوان فاقعة، تتدرج فوق أجسادهم بتناغم بديع. اتجهوا بهيئة فرقة منظمة نحو وسط الساحة الكبيرة وهم ينشدون بفرح أغاني بلهجة لم أكن أفهمها، ربما هي لغة الهنود الحمر أو شعوب أمريكا اللاتينية. توزعت الجوقة إلى حلقات راقصة تتألف من أربعة راقصين، يقابلها حلقات أخرى لفتيات بالعدد ذاته. على رؤوس الرجال قلانس ترتفع منها ريشة طويلة ملونة وملابسهم متشابهة الألوان تغطي النزر اليسير من أجسادهم القوية، وتنسدل تحت الخصر أشرطة ملونة،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وينتعلون أحذية طويلة تصل إلى ما تحت الركبة، تلتف حولها أشرطة من الألوان ذاتها أيضاً.. على صوت المزامير والصنجات والطبول يتراقصون ثم يتقدمون ليحيطوا حلقات الفتيات الرائعات الجمال اللاتي كن يرتدين صداري صغيرة ضيقة بلون زهري توشحها شرائط دانتيل خضراء، بدت وكأنها حقول ربيع ضاجّة بفوح الزهور والأعشاب، وتهبط من تحت الخصر شرائط أخرى بلونين فاقعين هما الأصفر والأزرق الشذري، شعورهن معقوصة إلى الخلف بحلقات من الدانتيل مختلفة الألوان تتجانس مع ثيابهن، وترتفع فوق الرأس ريشة واحدة بلون كستنائي. وكانت أجسادهن من أعلى الخصر تظهر سحنة بشرتهن السمراء والصديريات الضيقة لا تغطي سوى القليل من النهود النافرة التي تريد أن تهرب من مكامنها التي ضاقت بها مثلما ضاقت عليها. وقع أقدامهن يترافق باتزان مبهر مع أصوات الموسيقى، وكانت دوائر الرجال تضيق ثم تنفرج حول حلقات الفتيات، وكأن ما يحدث هو عملية محاصرة أو نزاع أو اختطاف. فجأة ومن وسط حشد الجمهور الذي أحاط الفرقة من كل جانب متلذذاً بمشهد الحفل الراقص، ظهرت حورية جميلة سمراء خلاسية البشرة، لم تتعد بعد سنواتها العشرين. مشت الأميرة بهدوء وتقدمت بخطى وئيدة وكأنما أقدامها تقرع نقراً خفيفاً فوق طبل. كانت حورية يتوج رأسها إكليل غار، وينسج الثوب بشرائطه الشفافة ملاءة من زخرفة تغطي شيئاً يسيراً من جسدها. سطعت شمس الصيف ببهاء نورها فوق هذا الجسد المشدود والقدّ الميّاس، وتقدمت الفتاة برشاقة وغنج لتقف أمام الفرقة الموسيقية، وإشراقه لابتسامة ملائكية ترتسم فوق محياها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إنها راشما.. يا ربي إنها هي.. تسمّرت مكاني ووجدتها تطالعني بابتسامة ملائكية، فشعرت بدوري بالرضا وأنا أتفرسها بنهم، حيث تقف وسط الجوق. حين وقفت راشما كانت فرقة الراقصين قد شكلت جدارين متوازيين، الفتيات مقرفصات على الأرض والرجال يقفون خلفهن، وكان الصفان يتمايلان بتناغم مع صخب الموسيقى، والرجال يدقون الأرض بأقدامهم صعوداً وهبوطاً، ويطلقون صوتاً مكتوماً يدل على القوة والتحدي. تقدمت راشما نحو منتصف الساحة، وكان شعرها المزدان بإكليل من الورد ينساب فوق الظهر المكشوف، ويعكس بريق لمعان الشمس، وجسدها أسفل الخصر غطّي بملاءة من قماش التول الأصفر الشفاف. كانت ترتدي صديرياً بلون أصفر يخفي صدرها الناهض، وحين تقدمت بدأ جسدها يتلوى مثل أفعى. تقدمت فضجّ الجمهور بالصراخ والصفير وتصاعدت معه ضربات الطبول وأصوات المزامير. انحنت الفتيات المقرفصات نحو الأرض فقفز الرجال من فوقهن وهم يصرخون صرخات الحرب، ثم ركضوا ليحيطوا أميرتي بحلقة محكمة فبدأت تتلوى مرتعبة ولكن فجأة تحركت جوقة الفتيات ليتقدمن مهرولات ليولجن أجسادهن من بين جدار الرجال، ويقفن كسدّ منيع يحيط بالملكة لمنع الرجال من اختطافها، وبدأت عند ذلك رقصة جميلة، تتقدم النساء فيتراجع الرجال ثم تدور الدوائر وتتراجع النساء. يشن الرجال غارتهم وتردّ النساء بقوة بغارة تبعد الأعداء. تتوتر الأجساد وتندفع بصبوة وفتوة. كانت رقصة أخاذة أشاعت الفرح وسط جمهور المشاهدين الذي راح يتمايل ويهتف مع حركات الراقصين والراقصات.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كانت دقات قلبي تتسارع وصداها يعلو ويهبط خوفاً من أن يحدث شيء ما لراشما. كانت الأجساد بملابسها المزركشة الموشّاة بتلك الألوان تختلط بتوليفة حركات كرّ وفرّ ومعها ترتسم على وجه راشما تعابير الخوف والرهبة وتقطيبة غضب حين يتقدم الرجال، ولكنّ ابتسامة عريضة لفرح ملائكي تحل فوق وجهها. جسدها الطري يتمطى ويهتز طرباً حين تكر فتياتها المدافعات والموسيقى تصدح بنغمتين مختلفين بين تارة وأخرى.

فجأة تشتت حلقة الرجال، وراح بعضهم يصطدم ببعض كمن يريد الهروب أو يلوذ بمكان بعيد، ووجوههم يعتريها الخوف، عند تلك اللحظة خرج من وسط الجوقة الموسيقية شابّ فارع الطول جميل المحيّا مفتول العضلات، خصلة من شعره تسقط نحو وسط ظهره وتتطاير أحياناً مع قوة حركاته التي بدت متناسقة. كان يتمنطق بحزام يربط بنطاله الجلدي القصير عند الخصر، وامتد منه غمد عريض يضم غّدارة طويلة، واعتلت رأسه ريشة عريضة بلونين فاقعين، يمسكها رابط أخضر حريري رفيع. ورغم الملامح الغاضبة والعبوس الذي يظهر على وجه الفتى، فقد كانت عيناه تشعّان ببريق طاغ كان يصوبه بدقة نحو راشما التي جلست القرفصاء وسط حلقة وصيفاتها. تقدم الفتى واستلّ غدّارته، ولوّح بها في الهواء، فانسحب الرجال إلى الخلف وشكلوا نصف دائرة، بعدها استوت أجسادهم ثم انحنت، وتقدمت سيقانهم وطُويت إلى الأمام بحركة ركوع. تقدم الفتى نحوهم وهزّ غدّارته عدة مرات فتمايلت معها أجساد الرجال تعبيراً عن خضوع واستكانة وتذلل، فأرجع الفتى غدّارته إلى غمدها وطلب منهم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بإشارة واضحة أن يحيطوا به ففعلوا ذلك، وكانوا ينطّون حوله مثل الأرانب. استدار الشاب نحو الأمام بمواجهة حلقة الصبايا وعروسهنّ، ثم رفع وجهه ويديه نحو السماء وبدا جسده الضخم يبرز عضلاته المتناسقة، ثم تمتم بجمل غير واضحة فتسارعت أصوات الطبول والمزامير. ومع الموسيقى وتراتيل الفتى بدأت راشما ترفع جسدها رويداً رويداً لتستوي منتصبة ووجهها يطفح بالحبور والبهجة، ودارت الفتيات حولها برقصات متوازنة تمايلت بها الأجساد بغنج وخفة، وكأن هناك موسماً للربيع قد حلّ، وعليهن استقباله والترحاب به. وفي الوقت عينه كانت مجموعة الرجال تؤدي رقصة جميلة أخرى تصاحبها همهمات لأصوات مكتومة، وكانوا يتحلقون حول الفتى وكأنهم ديوك تتقافز بخفة ورشاقة. تقدمت الحلقتان إحداهما من الأخرى فتلامست الأجساد ودارت دورتين ثم انفرطتا ليختلط الجميع. عندها وقف الفتى بمواجهة راشما ثم ضمها إلى صدره بقوة فصدحت الموسيقى وعلت الأصوات وضج المكان بالتصفيق. دخل بعض الصغار والفتيات من الجمهور وسط الحشد.

اندفعت هائجاً نحو المكان وسط الجوق ثم سحبت راشما من يدها ودفعت الفتى من صدره. عزلت عنه راشما بلمح البصر وضممتها إلى صدري. أبعدتني عنها بقوة صارخة في وجهي بصوت أجش، وكان وجهها يكتسي بسحنة من غضب، والشرر يتطاير من عينيها، ووثبت مبتعدة وهي تنظر إليّ شزراً. رفعني الفتى بقوة ودفع بي بعيداً. التف جسدي دورة كاملة وسقطت على الأرض. كان الطنين يملأ رأسي وبدأ جسدي يرتعش. نظرت نحو راشما فوجدتها تبتعد وكانت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تمسك يد إحدى صاحباتها. رفعني مرافقي عن الأرض وضمّني إلى صدره. بدأت أجهش بالبكاء وأنادي على راشما.

ـ أيّ راشما أيها المسكين.. يكفي هذا... لقد أفسدت فرحة الناس.

ـ ولكن راشما... راشما.

ـ أي راشما يا صاح.. إنها فتاة الفرقة وحتماً ليست صاحبتك.

طوال الطريق نحو الشقة كنت أشعر بغثيان يلف رأسي وأحشائي. أحسست بخدر ودوار يجعلان جسدي يرتخي، فيسندني مرافقي لبعض الوقت. وأخيراً شعرت أن ساقي ما عادت تساعدني على المسير، فاضطر مرافقي لرفعي، وحين وصلنا الشقة وضعني على السرير وجلس جواري، فدفنت رأسي بالوسادة وبدأت أبكي بحرقة.

* * *

شحيح الضوء يتسرب من بين فتحة الستارة، والمساء الثقيل قد ابتعد وأنا ما استيقظت طيلة الوقت. رفعت رأسي ونظرت حولي. كانت هناك جالسة تطالع سقف الغرفة دون أن تنتبه لي. حيّيتها تحية الصباح فلم تجبني. ناديتها فلم أسمع سوى صوتي. كانت أمي هناك تجلس فوق كرسي قريباً من باب المطبخ. سمعتها تدندن، ربما كانت تحدث أحداً ما في المطبخ. من يكون؟ هل هي راشما أم مرافقي؟ ولكن لم تتغاض أمي عن ندائي. ما الذي يجعلها تهملني بهذا الشكل!

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ أمـي.. أتسـمعينني.. اليـوم قـررت الـذهاب إلـى يوتوبـوري للحصـول علـى الجـائزة.. أتـودين مرافقتـي.. أجيبينـي لا تجعلـي الصمت يزيد من ألمي. أمّاه سوف ترافقينني أليس كذلك.. إنـي أخاف هذا البولوني... سوف يقتلني إن عرف بالأمر.

دخلت المطبخ دون أن تلتفت نحوي. أهملت وجودي كلياً. لـم ألمـح سـوى ثوبهـا الكـالح الـذي مـازال يظهـر جـوار حافـّة بـاب المطـبخ. سـمعت صـوت راشـما وكـان همسـاً خفيفـاً وهـي تكلـم أمي. حركت جسدي فكان ثقيلاً مثل الصـخر، وازداد ارتعـاش أطرافـي ولكنـي اسـتطعت فـي النهايـة أن أحركـه وأرفعـه، ثـم هبّطـت مـن السـرير وطالعـت سـاعة الجـدار التـي كانـت دقاتهـا الرتيبـة تمـلأ الغرفـة وصـوتها ينخـر رأسـي الـذي لفـّه دوار غريب. الساعة تشير إلى السادسة صباحاً. تقدّمت نحـو المطـبخ فلم أجد أحداً هناك. أين ذهبوا؟ مـا عـاد ذهنـي المشـوش يحتمـل كل هذا. أشياء غريبة تحدث. لِمَ يتركوني وحدي؟ ولكنـّي لسـت بحاجة لمساعدة أحد. أنـا قـادر علـى إنجـاز كـل شـيء. مـا الـذي يفعلونه الساعة. ألم يعدوني بـالمجيء؟ مشـقة السـفر لـن أتحملهـا وحيداً. لترافقني أمي وسوف أحكي لها مـا يعذبني. مـا مـن أحدٍ سواها يعرف ما ينتابني من تعب وألم.

* * * *

الصـباح البـارد يجعـل الجسـد ثقيلاً متكاسـلاً. لملمـت بعـض قطع الملابس التي أحتاجها في سفري، ودسستها دون عناية في حقيبتـي الصـغيرة، وسـرت باتجـاه موقـف حـافلات النقـل التـي توصلني إلـى محطـة القطـارات المركزيـة. كنـت أشـعر بالوحـدة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

والخوف، فربما لا أستطيع تحمّل مشاق السفر، فيا ترى من سوف يساعدني إن شعرت بالإرهاق، وانتابتني أعراض المرض. مثلما قال بيتر الفنلندي فالموت يلاحق رابحي الجوائز، وشركات اليانصيب تنتظر ذلك ودائماً هي من يربح الرهان. أتراني أستطيع أن أغلبهم في هذا الرهان؟ الموت، أيّ معنى سخيف وأية نهاية لا تقبل المساومات. أتراني أقع صريعاً قبل أن أتسلم الجائزة؟

الشوارع مزدحمة، وحركة سير الحافلة بطئ جداً. تلمست الحافظة للتأكد من وجود ورقة اليانصيب ونظرت نحو الأفق المترامي لفسحة الوادي المخضرّ الذي يمتد مجاوراً الشارع. هذا اليوم يتوقف عليه الكثير من مستقبلي، وتلك الورقة هي التي ستكون مصيري الجديد أو منقذي الذي بحثت عنه كثيراً.

قطعت تذكرة السفر واتجهت صوب الرصيف رقم سبعة عشر، حسب ما نبهني له قاطع التذاكر بعدما لاحظ ارتباكي وارتعاش يدي، وسألني إن كنت أحتاج لمساعدة فهناك في المحطة من يستطيع تقديم العون للذين يحتاجونه. شكرته وتقدمت أخط بقدمي فوق أرض الرصيف.

كانت حركة القطارات تملأ المحطة بضجيج طاغ، وصوت أزيز العربات المسرعة يرتطم برأسي فأشعر بثقل غريب ينتاب جسدي. القطارات تنطلق مثل البرق مخترقة المكان، قادمة أو عائدة من جهة ما، بعضها لا يتوقف عند المحطة وإنما يندفع شاقاً فضاءها مثل سهم حاد محركاً الهواء بحدة تشعرني بالخوف، وتنتاب جسدي قشعريرة باردة. جلست فوق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الكرسي جوار الباب ورحت أطالع تقاطع سكك الحديد. وبين لحظة وأخرى كان هناك قطار يخترق المكان بسرعة هائلة. أشعر الآن أن قرار سفري وحيداً جاء متسرعاً، وأني اتخذت هذه الخطوة دون دراية بمخاطر وضعي الصحي. وحتماً إن طول المسافة سوف يرهقني، ولكني أشعر بأن هدفي يستحق العناء. أردت أيضاً أن أحافظ على سرّ ورقة اليانصيب، أن أتفرد بها، أن لا يعلم بها ذلك الوحش أو غيره.

لحد الآن لم أشاهد من السويد غير مدينة ستوكهولم، وحتى في هذا الأمر فإن لي حدوداً لم أكن لأبرحها. لا أعرف من ستوكهولم غير بضع مناطق، وهذا الشيء يزيد من قلقي وخوفي. قاطع التذاكر أخبرني حين سألته، أنّه يكفيني أخذ سيارة أجرة حال وصولي محطة القطارات في مدينة يتوبوري، وسوف يتكفل السائق بإيصالي إلى بناية التلفزيون. سوف أحاول النوم أثناء الرحلة، فأنا لم أستطع النوم وبقيت أتخبط، ينتابني الفزع والقلق طوال الليل.

كان الزحام في المحطة على أشده وكنت أطالع الوجوه بريبة ووجل. وسيل البشر أمامي يبعث في نفسي خوفاً شديداً. فجأة اقترب مني فتى طويل أشقر، أشعث الشعر بجبهة ناتئة وعينين صغيرتين، ودون مقدمات جلس جواري ووضع رأسه فوق كتفي وهمهم بصوت مبحوح أن أعطيه بعجالة سيجارة أو قطعة نقود. دفعت رأسه وأخرجت علبة السجائر وناولته واحدة. دفعني من كتفي بقوة حين همّ بالوقوف. بعدها انحنى نحوي ووجّه لي التحية وأطلق ضحكة مدوّية أرتجف لها قلبي،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ثم مد يده المتسخة فارجاً ما بين الأصابع ووجّهها نحو وجهي مباشرة وصاح بسويدية ركيكة.

ـ لن أقول لك ما سوف أفعله أو ما لا أفعله، فأنت مثلهم.. لن أقول ما سوف أقوم به حتى لو حاولت قتلي أيها السويدي القذر... أيها الغبي.

فجأة بدأ ينتحب، ثم راح يدير رأسه بشدة يمنة وشمالاً، وذهب مسرعاً نحو باب الصالة الداخلية. شعرت بقشعريرة برد وبدأ العرق يغرق جبهتي وبدأت أحس بالاختناق. انتابتني حالة من الكمد والوحشة، وكأن كل شيء حولي مسكون بالأرواح. هزتني رجفة وشعرت بوهن شديد وبدأت أصابع يدي لا تقوى أمساك السيجارة. صمت ضجيج الناس، وبدت الساحة أمامي فارغة تماماً. تقاطع السكك الحديد أخذ يتشابك ويتلوّى بحدّة وثمة صوت صفير يأتي من بعيد. راح الصمت يكبر ويتّسع، وصوت الصفير ينفرد ليخترق فضاء السكون. بدأت سكك الحديد تتلوّى أمامي مثل أفاع تتراقص كأنها في حمى سراب هلامي غطى كل شيء. انكشفت أمامي تلال ترابية يغطيها السبخ وعوسجات تتناثر بين طيات الكثبان وثمة يد مغطاة بالدم خارجة من حفرة قريبة تلوح في الفضاء. اقتربت أمي من الحفرة وكانت تنظر نحوي بعينين متسعتين. مدت يدها وسحبت اليد من الحفرة. أخرجته، كانت بدلته مطلية بلون دم قان متيبّس. شدته أمي إليها وضمته لصدرها. كانت تنتحب، سمعت صوت نحيبها، أمال الجسد رأسه نحو صدرها ونظر اتجاهي بابتسامة شاحبة، ولوّح بيده مرة أخرى وكانت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عيناه تتوسلانني. صوت الصفير يشتد ويقترب. صرخت بكل ما أوتيت من قوة أن ابتعدوا عن المكان كي لا يدهسكم القطار. تقدمت أمي ساحبة معها العسكري الجريح نحو تشابك سكك القطارات. سحبته وهي تحتضنه بحنوّ. صرخت.. توسلتها أن تبتعد. كان ثغرها ينفرج عن ابتسامة رضيّة. وكنت أصرخ وأحس أن صوتي يُكتم في جوفي ويختنق بحشرجة موجعة. نزلت عن الرصيف وتقدمت نحو سكة القطار. سمعت ورائي صراخاً وضجيجاً. التفتّ فكانت هناك وجوه فزعة وعيون ناطة وأفواه فاغرة وأياد تشير نحوي. نظرت نحو القطار القادم بسرعته الجنونية ثم اقتربت من أمي. اقتربت منهما.. اقتربت وأخذت يدها، ضممتها إلى صدري وأجهشت بالبكاء. كان هناك صوت عميق ثقيل يندفع صداه في أذنيَّ. لقد أصغيت له جيداً. شعرت ببرد قارس وثمة ألوان كثيفة تتجمع في عينيّ. كان جسدي ينسحب خفيفاً مثل ريشة يلاعبها الهواء، والسماء تقترب مني شديدة الزرقة تبرق من خلالها ألوان تومض. اختلطت الألوان وثمة ضباب كثيف يغطي المكان. بدأ جسدي يرتجف وغطّتني غمامة سوداء.. صوت هدير قوي.. القطار يقترب.. كان يقترب.. صوت ضجيج يملأ الكون.. يحتدّ.. ثم راح الهدير يكتسح كل شيء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

العودة إلى الوادي المقدس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فجراً، أتلمس طريقي من خلال نور الفانوس الكابي. أتوجه نحو باب الحظيرة متسلقاً سلم الملجأ الترابي اللزج، ثم أغسل وجهي من ماء (الجلكان[1]) المركون جوار الباب. أملأ إبريق الشاي ثم أوقد (چولتنا[2]) الأنيسة، وأجلس عند دكة الملجأ بانتظار خيوط ضوء الفجر المتثائبة. أتملى الهروب الأخير لدكنة الليل.. أطياف تائهة هائمة في الفضاء تخطف أشباحها من ظلمة الليل الكثيفة. أسمع زحف الحشرات ودبيبها فوق سبخ الأرض، وأتنصت شراهتها المستيقظة بحيوية لاستقبال يوم جديد. الهواء الرطب الراكد يملأ الحناجر فيثقل التنفس، يغشاني ضباب كثيف لزج. بدأ الفجر ممتلئاً بهذيانات هائمة تتسرب من شقوق الأرض. دم جديد، نسغ ينبثق من زغب الجسد ويومض في الكون، تُنشر الأذرع والقلوب مثل الصواري تتلمس وجودها في بروق الكون الساحرة المتدفقة من فضاءات أرجوانية متوقدة ، إنه استيقاظ الأطياف الأبدي..

يحضرني الآن وجه جدي المثقل بالأخاديد، المولول أبداً، الباحث عن زمن سعيد هجر مثل غانية وعاف مثل عاقّ. دائما ما كان يناديني ويهزني بكفه الثقيلة المتيبسة. فأنهض ملْء جفوني نعاس.

ـ استيقظ أيها المدلل فقد فاتنا سمك كثير. (الرفش[3]) لا

---

(1) الجلكان: صفيحة لحفظ الماء.
(2) چولة : موقد نفطي صغير.
(3) الرفش: ذكر السلاحف بالحجم الكبير

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يرحم حين يجدك نائماً. سوف يمزق شِبْاك الصيد ولن يهابك. استيقظ وتأمل وهج الأصداف قبل أفول لحظتها..

أدس ثوبي المرقع في سروالي وأنتعل بقايا حذاء. أغمر رأسي الصغير بين كلمات جدي المنثالة، بينما تسحبني كفه الخشنة بين طيات الأزقة المتربة نحو شاطئ النهر، فتلطم وجهي نسائمه، ويغمرني موجه الشفاف الفسيح. رذاذ الماء يوقظني. تلتصق برودته فوق الجلد. يقشعر البدن فتومض العيون وتنفض خدرها. وتروح الأيدي تتلقف بحيوية ركائز الكرب[1] العالق فوق سطح الماء.

ظل رذاذ الماء ذاك يوقظني فجر كل يوم مع صيحات قبراته الأنيسة. يتمدد جسدي ليأخذ سعة الكون، ويتشح بسطوع الأعشاب وروائح شط العرب النافرة. ليس كل ما يسمى له دلالة، إلا زقاق زينب وكف زينب. مسافة الجسد تتناسب ومساحة النافذة، فيتناثر الدفء فوق سطوح الأزقة الضيقة المضببة بالندى من عطر شط العرب. رطوبة تنثال عند الشفاه تدعك الوجه الشاحب لينهض الدم، فيشتعل بين الأنامل المتشابكة المتنازعة من خلال حديد النافذة الصدئ. مكبوتة مهتاجة تمور فيها رغبة جامحة تكبلها عفة القربى والخوف من الفضيحة وأسلاك النافذة.

ـ سوف نبني بيتنا عند حافة البستان. وعند جرف النهر، نصنع لأطفالنا (سرسيحة[2]) نحو الماء. تنتظريني لأملأ تنورك بالخبز والسمك.. سوف أوقظ أطفالنا في الرابعة صباحاً

---

[1] الكرب : النهاية العريضة لسعف النخيل.
[2] سرسيحة: منحدر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ليقيموا الصلاة ويتعلموا الصيد.. سوف.. وسوف وسوف.

ويلتمع وجهها في ظلمة ليل الفاو الآمن، يومض نبض قلبها ابتسامة تنسجها الطفولة.

تزحف من صدري آلاف المتاهات لتنفرط فوق تراب الشارع وتندس بين شقوق الجدران. يسكنني طنين السعادة الذي يؤرجح روحي بانتشاء، فتنسل راعشة بسعادتها. من خوفها وتوجسها. من لعنة الأقاويل لو حصل وإن اكتشفنا أحدهم.

ـ زينب.. اخلعي نعليك فأنت في الوادي المقدس.

ـ ما هذا الهذيان.... ما الذي تتكلم عنه؟!

ـ إنك مقدسة يا زينب ، لن أطأ.. لن أدنس المقدس.. أنت الوادي الذي سيضم قلبي.

ـ أوه ما الذي تهذي به ... لا أفهم ما تقول !!

ـ أحبك..

ـ يكفيني هذا ....

كان الفجر يتكشف بكامل جلاله، بهياً يكشف خطواتي الحذرة الوئيدة وأنا أنسل نحو الزقاق الجانبي مبتعداً عن نافذتها، ملوحاً بكفي فأسمع همس كلماتها.

ـ لا تنسى موعدنا غداً ...

ـ نعم.. نعم.. أهمسها بحرارة الجسد المثقل بضجيج الشوق.. الثالثة فجراً موعدنا يا زينب.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يضطرب جسدي حين أعود لأدسه في الفراش البارد، لأمثل بعد ذلك نهوضاً ميكانيكياً لرجل عاف الكسل وشبع نوماً حدّ الثمالة. لأسلم يدي بعدها لكف جدي وهي تسحبني نحو شط العرب.

في ذاك الزمن حيث علق في رأسي نشيج الفراق. ما عاد لخطواتي مستقر. كان قدري يقودني مثقلاً بالهموم، ومع ترنح الأرض ما كان ليكتمل إلاّ ما هو بشع موحش. ويزوغ من بين قطرات الماء عند الشط وليد مشوه. يمور الماء وتتصاعد أبخرة الكره مثل دخان بركان. شرنقة تشبك الخوف فوق البيوت، تلتهم نبات(السعد[1]) عند الشواطئ، وتأكل جرف شط العرب ومرجاناته. تتكئ بسطوتها فوق نخيل الفاو عند أعشاش البلابل وبيوت القبرات. يقطر مع الطين المندلق من المزاريب رنين أهوج يتقمص روح الشيطان وتطفئ النور صرخة شوهاء.

ـ الحرب قادمة يا زينب ...

ـ ولم الحرب ...؟؟

ـ ولم الحب.. ؟ لكل منهما اسمه ومريدوه و دعاته. فأين نحن من هذا وذاك؟.

ـ يقول أبى.. إننا سنرحل إلى سوق الشيوخ ، عند أقاربنا ، هناك أيضاً يمتهنون الصيد.

---

[1] السِعْد: نبات ينمو عند شواطئ الأنهار، يمتاز بدرناته الصغيرة السوداء الصغيرة حلوة الطعم. وذكية الرائحة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ـ ترحلين يا زينب ونرحل نحن أيضاً.. يقال إن بين السماء و الأرض سبع طباق.. سبعة أكوان.. سبع عجاف.. سبع خرائب تسكنها الغيلان.. نرحل يا زينب ونعاف نافذتنا المورقة بالورود، برذاذ المطر الرقراق المختلط بالشفق السحري. نرحل يا زينب بعيداً عن مدينتنا، عن أزقة الطين المهروسة بالمودة، عن طنين الحياة المشع بين سواقي البساتين. نرحل.. ؟ ولمن نترك رائحة العشب ونداوة الماء في شاطئنا؟ أنرحل عن مدينتنا.. ؟؟؟

ـ أبي يقول إنها الحرب.

ـ إنها الخراب، الموت ، الجذام.. نرحل يا زينب.. أتسألين عني.. ؟؟

ـ وكيف يكون لي ذلك ؟

ـ سوف ألتحق بالخدمة العسكرية ويرحل أهلنا عن المدينة وتكونين أنت بعيدة عني.. ولكن سوف أبحث عنك في بيوت مدينتكم الجديدة. أنثر صوتي عند سمائكم. أطرق بقلبي كل الأبواب لاغترف من وجيف قلبك. اذكريني فإن الله سوف يلملم ارتباك أناملنا، يجاورنا ويهبنا من غمر ألطافه. الحرب يا زينب هي الترحال، الخوف، الجوع، الهجر، الخراب. عيون تخبو وهي تطالع اندحار بهجة الألوان. هي الشوق، اللوثة و الهلوسات.

أسماء تترى في سجلات يومية تحمل طقوسها الهمجية مزروعة في حواس الجسد مختلطة برعشة من شوق. من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نحيب مكتوم ينمو مثل الطحالب يغطي مسام الروح.. سربيل زهاب، بيلولة، كَيلان غرب، سيف سعد، عيلام، زبيدات، كتيبان.... أسماء لا أفقه كنهها. لا صلة تربطني بها سوى الضياع والخوف والمجهول، ولكني أغل هلوساتي فيها بانتظار رجفة يديك وهما تمسدان وجهي، وتطمئنان يدي المرتجفتين.

ـ تنتظرين يا زينب.. تعدين الأيام.. موسم لصيد السمك. موسم للترقيد.. موسم لجمع الثمار، مواسم.... أم ماذا؟

موج شفاف وجهك يلتهم فسحات وريقات الآس في (بقجة[1]) جدي الأثيرة. ملاءة حرير تلف اشراقاتي وأصائلي. النشوة في صوتك تغطي قرقعة السلاح وهدير سرف الناقلات ودوي المدافع. وجهك يرزح فوق أرض الله التي نتنقل فيها ونحشر أجسادنا في شقوقها. يداهمني الموت فأنهش من أحشائه وهج الحنين لوجه أمي وقلبك. تتراءى لي بساتين الصبا المعشوشبة بالطمأنينة، فأفلت مئات المرات من جمرات الموت.. ينز من جسدي تعب التجوال فأريحه عند دكة بابكم في رؤى غريبة وهلوسات أغرب. مثل الذبيحة أصارع زمني. تتوالد في روحي كل لحظة سهوب وصحارى قاحلة. جبال ورودها مشعة ووديان مظلمة سحيقة. وأنا أوطن روحي في ذكرى همسك وابتسامتك التي بقيت تتمجد أبداً في شقوق أرض الفاو. في صخب مدينتنا عند الصباح وضجيج أصوات السفن والتياع القوارب من ثقل السمك في الأغباش. الزبد و اللبن

---

(1) بقچة : كلمة فارسية، تعني حديقة وعند العراقيين تعني حديقة صغيرة مميزة تكون وسط البستان أو وسط الدار.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

والخبز والشاي وطرطشة الجسد المستطابة في الماء الممتد مثل بساط مضبب يلتصق بزرقة السماء، يتماس معها بلزوجة شبقة. ونحن عشبة تتراقص فوق سطحه.

كنا وكانت أيام قواربنا وصوت (فليح) مثقل بالحزن يحز صدر الصباح المورق فوق الشط. رجع لوجع وألفة البيوت والأزقة الفرحة بترابها حين تجيسه أقدام العاشقين والأطفال الحفاة. ونسوة يهذرن بتأريخ مدينة تشتعل كجمرة في قلب الغمر ذاك. شجرة آس بين السبخ والماء باركها الرب بحنوه، فانتصبت ملتقى الخير والتجارة وطيب النخل. تورق فوق خدودها الحناء. شعاع صباحاتها ينبلج ساطعاً حاداً وآصالها تقارب شطها باستحياء.

كل المدن لها نكهتها الخاصة، ولكن مدن الطفولة لها ضوع و شذا آخر. عطر يتكسر ضوعه عند حواف القلب، فينقبض بغصة من فرح غير مكتمل أبداً.

أكافح مخالب الرعب وهي تنهش صدري. تطأني كوابيس من دم ووحل وصراخ وأطراف مجزوزة ... أقاومها برعشة وخوف لكي لا تهرسني الحرب غيلة. لكي لا أنساك وأنسى أديم أرض مدينتنا وشطآنها.. أنسل في الأغباش مثل جرذ بللته الخيبات. تنهض في روحي غصة حين أستيقظ دون رجة كف جدي. أستيقظ لأرى سقف الملجأ يطبق بثقله فوق صدري. فأزرع وردة للصباح حين يقترب وجهك مني وتندس أصابعك بين طيات شعري.

ـ أنسيت فاونا يا زينب؟.. أتتذكرين..... ؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

- .....

ـ هل استطاعوا خلعها من قلبك ...؟

-.....

* * *

ـ جليل ..... تهيأوا للحركة.

ـ إلى أين.. ؟ إلى أين.. ؟؟

ـ البصرة.. حبيبتك ، أليست تلك أمنيتك؟

ـ صـ.. صح.. صحيح ....

تنسدل في الحنجرة ستارة شفافة تحجب إباحة الفرح المتوقد في الروح. أقترب منك يا فاو.. ؟ أقترب منك يا زينب.. ؟ ما الذي جرى لدوران الكون الخامد كل هذه السنين.. تعرى ستر السماء وعليَّ أن أحبو نحوك مثل رضيع نهم.

آلاف الساعات ما شابهت ساعة من زمن دفء ثياب الأم المطرزة برائحة الحناء.. مئات الساعات ما قربت من صدري غير رائحة حشائش البساتين في يوم مرطب.

ما زال الفجر يخالط الليل عندما أيقظت أفراد حظيرتي. همست في آذانهم فرداً فرداً أن استيقظوا، استيقظوا واسمعوا وجيف القلب. لملموا أغراضكم.. انتظاراتكم، جنونكم، حبكم، أجسادكم، فإن النوارس في عجالة من أمرها. أنظروا لوهج الأصداف قبل أن تفلت لحظتها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بدأت نثارات الدهشة والتساؤل تنفلت من مسام الروح عبر العيون المتقيحة من السهد. حركات الأيادي العجولة تشدُّ وتضغط، ثم تنبسط متناغمة مع التقاط الأشياء ووضعها في أماكنها المحددة عند ظهر الشاحنة.

كانت ملامح الفجر تنسل هاربة، وطيور أضلت الطريق لازالت تحوم، حين أكملنا تهيُئنا للرحيل. تراصت أجسادنا بين أكداس الأمتعة والعتاد، وهدأت بانتظار موعدها مع الرحيل نحو بقعة الكون المضيئة. نحو بهجة مثل غلة الله تفيض من بين الأصابع فتملأ جحور الهوام وأفواه البشر.

تتلألأ دروب الجنوب بأعشابها و تتناغم خضرة البساتين مع اهتزازات السيارة العسكرية. الهواء الرطب البارد لازال يوغل أصابعه في صدر نيسان الوهاج، فتنتشي الأجساد المرمية بين العفش والعتاد. الاقتراب من الحبيبة يجعل الروح مورقة فتنطلق الحناجر بغناء مرتبك وبحشرجات فزعة. نستنشق بلذة يخالطها الخوف روائح البساتين وزفرة الشط المستطابة.

القرنة ، الدير، الهارثة.. إذن إنها طيبة الرب تفيض وضحى جديد ينبثق من حواس الروح فيملأ القلب ببروق فواحة تسحب الجسد الثقيل وتحيله إلى كتلة هلامية رخوة.. طفل يتلمس بكفيه الطريتين صدر أمه، رقبتها وزنديها. يشم بأنفه الرخو (شيلتها[1]) فتتورد وجنتاه، وتحلو له الكركرة بين طياتها.

ابتعدنا عن جسر محمد القاسم. إنها مسافة أقرب لهمس

---

[1] شيلة: قطعة قماش خاصة (شال) تتلفع بها النساء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الحبيبة. أهناك جسر آخر نولج أرواحنا منه لنمر نحو جوف البصرة وأحيائها؟. يستمر السير. ليس بعد ذلك ثمة ما يخفى، فلا معبر للأرتال بعد ساحة سعد، ولا قبلة لها سوى أرض مدينتي.

آه يا طباق الله السبع.. آه يا أكوان الله السبع.. آه يا أرض الفاو الملونة بالحناء وبفرح الناس وغنائهم...آه يا ليل الصب ، يا شباكي المفضض بالنحيب.

يحاذيني صوت (فليح) نحيب ينغرز في نخاع العظم، شفاف وحاد. رجع لالتماع الماء والأعشاب. حطام الروح في وجع الشوق. عذابات مضاءة في ليل بحر موحش. تكوينات غريبة لسعال من ريح تعوي لتداهم مراكب بائسة تتقاذفها الأمواج بحدة. يُنثر صوت (فليح) مدرارا عند حواف الحافلة، فوق إسفلت الشارع المتوهج من ضحى الشمس وجفافها. التماع السبخ المتولد من ماء المطر والتراب والرطوبة يصعق الروح عند اقترابها من رائحة الهواء المتأتي من مدينتي.

التعاوني رقم (26) تجتازه سيارتنا بتثاقل. إنها بساتين ناحية البحار. جارتك. معبر الرب لقربك يا حلوتي. نحن بالجوار يا ألفة الروح وشوقها، قريب منك يا ماسة الكون. أتضرع أن لا تسمعي نحيبي. أن لا تنظري شحوبي، دمعتي. أن لا تسمعي ضجيج دمي فيجفل قلبك المكلوم.

* * *

تبتلعني آخر التهويمات فأركن رغباتي في الأصيل المنثور

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فـي البعيـد خلـف الفـاو. يتلاشـى الهـواء الفسـيح فتختفـي أبعـاد الكـون. يخـرج نصـل الخـوف حـاداً لماعـاً يحـز الصـدر فينفـر الـدم، يختلط بالمـاء ثـم يغطـي وجـه الشـط. يلتصـق عنـد جـرف مـدينتي فتـذلني السـاعة وأنـا أنتظـر موعـداً طـال أجلـه، غـبش حلمت بـه. اهتياجات مؤجلة وأطياف ليلية حلوة.. أشحذ البصـر في الظلمة باحثاً عن مدينتي وحبيبتي، والساعة هي السـاعة كل يوم دون حراك.. ولكن أية التماعات مرجانية في أصيلك اليوم !؟ أيّ همس ينسل من جدرانك؟! أسراب الطيور ترحل اليوم من أقاصـي الشطآن لتدخل ضياع سمائك الهلاميـة. عصـافير فاضت دهشتها وهـي تنفض زغبهـا فوق حـواف شطك. تجدلـه وتتزين بـه.. أعـرف نـداءك ولـم يخنّـي قلبـي قط، فتحـت رمـاده نـبض دفـاق يسـحبني نحـوك فينتشـي الجسـد، فـلا أسـمع سـوى هسيس سعفك المتكسر وارتطام الماء بشطآنك.

ـ ما الذي تفعله الساعة يا رجل.. ؟

ـ أناجيها.. أريد أن تحتمل أشواقي وفورة دمي.

ـ من هذه ؟ ما الذي تخرف بـه !! اذهب وخذ قسطاً من النوم فلم يتبقَّ سوى ساعات.

ـ إذهب ونم أنت فلا علاقة لنجواي بحربكم هذه.

ساعات.. ساعات. دهور مسفوحة مثل زئبق ثقيل. ساعات يا إلهـي، من أين يبدأ العائد إلـى بيتـه، يبكـي ، يصـمت، يمـرغ وجهـه بتـراب البيـت، يصـرخ فـي الأزقـة مـع لحظـة الـوهج وسطوعها. ولكـن مـا الـذي يكـون بعـدها؟. انفجـار لقهـر ركـد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

طـويلاً.. انبثـاق لطيـف ألـوان فاقعـة فـي الـروح توالـدت مـن صرخة مدوية كتمت في صدر هابيل وهو يستكين لحز سكين أخيه؟. أم هو صوت الفجيعة يتكسر في صدر قابيل؟

أحقـاً إنهـا سـاعات ، فكيـف ينـام مـن يعـد الـدقائق الملتاثـة دهـوراً؟ يحسـبها مثـل أحجـار ملسـاء صـقيلة تنفلـت مـن بـين الأصـابع. إذن فلأنتظـر النـوم كـي ينـام، لأسـهد متوجعـاً فـي التياعاتي، استمع لأصوات الهوام، الضفادع ، دبيب الحشرات بين جذوع النخل وطيات الحشائش. طيور مذعورة. أسراب السمك وطرطشـة المـاء فـي الجـداول. انفـلات الجـرذان مـن جحورها.

السماء مطرزة تتوهج نجومها في البعيد. تومض بين الحين والآخـر انفلاقـات القنابـل ليختفـي التمـاع الأنجـم الأليـف. مثـل أسراب الجراد تحز الشظايا صدر الهواء، ثم توغل حديدها السـاخن بـين السبخ والمـاء والحشـائش. تنغـرز بارتجـاف بـين جذوع النخل والغرين باحثة عن شواء مستطاب. لحم يتوسلها بألم مدرار وذعر وخوف. انطفاء ضوء ثم صمت يرتحل نحو الانكفاء.

السـاعة الآن هـي فـيض الله.. مثلمـا أولـج الفـاو الطريـة بالخضـرة بـين السبخ والمـاء، تولـد الآن سـاعة مسفوحة فوق الدهور ترتج من هولها آكام النخل، وتتوقف رعباً المناجاة بين هـوام الأرض. آلاف الأصـوات المزمجـرة تـوقظ هابيـل مـن رقدته الأبدية لينزع عنه صوتاً كتمه طويلاً.

ـ آدم.. آدم إنـي ابنـك المـذبوح باسم الحقد والخوف والحسد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

والأنانية والصلف. باسم الخيبات والخديعة. باسم اللاشيء.. آدم.. إن بديع صنعك يحز رقبة ابنك الجميل.

صرخات تدوي وأقدام تضغط فوق انتفاخات السبخ الإسفنجية. ساعة الصفر تنفلت من زمنها المكبل المخبول. يتوفز فيها كل يباس الأرض ليعب الغمر المترامي، يشفط السبخ شبراً شبراً، ينتزعه عنوة ثم يمتد منتشياً مثل أخطبوط. لا يوقف زحفه ساتر ملغوم أو امتدادات الأسلاك الشائكة أو أرض مغمورة. الساعة، تأتي الريح محملة بماء الملح ليرش فوق الجباه، فيتقدم صراخ الخوف. يتناطح الشواء برهبة الموت. تتدافع الصدور جارفة أمامها كل شيء.

في فضاء شفيف من يوم قائظ من أيام الفاو خلت سماؤها من النوارس التي وقفت بعيداً في الأفق ترفّ بأجنحتها مثل رايات سود، تنظر كيف تتناطح الأجساد. كيف يطأ الجنود بأحذيتهم الثقيلة أكتاف السواتر لتتشظى أسرار الربّ وينتهك جبروت صنعته. أبناؤه، زهراته التي صنعها من تراب يدسّها إخوتهم في السبخ المرّ. أيّ ذئب استساغ طعم لحمك يا يوسف؟

أتقدم نحو مدينة فتحت ذراعيها خفية لطفلها الذي كبر في حضنها وغاب عنها زمناً. ينهمر الدمع ويدر ثدياها حليبا دافئا.

ثم.. ثم يا إلهي ، اقتربنا. تتلألأ ماسة حبي من بعيد فتتصاعد في الروح نشوة.. تراتيل تخرج من نور مبهر. روائح عبقة تغمر الأفق فتتهادى الروح بين نسائمها. آلهة موشحة بالورد الأبيض مكللة بالزمرد تتراقص في الأفق تناديني.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ ألا أيها العاشق اقترب فموعدك الساعة.

حزمة من حناء تنثر أوراقها فوق السبخ فيصطبغ بلون أحمر مشع. مباركة حناء الفاو تتعبد بها الطرق، فتنموا حشائش يدثرها الندى.

ـ ليس وقت المناجاة و الدموع يا رجل.. عليك تحاشي مصادر النيران فإنها الحرب وليس تهويمات أحلام.

ـ اخلع نعليك فأنت في الوادي المقدس.

ـ دع تخريفاتك الآن فلا وقت للهلوسة.. آه.. ألم أقل لك تحاشى مصادر النيران. انتظر مكانك.. انتظر فصيل الإخلاء.. أنت تنزف..

ـ مقدسة دروبك يا مدينتي..

ـ ابق مكانك.

ـ لا.. إنها تنتظرني، تملأ طبقها بخبز حار. سوف نعدّ القارب وشباك الصيد سوية. إنها تنتظر فكيف لي أن أتوقف.

ـ ولكن.. إنك تنزف بشدة.

دروب الضوء تستفز، وتلملم شتات بيوت الفاو المهدمة. الدم الحار الوقاد يبلل صدري ويختلط بتراب دروبك. أحس طعم ثمر البمبر الصمغي يغلي في جوفي. أدلك شعر صدري لتثب في جسدي روائح العشب وطراوة الماء عند السواقي في بساتينك. في أزقتك التي كبرت مع الفراق وتيبس فيها صوتي وهمسك. كريات لدم مشع تصعد في تجاويف نافذتك. سرب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

طيور حلّق فوق رأسي، فأضاء الفضاء والشط. دفعت جسدي بقوة وركضت، وكانت تتملكني إشراقات صوتك وارتعاشات الهواء الخفيفة، والنوارس ترفع بأجنحتها جسدي الواهن.. لم يبق في مدينتي سوى أقدام صبية مرسومة فوق أديم الأرض. أجري بين الخرائب وأقترب من همسك، من مناجاتك.

ـ تعال يا حبيبي ... تعال.. إنك في الوادي المقدس.

ـ قادم أنا يا زينب.. مدي كفيك واحتضني وجهي. مسّدي شعري. شدّيه، فساعة الفرح مثل أجنحة العصافير المبللة برذاذ الماء. كل شيء الآن قابل للمزاح. فرح ينثال من السماء ملوّن بأشعة مبهرة تلتمع بين آكام الشجر وفوق حافة الشط. أنصتي.. اسمعي آلاف السفن تمخر عباب النهر. أصواتها تصم الآذان، وأسراب النوارس تغشى السماء مثل سحابات بيضاء. تتقاسم فتات الخبز، لا تدعه يسقط نحو الأرض. أصائل تختلط تتجمع، تنبسط. وتبر الأرض يلتمع عند حافة النافذة. اسمعي.. اسمعي أصوات المجاذيف. رنينها الدافئ يملأ المدينة بأنغامه. سطع زعانف السمك يرف فوق حافات شباك الصيد، والكرب الراقص فوق سطح الماء. مدّي ذراعيك وتلمسي جرحي. رشيه وعفريه بعرق يديك. أشبكي أناملك بين أصابعي، فطرطشة الماء تغمر صدري الآن. يسحبني السمك الملون نحو العمق وسرب عصافير يلهو فوق كتفي... إنه فرح صباحات الفاو يرش صوته في ثغر الكون. إني أذوي سعادة فتعالي جواري. يشبكني (السعد) نحو برودة الطين فتلسعني طيبته. أتفتت، أنزلق عند (السرسيحة) فتضمني ذراعاك. أتأرجح مثل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كتلـة رخـوة. أتلمـس رقبتـك ، أشـم ضـوع أنفاسـك، فـأدس أنفـي بين طيـات (شيلتك) وأرغـو فتتهـدل السـعفات تحـت وطـأة أقدام البلابل وهي تفرش أعشاشها بـالريش الأصـفر. التمـاع الصـدف يغطـي ظـلام المدينـة. إنـي أرغـو بـين أناملـك، أبكـي فضـميني لصدرك. مدي دثاري في واديك المقدس.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

صدر للمؤلف

1. **"فيما تبقى"**، مجموعة قصصية، 2010.
2. **"كارل ماركس في العراق"** (رواية) (تخيل نقد ماركس للواقع العراقي المعاصر) 2017.
3. **"من يسمل عين الحرب؟"**، إعادة إصدار المجموعة القصصية "فيما تبقى" منقحة وموسعة، 2017، إصدار دار اوروك ميديا للإعلام والنشر ـ ستوكهولم ـ السويد. ـ النسخة الرقمية "ألف ياء"ـ تموز/ يوليو 2025
4. **"هارب من الإعدام"**، تحرير وتقديم مذكرات الدكتور خليل عبد العزيز السياسية 2018.
5. **"بوسترات"** (المجموعة القصصية) 2021. إصدار دار اوروك ميديا للإعلام والنشر ـ ستوكهولم ـ السويد.
النسخة الرقمية "ألف ياء"ـ تموز/ يوليو 2025
6. **"الإبهار في النص الغنائي"** (سيرة وأعمال الشاعر زهير الدجيلي)، 2022.
7. **"هناك لي أهل في البعيد (عراقو)"** (مزيج من الاجتماعي، التاريخي، والخيالي، مستوحاة من قصة أهل عراقو في أفريقيا)، 2023.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فرات المحسن

- ولد الكاتب فرات المحسن في قلعة سكر / محافظة ذي قار، عام 1949.
- حاصل على بكالوريوس في آداب اللغة الروسية من كلية الآداب - جامعة بغداد (1975-1976).
- غادر العراق نتيجة للقمع السياسي ويعيش الآن في السويد ويحمل الجنسيتين العراقية والسويدية.

المسيرة الأدبية والصحفية:

- بدأ النشر الأدبي عام 1975 بنشر قصة قصيرة في جريدة "طريق الشعب".
- تأثر مساره بظروف سياسية صعبة أواخر السبعينيات، أدت إلى توقف مؤقت وفقدان بعض المخطوطات.
- استأنف نشاطه الأدبي والصحفي بعد الاستقرار في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

السويد، موزعًا بين الهم السياسي والأدبي.

- مارس الصحافة ككاتب للمقال السياسي في:
- ـ مجلات منظمات المجتمع المدني العراقية في السويد.
- ـ صحف المعارضة العراقية والمواقع الإلكترونية.
- ـ الصحف العراقية والعربية لاحقًا.
- حافظ على كتابة القصة القصيرة كـ"سلوى ومتنفس" رئيسي.
- يواصل الكتابة والنشر في المجالين السياسي والأدبي في الصحف والمجلات العراقية والعربية والمواقع الإلكترونية.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa